صحافة ..
وصحفيون

بقلم

نبيل زكي



بطاقة فهرسة

مكتبة جزيرة الورد

اسم الكتاب : صحافة .. وصحفيون

المؤلف : نبيل زكي

رقم الإيداع : ٢٠١٠/٢٣٣٢٢٧

الطبعة الأولى ٢٠١٠



مكتبة جزيرة الورد

القاهرة : ٤ ميدان حليم خلف بنك فيصل

ش ٢٦ يوليو من ميدان الأوبرا ت : ٠١٠٠٠٠٤٠٤٦ ـ ٢٧٨٧٧٥٧٤

Tokoboko_5@yahoo.com

الفهرس

الموضوع	الصفحة

الموضوع **الصفحة**







المقدمة

البوصلة الأخلاقية في مهنة الصحافة

تعد المشاركة في المعلومات من أول الأشياء التي يفعلها الناس عندما يلتقون بصديق أو أحد المعارف .

هل سمعت عن ...؟

فنحن نريد أن نعرف أنهم سمعوا ما سمعناه، ونريد أن نعرف ما إذا كانوا سمعوا ما سمعناه بالطريقة نفسها.

فهناك حالة من النشوة والإثارة في تقاسم الشعور بالاكتشاف . وعندما يحدث عائق لتدفق الأخبار.. يحل الظلام ويزداد القلق. ويصبح العالم ساكنًا ويشعر المرء بالوحدة .



يقول السناتور الأمريكي «جون ماكين» عن السنوات التي قضاها أسير حرب في هانوي خلال الحرب الأمريكية ضد الشعب الفيتنامي : إن ما أفتقده بدرجة كبيرة ليس الراحة أو الطعام أو حتى أسرته وأصدقائه وإنما.. المعلومات غير الخاضعة للرقابة وغير المشوهة.

■ ■ ■

في كتاب «المبادئ الأساسية للصحافة» ، يشرح الكاتبان الأمريكيان «بيل

كوفاتش» ، و«توم روز نشتيل» ما يطلقان عليه غريزة الوعي والدراية.

يقول المؤلفان: إننا في حاجة إلى الأخبار لكي نحيا حياتنا، ولنوفر الحماية لأنفسنا ، ولنترابط مع بعضنا البعض ، ولكي نحدد الأصدقاء ، والأعداء.. فالصحافة ببساطة، هي النظام التي تنشئه المجتمعات للإمداد بهذه الأخبار . وهنا يكمن السبب وراء اهتمامنا بنوعية الأخبار وبالصحافة التي بين أيدينا : فهما يؤثران في نوعية حياتنا وأفكارنا وثقافتنا .

وجاء وقت، شعر فيه الكثيرون من الصحفيين الأمريكيين بقلق بالغ بعد أن أظهرت نتائج استطلاعات الرأي عام ١٩٩٩ أن ٢١٪ فقط من الأمريكيين يعتقدون أن الصحافة تهتم بالناس. وتضاعف القلق نتيجة المخاوف من اختفاء الصحافة داخل عالم الاتصالات الأوسع. وظهور احتمال أن تحل محل الصحافة أشياء أخرى مثل: الإعلان والترفيه والتسلية والتجارة الإلكترونية والدعاية .

وأثناء أزمة الثقة من جانب القراء في الصحافة: تمسك الصحفيون بأن الصحافة تقدم شيئًا فريدًا: معلومات مستقلة وموثوقًا بها ودقيقة وشاملة، وهي المعلومات التي يحتاجها المواطنون لكي يكونوا أحرارًا .

وعندما تراقب الحكومات الأخبار ، فإنها تدمر الثقافة الديمقراطية ، كما حدث في سنغافورة، حيث تتم مراقبة الأخبار من أجل تشجيع الرأسمالية ، كما يجري في الولايات المتحدة الأمريكية، استغلال منافذ الأخبار التي تملكها شركات أكبر لترويج منتجات شركتها العملاقة الأم ، أو ممارسة عمليات ضغط وتأثير بارعة أو منافسة بين الشركات أو مزج المادة الصحفية مع الإعلان لتعزيز الأرباح .

ويوضح كتاب «المبادئ الأساسية للصحافة» أن مجموعة من الصحفيين قامت بتشكيل «لجنة الصحفيين القلقين» لدراسة أوضاع الصحافة وعقدت ٢١ اجتماعًا

شارك فيها ثلاثة آلاف شخص وتضمن شهادة أكثر من ٣٠٠ صحفي كما قام فريق من الباحثين الجامعيين بمقابلات استغرقت مائة ساعة وثلاثة ساعات ونصف الساعة مع الصحفيين حول القيم الصحفية وجاء الكتاب المذكور ثمرة لتلك الدراسات .

اتفق الصحفيون على بعض المبادئ الواضحة والأساسية للصحافة .

فإذا كان الهدف هو تزويد القراء بالمعلومات التي يحتاجونها لكي يكونوا أحرارًا ويحكموا أنفسهم.. فإن الضرورة تقتضي من أجل تحقيق هذه المهمة اتباع ما يلي :

- الصدق هو الالتزام الأول للصحافة .
- أن ولاءها الأول للمواطنين .
- أن جوهرها هو البحث عن الحقائق .
- أن ممارسيها يجب أن يحتفظوا باستقلالهم عن الذين يغطونهم بالأخبار .
- يجب أن تكون الصحافة رقيبًا مستقلاً عن السلطة .
- يجب أن تشكل الصحافة منبرًا للنقد العام وللحلول الوسط .
- ينبغي على الصحافة أن تبذل جهدها لكي تجعل الخبر العام مشوقًا دون الخروج عن جوهر الموضوع .
- يجب أن تبقى الصحافة على الأخبار .. شاملة ومتناسبة مع أهمية الموضوع .
- يجب إتاحة الفرصة لممارسي هذه المهنة لكي يستعملوا ضمائرهم .
- الالتزام الاجتماعي والأخلاقي للصحافة .. ضرورة قصوى .

كان البابا يوحنا بولس الثاني يقول :

الصحافة بما لها من تأثير هائل ومباشر على الرأي العام ، لا يمكن أن تقودها القوى الاقتصادية والربح والمصالح الخاصة وحدها فقط، وإنما بالأحرى يجب

الإحساس بها كمهمة مقدسة بمعنى معين من المعاني ، في ضوء أن وسيلة الاتصالات الجبارة التي عهد بها إلى الصحفي ، إنها تستخدم من أجل الخير للجميع .

يقول بيل كوفاتش وتوم روز نشتيل : أنه يجب أن يكون لكل صحفي حس شخصي بقواعد الأخلاق والمسؤولية أو «بوصلة أخلاقية» وأن يتحمل الصحفي التعبير عن ضميره الشخصي جهارًا ، وأن يسمح للآخرين من حوله بأن يفعلوا الشيء نفسه .

وهناك ما لا حصر له من العقبات أمام إنتاج أخبار دقيقة ونزيهة ومتوازنة ، وموجهة للمواطن ، وتعبر عن استقلال وشجاعة الرأي .

ويقرر المؤلفان أن قواعد الأخلاق تشكل نسيجًا واحدًا مع كل مبدأ من مبادئ الصحافة . وهناك أيضًا عبء حماية الضمير .. وهذا الضمير تنبع منه قيم ومبادئ أخرى ، مثل : الدقة والالتزام حيال المواطنين والتنوع الفكري والنزاهة .

وكل صحفي عليه أن يضع لنفسه قواعده الخاصة ومعاييره الخاصة، وأن يتخذ لنفسه نموذجًا لحياته المهنية .

ويقول الخبير الإعلامي «جون كاتز» : أنه يجب أن يكون لدى الصحفيين سياق أخلاقي في العمل الذي يؤدونه حتى يكون له معنى حقيقي.. ويضيف أنه أيًا كان ما يفعلونه فإنه يقع على كاهلهم أن يؤدوه بطريقة ترضيهم أخلاقيًا.

ومعظم الصحفيين يدركون أن الصحافة عمل أخلاقي وأن كل خلفيتهم وقيمهم ومبادئهم توجه ما سوف يعملونه أو لا يعملونه، وقد قاد التطور الوجداني والفكري.. صحفيون كثيرون إلى بعض «المعتقدات الراسخة الجميلة» على مر السنين.

وهذا البعد الأخلاقي بالنسبة إلى كثير من الصحفيين – فيما يرى كتاب «المبادئ

الأساسية للصحافة» - قوى بصفة خاصة بسبب ما جذبهم إلى المهنة في المقام الأول .

وبدون البعد الأخلاقي لا يبقى للصحفيين سوى القليل ليساعدهم على شق طريقهم في المناطق الرمادية من القرارات الأخلاقية .

تقول الصحفية المخضرمة كارول مارين:

«بما أن الأخبار لا قوانين لها.. ينتهي الأمر بالصحفي بأن يكون هو نفسه نوعًا من البوصلة المرشدة التي تحدد له ما يفعله وما لا يفعله » .

وهذا الإحساس الأخلاقي هو الذي يوجه الصحفي حول ما يكتبه وكيف يكتبه، كما يوجهه عند اختيار سلة الأخبار التي ينشرها .

ويبدي الكتاب اهتمامًا بموقف جمهور القراء .

إنهم يقولون : «نحن نتطلع إلى المعلومات ، ولكننا نتطلع أيضًا إلى الأمانة والصدق ، ونريد من الصحفيين أن يضعوا مصالحنا واهتماماتنا في قلوبهم » .

الصحفيون يعيشون ويموتون بسمعتهم كأفراد يتمسكون بمبادئ الأخلاق فهذا هو كل ما يملكونه .

وهناك أيضًا أمانة واستقامة التغطية الصحفية ، وأن تكون القصص الإخبارية معبرة عن احتياجات المواطنين ، وليست معبرة عن مصالح أقطاب النظام السياسي أو الاقتصادي.

والمتوقع من الصحفيين .. الشفافية في عملهم ومطالبة مؤسسات السلطة بالشفافية أيضًا .

والولاء للمواطنين هو الأساس ومراعاة مصالحهم ، وليس رعاية المصالح الضيقة لزمرة صغيرة من الأشخاص والاستقلالية في الرأي .

وفي عالم لا يعرف إلا لغة الأرباح.. تزداد مسؤوليات وأعباء الصحافة ، وتتضاعف أهمية أن تتخذ مسارًا أخلاقيًا في عملها .

ونقطة البداية في تدمير الصحافة هي خدمة المصالح الخاصة ، سواء كانت دعاية لدولة مستبدة أو أوامر من طبقة منغمسة في الملذات تحل الألعاب البهلوانية محل السيادة الوطنية .

وحتى المفكر الاقتصادي المدافع عن النظام الدولي الراهن جيمس دي وولفسون «رئيس البنك الدولي» السابق قال أمام مجلس الصحافة العالمي :

«إن الفساد هو أكبر مانع بمفرده للتنمية الاقتصادية العادلة في عالم اليوم.. وأي صحافة حرة لابد أن تدعو إلى التنمية العادلة .. وهناك ستة مليارات نسمة لا سبيل أمامهم للحصول على صحافة حرة ، وهناك ٢ , ١ مليار نسمة يحصلون على خدمة صحفية من جانب صحافة مُسَخرَةَ على نحو متزايد لخدمة الربح الخاص أكثر مما تخدم المصلحة العامة .

هذا الكتاب

الصحفي ليس «مؤرخ اللحظة» كما يصفه الأديب الفرنسي ـ من أصل جزائري ـ «ألبير كامو» .. ، ذلك أن عمله لا يقتصر على اقتناص اللحظة «أون لاين» ونقلها إلى العالم أجمع .. وإنما الصحفي هو «مؤرخ كل اللحظات بما تحتوي عليه من أحداث .. على مدار الساعة .

لم تعد المعلومة تصل إلى العالم ـ وقادته وزعمائه ـ بواسطة الحمام الزاجل أو الرسول الذي يعدو آلاف الأميال على ظهر حصانه لنقل الأخبار أو الأوامر .

ولم يعد الرأي قاصرًا على جماعة من المترفين الذين يتبادلون الأحاديث في

النوادي والسهرات الناعمة .

وإنما أصبح الخبر يصل إلى الدنيا في نفس لحظة وقوعه ، وأصبح الرأي والتحليل .. ضرورة لفهم أبعاد الحدث ومغزاه .. وعلاقته بغيره من الأمور الجارية .

وأصبحت مهمة الصحفي محكومة بالدقيقة والثانية : الموعد الأقصى لرصد الواقعة والحد الأقصى لتسليم الخبر الذي يدور حولها أو لتسليم المقال .

أي أن الصحفي أصبح محكومًا بالوقت القاتل ، على حد تعبير الكاتب الصحفي اللبناني الصديق الدكتور جورج الراسي .

لذلك رأيت زملاء أعزاء يتساقطون .. إما بالسكتة القلبية أو بارتفاع ضغط الدم أو بالاضطراب العصبي .. وغالبًا ما يفارقون الحياة وهم يضعون آخر نقطة في ختام موضوع إخباري أو مقال تحليلي .

الصحفي .. كالفراشة التي تنجذب إلى النور حتى تحرق جناحيها .. وتفنى .. أو يجذبها ذلك الثقب الأسود الذي يبتلع كل شيء .. لأنه بلا قاع أو قعر .

ومن لا يرحل ضحية نوبة قلبية أو الضغط أو الأعصاب .. يفقد حياته بالرصاص والقنابل والتفجيرات هنا وهناك .. أو ضحية لقناص ينتظره على قارعة الطريق .

هكذا فقدت اثنين من أقرب الأصدقاء لي في أتون الحرب الأهلية في بيروت ، هما الصحفي والكاتب المصري إبراهيم عامر والشاب السوري المثقف اللامع ، سكرتير تحرير مجلة «فلسطين الثورة» طلال رحمة . وسوف أتناول تفاصيل تلك المأساة في سيرتي الذاتية التي أعدها للنشر .

وفي كل عام تذيع وكالات الأنباء ومؤسسات الصحافة العالمية إحصائية بعدد

الصحفيين الشهداء ، الذين سقطوا في مواقع خطرة في أنحاء العالم . وكأنهم قرابين لابد من تقديمها لإرضاء آلهة الموت والقمع .

***

كان الدكتور محمود عزمي يقول: ان الصحافة «معلمة الأمم من الوجهة السياسية ، ومربيتها من الوجهة الخلقية ، ومذيعة الأخبار المتنوعة والآراء المختلفة بين الجمهور ، والتي تفتح الباب أمام القراء للوقوف على مستحدثات العصر ومبتكرات الفكر » . ولما كانت الوظيفة الاجتماعية للصحافة ، في رأيه ، هي «توجيه الرأي العام عن طريق نشر المعلومات والأفكار الخيرة الناضجة ، معممة ومنسابة ، إلى مشاعر القراء ..» . فإن الحرية لابد أن تكون هي كيان الصحيفة ، إذ لا يمكن تصور وجود صحافة بالمعنى الصحيح إلا إذا كُفلت لها حرية إبداء الرأي على أوسع ما يمكن من الصور » .

وقد شهد تاريخ الصحافة المصرية الحديثة مقاتلون أشداء دفاعًا عن هذه الحرية .

وقد وقع اختياري على بعض نماذج من هؤلاء الصحفيين والكتاب ، الذين فقدناهم في السنوات الماضية ، لأنني رأيت من واجبي إحياء وتجديد ذكراهم ، فهو أقل ما يجب الاضطلاع به نحوهم إذا كنا ما زلنا نؤمن بقيمة اسمها .. الوفاء ويرجع اختيار تلك الشخصيات إلى سبب محدد هو أنني عرفتهم عن قرب ، وقادتني تلك المعرفة إلى اكتشاف جوانب في أفكارهم ومواقفهم جديرة بالتسجيل ، وتنتظر إلقاء المزيد من الضوء عليها .

ورأيت أن أضيف إلى من عرفتهم شخصيتين محددتين ، لم أعرفهما شخصيًا ، هما الدكتور محمد مندور وعبد العزيز البشري .

فقد شعرت أن وجودهما بين دفتي هذا الكتاب ضرورة لاستكمال لوحة جميلة

ومشرفة .

ورأيت أيضًا أن أضيف شخصيتين نموذجيتين أجنبيتين من الصحافة العالمية ، أحدهما عرفته وتحدثت معه طويلاً ، هو الصحفي الاسترالي ـ العالمي «ولفريد بورشيت» ، والثانية .. لم ألتق بها في أي يوم ، ولكنها تستحق التحية للأسباب التي سيعرفها قارئ هذا الكتاب .

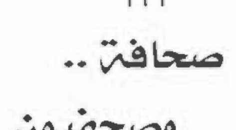
وهناك فصل في الكتاب يتناول بعض مشكلات الصحافة وقضايا المهنة .

أما الجزء الأخير ، فإنه يقدم نموذجًا للرد على صحفي كبير يختلف معه المؤلف في قضايا هامة ومحدودة .. وربما يتيح هذا الجزء إيضاح أهمية الحوار الخصب الموضوعي حول أحداث وفترات فاصلة وحاسمة من تاريخنا وحياتنا .

وإذا خلص القارئ ، بعد أن يفرغ من هذا الكتاب ، إلى أن صاحبه يؤمن بأن للصحافة دور ورسالة ، وأن الصحفي ينبغي أن يكون صاحب موقف مناصر للعدل والحرية ، وأن يكون مدافعًا عن حق الحياة والمساواة ، والأخوة بين البشر ، رافضًا للظلم والقهر والتعسف والتفاوت الاجتماعي والتقسيمات الطائفية والمذهبية .. يكون هذا الكتاب قد حقق الهدف من صدوره .

■ ■ ■







الفصل الأول

أيام مع قمم الصحافة المصرية



سنوات في بلاط.. صاحبة الجلالة

يزداد احترامي وتقديري للصحفي الذي يعتز بكرامته ويدافع عنها .

وفي تاريخنا الصحفي .. شخصيات عديدة شامخة لم تتردد في اتخاذ المواقف اللائقة والجديرة بهذه المهنة .

يروي الكاتب الكبير الراحل أحمد بهاء الدين ما حدث بعد صدور قرار الرئيس جمال عبد الناصر بتعيين علي صبري مشرفًا على جريدة الجمهورية ، وأنور السادات مشرفًا على مؤسسة أخبار اليوم ودار الهلال ، وضياء الدين داود مشرفًا على الأهرام .

في البداية فهم أحمد بهاء الدين أن مغزى القرار هو توجه كل مؤسسة بكل مشكلاتها إلى المشرف لكي يحلها بسرعة بعيدًا عن تعقيدات الروتين .

وهنا يقول بهاء الدين :

■ ■ ■

اتصل بي السادات يومًا .. وقال لي: أنه يرجو أن أدبر له مكتبًا في دار الهلال التي أرأسها لكي يتردد عليه ونعرض عليه مشاكلنا .. ووجدت في ذلك تفسيرًا لقرار

عبد الناصر غير ما فهمته ، فمعنى تجهيز مكتب هو الإشراف على المؤسسة ووجود أنور السادات في المؤسسة سيلغي وجودي أتوماتيكيًا ، وتستغل العناصر «إياها» وجود سلطتين .

وأجبت أنور السادات بسرعة : مكتبي تحت أمرك! وهو الوحيد اللائق بك في دار الهلال .

وقال لي السادات: مش معقول يا أحمد ، أنت بذلك لا تريدني في دار الهلال .

قلت له : سيادتك تعلم أنني كثيرًا ما وسطتك لدى الرئيس عبد الناصر لكي يعفيني من رئاسة مجلس إدارة دار الهلال ، وأن يجعلني مشرفًا على تحرير مجلاتها فقط وتذكر أنه عندما رفض ذلك أكثر من مرة ، بحثت عن وظيفة في منظمة اليونسكو ووجدتها ، وكنت على وشك الحصول على أجازة سنتين أعيشها في باريس فرارًا من مشاكل الإدارة «وكان ذلك أيضًا بسبب تعثر الأوضاع الداخلية سنة ١٩٦٥ وما بعدها» فلما وقعت الحرب .. عدلت عن المشروع .

كان هذا كله صحيحًا وكان السادات يعرفه .. وعندما حاولت أن أواصل الحديث .. قاطعني قائلاً : طيب عليك أن تؤجل حكاية المكتب دي لحد ما نتقابل .

وهنا يقول أحمد بهاء الدين: أن السادات لم يستأنف الحديث معه حول هذا الموضوع قط، ولم يدخل دار الهلال على الإطلاق .

***

وفي ١٢ يوليو عام ١٩٤٦ تم اعتقال الكاتب والمفكر الصحفي الكبير سلامة موسى بتهمة الدعوة إلى الجمهورية والشيوعية ، وقضى ليلة في سجن الأزبكية وسط أربعين من المتهمين بالسرقة والاعتداء والقتل وحيازة المخدرات .

ورغم أن سلامة موسى قام بتأليف أربعين كتابًا .. وتعرضت كل الصحف

والمجلات التي أصدرها للتعطيل والإغلاق كما حدث لمجلة «المستقبل» في عام ١٩١٤ والمجلة الجديدة ١٩٢٩ إلا أنه ظل صامدًا في وجه متاعب ومشاق لا تُحصى . ولم يكسب شيئًا من الصحافة ، بل عاش على بيع بعض ممتلكاته التي ورثها عن أهله .. ورفضت وزارة المعارف أن تشتري بها قيمته مليم واحد من مؤلفاته ، بينما كانت تشتري من آخرين بها قيمته ٤٠ ألف جنيه . وازداد الرجل تشبثًا بكرامته .

كان سلامة موسى يقول : «مرت شهور وأنا لا أكسب سوى خمسة جنيهات في الشهر.. كنت أتقاضاها ثمنًا لمقال في «مسامرات الجيب» ومنها مقال دعوت فيه إلى تأميم شركة قناة السويس.

***

لم يكن الكبار يفصلون بين المهنة .. والأخلاق والتعليم . وعندما أصدر «أحمد لطفي السيد» العدد الأول من صحيفة «الجريدة» لكي تتضمن خلاصة أفكاره .. حاول أن يطرح مبادئ لتأسيس الصحف والواجبات المنوطة بأي جريدة في وطن يطمح إلى التقدم . يقول لطفي السيد عن «الجريدة» : أتيحت لي فرصة النهوض بإدارة صحيفة كبيرة .. فتهيأ لي من وسائل الدعوة إلى الإصلاح السياسي والاجتماعي والثقافي والخلقي .. ما كنت أتمنى . وإذ دعوتي إلى هذا الإصلاح تنتشر ويعظم انتشارها، وما أسرع ما حاولت أن أجعل من دار هذه الصحيفة معهدًا للعلم وإذ أنا أدعو الشباب إلى محاضرات وأحاديث يسمعونها مني ومن جماعة من خاصة المثقفين، وإذ فكرة الجامعة تنشأ ويتحدث بها الناس وتشتد الدعوة إليها والاستجابة لها . وما هي إلا فترة قصيرة حتى ظهرت الجامعة ، رغم السلطتين اللتين كانت تؤول إليهما الأمور في تلك الأيام ، سلطة القصر وسلطة الاحتلال .

***

وبمناسبة مرور أربعين سنة على رحيل شيخ النقاد والقائد السياسي والكاتب والصحفي الكبير الدكتور محمد مندور نتذكر كبرياء هذا الرجل العظيم .

كان خصومه يخشون من هذه الكبرياء .. وهذا الترفع الأخلاقي والسمو الفكري .

أغلقوا العديد من الصحف التي أصدرها ورأس تحريرها ومنها «الوفد المصري» وبين عامي ١٩٤٥ و ١٩٤٦ تعرض مندور للحبس الاحتياطي - بسبب مقالاته - ما يقرب من عشرين مرة .. وفي ١٠ يونيو عام ١٩٤٦ ، دخل السجن الذي فتحه إسماعيل صدقي باشا لخيرة مفكري ومثقفي مصر .. ووصلت حملة الأكاذيب والافتراءات ضده إلى حد اتهامه بأنه حلقة الاتصال بين الوفد و«الكومنترن» (قيادة الشيوعية الدولية!!) .

وبعد ٢٣ يوليو ١٩٥٢ صدر قرار بمنع كل من اشترك في الأحزاب السياسية من ممارسة العمل السياسي «قرارات العزل» وظهر من يعتبرون مندور من «أشياع العهد البائد» !

ولم يسمح لمندور إلا بالكتابة في المجلات الثقافية والأدبية والفنية . وكانت كلمة مجاملة واحدة تصدر من مندور كافية لكي تفتح الطريق أمامه إلى أعلى المناصب .

ولكن قلمه ظل دائم الشموخ ، ولم يفكر هذا المثقف الموسوعي ذو الطراز النادر الفريد في أن يستجدي أحدًا لكي يحصل على المكانة التي يستحقها . بل على العكس .. أصدر كتابًا بعنوان «الديمقراطية السياسية» أعلن فيه تمسكه بحق الشعب في اختيار حكامه.. الأمر الذي جلب عليه المزيد من المتاعب التي ظلت ترافقه وتنغص عليه حياته.. حتى رحيله .

***

وفي مقال نشره الكاتب الكبير الراحل «صلاح حافظ» ، ضمن سلسلة مقالات بعنوان «عجائب الصحافة السبع» ، وأعاد الزميل رشاد كامل رئيس تحرير «صباح الخير» السابق ، نشره في وقت لاحق .. يحدثنا صلاح عن «فن الصحافة.. الذي ليس فنًا!» .

ما هو هذا الفن .. الذي ليس فنًا؟ .

إنه استثمار أمراض القراء النفسية ورغباتهم المكبوتة والمشاركة بقوة في تنمية هذه الأمراض والرغبات ، والحرص على عدم الشفاء أبدًا .

وهو أيضًا نزعة الاستعلاء ، التي لم يعد العصر يسمح بأن يتمتع بها مواطن ضد مواطن وأصحاب هذا «الفن» يهبون لنجدة الراغبين في الاستعلاء ، ويبيعون لهم فضائح تجعلهم يشعرون بالتفوق على «أبطال» هذه الفضائح، وبأنهم أرقى من هؤلاء «المفضوحين» .

ويستند صلاح حافظ على كتاب «مدخل إلى الصحافة» من تأليف «فريزر بوند» لشرح الفكرة .

يقول : إن البعض يخاطبون اللاوعي عند جمهور القراء لكي يقوموا بتغذية متعمدة لأي نقاط ضعف لديهم ، وليس صحيحًا ما يدعونه من أنهم أبرياء ، وأن كل ما يفعلونه هو أنهم يقدمون للجمهور ما يطلبه وما يريده، فالواقع أنهم يلقنون الجمهور أن يطلب ما لديهم، ولما كان ما لديهم فاسدًا ، فإنهم يتولون إفساد الجمهور .

إذن.. هو استثمار ضعف البشر، والنفخ في أي انحرافات قد توجد لديهم، وتقديم مواد من شأنها أن تغذي – طول الوقت – أية أمراض متوطنة لديهم! .

وهناك من يتصورون أن الصحافة يجب أن تتحرر من كل التزام وكل انتماء ، بحجة أن لها رسالة «مستقلة» عن أي التزام وأي انتماء .

إنه أسلوب يستخدم مع «الزبائن» أسلحة السماسرة التي يستعملها كبار التجار وصغارهم منذ فجر التاريخ ، كما أنه أسلوب يعتمد على القفز من فوق أسوار العقل الواعي والوصول إلى العقل الباطن .

ولا يمكن أن يكون هذا الأسلوب أداة لمهنة مهمتها التنوير أو الإعلام أو قيادة الرأي العام.. فهذه المهمة تحتاج – في رأي صلاح حافظ – إلى إيقاظ الوعي.. لا إلى خداعه والالتفاف من ورائه .

***

في عام ١٩٣١، علق حافظ بك رمضان رئيس الحزب الوطني أمام البرلمان على قانون المطبوعات المقترح. في ذلك الوقت. كان يعرف أن هناك من أسماهم بـ«طفيليات خطرة» تتسلق على شجرة الصحافة ووصلت إلى أحط دركات الفحش والافتراء والكذب ، ولكنه أصر على التحذير من إقتلاع الشجرة؛ لأن لمسألة الصحافة علاقة مباشرة بحرية الرأي والكتابة ، وهي تاج الحريات جميعًا .

وفي ١٩ أغسطس عام ٢٠٠٢ ناشدت هيئة مكتب المجلس الأعلى للصحافة جميع الزملاء «استرجاع القيم والمبادئ السامية لرسالة الصحافة »، والتي تتمثل في حماية العمل الصحفي والالتزام بميثاق الصحفيين والحرص على احترامه والحفاظ على صورة الصحافة المصرية ومكانتها التي يعتز بها كل المصريين .

فهل نحن في حاجة إلى تكرار هذا النداء الآن حتى نخلق ظروفًا مواتية لبحث المشكلات الحقيقية التي تعاني منها الصحافة المصرية بدلاً من افتعال معارك شخصية لا معنى لها سوى إبعاد الأنظار عن القضايا الحيوية التي يحتاج بعضها إلى علاج جذري وحاسم وسريع ؟

■ ■ ■

* كان احترامنا للأساتذة في هذه المهنة جزءًا لا يتجزأ من تكويننا الفكري والشخصي .



ذكريات.. في دهاليز الأخبار

ذكريات كثيرة تدفقت على الذهن.. خلال احتفال «الأخبار» بمرور خمسين سنة على صدورها : كبار الصحفيين الذي تعلمت منهم الكثير من أسرار المهنة ، والعلاقات بين الزملاء .. والتقلبات السياسية .

كنا نعيش أحداث الوطن يومًا بيوم ، وساعة بساعة ، ويشتد الانفعال مع كل خبر هام ومثير. وعندما تنتهي ساعات العمل .. لا نعود إلى البيت وإنما نستكمل الأحاديث والتعليقات في المقهى أو المطعم قبل أن نعود إلى بيوتنا حيث نتابع الأحداث حتى ساعة متأخرة من الليل . مهنة الصحافة بالنسبة لنا .. خير وسيلة للدفاع عن قضية عادلة أو رسالة نبيلة . حركات التحرر الوطني في كل مكان – ثورات الشعوب – حقوق الإنسان – العدل الاجتماعي – نقاوة البيئة – التقدم العلمي – الاستنارة ومحاربة الخرافات.. إلى آخر هذه القضايا .

وكان احترامنا للأساتذة في هذه المهنة جزءًا لا يتجزأ من تكويننا الفكري والشخصي .

■ ■ ■

وثمة حرص شديد على أن تظل حاسة الفضول مرهفة لكي يتعلم المرء المزيد

عن دقائق المهنة كل يوم .

ولم تكن قضية صيانة الضمير المهني تحتاج إلى حرب مستمرة مع قوى الشر المعادية للمهنة .. لأن المناخ العام السائد يشكل ذلك الدرع الواقي الذي تتكسر فوقه كل السهام والرماح المسمومة .

أذكر كيف كان موسى صبري يعيد صياغة الخبر حتى يوضح بطريقة عملية كيف يمكن كتابة نفس الخبر بواسطة عدد أقل من الكلمات مع عدم إغفال أي جانب من الخبر .

وأذكر كيف ترك جلال الدين الحمامصي مكتبه ليقف معنا أمام أجهزة «التيكرز» ليتابع لحظة بلحظة.. وقائع حرب يونيو عام ١٩٦٧ .

وأذكر كيف رفض سعيد سنبل، عندما كان مديرا لتحرير أخبار اليوم، طلبا من الرئيس السادات بأن يكتب مقالاً يرحب فيه بحضور شاه ايران الى مصر.. هاربا من الثورة في بلاده، بحيث يتزامن نشر المقال مع يوم وصول الشاه الى القاهرة.

وأذكر جلسات إعداد المانشيتات مع حسين فهمي في فترة من الفترات ومع موسى صبري في فترة أخرى ، ومع أحمد زين في فترة ثالثة ، ومع سعيد سنبل وجلال دويدار في فترة رابعة .

وأستعيد أزمنة العواصف والأعاصير التي كانت تهب على «الأخبار» في فترات دورية .. مما جعل هذه الصحيفة في قلب الزوابع السياسية .

ولكن ما يستحق التسجيل بعد كل تلك السنوات أن قواعد وآداب وقيم المهنة ظلت حية في دهاليز «الأخبار» ولم تهتز .

تعرض أبناء هذه المهنة لفترات اضطهاد وتنكيل وفصل وتشريد. غير أن الجميع كانوا يتكاتفون في مواجهة المحنة .



* كم أتمنى أن يقرأ كلماته .. شباب هذا الجيل

لويس عوض :
أوراق .. لم تتم

«أهم تغير طرأ على حياتي في سنوات الدراسة الابتدائية الأربع (١٩٢٣-١٩٢٦) أي بين سبع سنوات وإحدى عشر سنة - من العمر - هو أني بدأت أقرأ الجرائد والمجلات بنفسي ، لا الأخبار والحوادث وحدها ، ولكن المقالات السياسية والأدبية والقصص .. وبهذا لم أعد أعتمد على ما أسمعه من أبي وعمي وابن عمي وضيوفنا في متابعة الأحداث السياسية وتكوين موقف شخصي من الأحداث .. ورأي خاص في رجالات مصر» .

هذه العبارة التي كتبها الدكتور لويس عوض في آخر مؤلفاته «أوراق العمر» تكشف جانبًا هامًا من شخصيته هو الاستقلالية إلى آخر مدى .. حتى لو انفرد برأي أو موقف لا يشاركه فيه الآخرون .. وحتى لو تعرض - في سبيل دفاعه عن رأيه وموقفه - لأقصى الحملات ومما يؤسف له أن صفحة لويس عوض قد طويت قبل أن يطوى بقية صفحات أوراق العمر .. وهي التي كانت ستتناول المراحل الأكثر حداثة .. وخطورة من حياته .

■ ■ ■

ولا يمكن الحديث عن لويس عوض دون تركيز الضوء على عنصر أساسي في

أذكر أنني تعرضت للفصل من عملي في وقت من الأوقات بقرار من خارج المؤسسة الصحفية . وفي اليوم التالي .. وأنا جالس في بيتي، فوجئت بالصحفي الكبير الراحل فهمي عبد اللطيف يطرق باب بيتي ويقول: «كلنا معك» وهزتني كلماته وأنا أشد على يديه .

ولم تمض ساعات حتى زارني الصحفي الكبير «أطال الله في عمره» محسن محمد وقال بطريقته البريئة التي تغلب عليها روح الدعابة : « لا شأن لي بالأمر ، ولكن الناشر الذي يصدر كتبي هو الذي طلب مني أن أعهد إلى أي شخص بترجمة بعض وثائق الكتاب ، ونظرًا لأنك الآن متفرغ ، ولا يوجد ما يشغلك.. فأظن أنك لا تمانع في الترجمة» . وفهمت على الفور أن محسن محمد اخترع وسيلة لكي يبحث لي عن مورد مالي . وكان محسن محمد يقتنص الوثائق السرية البريطانية والأمريكية ، فور إزاحة ستار السرية عنها ، لكي ينشرها ويعلق عليها .

ذكريات كبيرة لا يطويها النسيان ولكنها تبقى حية ، ويستعيدها المرء من وقت لآخر لكي يزداد ثقة في أبناء المهنة وفي البشر بوجه عام .

■ ■ ■

تكوينه الفكري يتحدث عنه ـ هو نفسه ـ فيقول :

«كنت من أوائل الشباب المصريين الذين تنبهوا إلى خطر الفاشية والنازية والنظم الشمولية وجاهروا بعدائها .. لأني تأثرت في تاريخ باكر على الأقل منذ سنة ١٩٢٩ حين كنت في سن الرابعة عشرة وفي السنة السادسة بالمدرسة الثانوية بما كتبه سلامة موسى عن الاشتراكية والشيوعية ، كما أن بداياتي الوفدية حصنتني ضد كل دعوة ديكتاتورية وجعلت إيماني بالحرية والمساواة وكافة المقولات الديمقراطية أشبه شيء في نفسي بالعقيدة الدينية» .

وحتى أحلام اليقظة التي كانت تهيمن على سنوات الصبا تستحق الانتباه.. يقول لويس عوض : «بلغ من توهج وطنيتي وإيماني بالحرية في تلك الأيام أني بدأت أستسلم لأحلام اليقظة.. أكثرت من دراسة تاريخ مصر القديمة مع التركيز على مسيرة أحمس وملحمة طرد الهكسوس .. وبدأت أتصور أنه يمكنني أن أقوم بدور أحمس في طرد الإنجليز .. وبعد أن درست الثورة الفرنسية في سن الرابعة عشرة والخامسة عشرة .. خرجت من حلم أحمس، ودخلت في الحلم النابليوني الكبير ومرت علي شهور، قررت فيها أن ألتحق بعد البكالوريا بالكلية الحربية لأخرج منها قائدًا ينظم الجيش المصري ويطرد الإنجليز ثم ينشيء لمصر إمبراطورية مترامية الأطراف. كانت تلك فترة المراهقة وأوهام العظمة التي يتقمص فيها المراهق ألف شخصية وشخصية . وهي نوع من الجنون المؤقت الذي يلازم الإيقاع في سن البلوغ وهو سن البحث عن هوية . ولحسن الحظ لم يدم هذا الجنون المؤقت طويلاً . فانقضى تمامًا قبل حصولي على البكالوريا في السادسة عشرة من عمري وحل محله الجنون الدائم .. وهو حب الأدب .. حل محله؟ لا إنما طرده جنون الأدب لأنه كان أقوى منه وأكثر تأثرًا في فكري ووجداني» .

كم أتمنى أن يقرأ هذه الكلمات شباب هذا الجيل .. ليعرف كيف كان يفكر ويحلم

جيل العشرينات من القرن الماضي .. وماذا كان يقرأ.. والأمنيات التي كان يتطلع إلى تحقيقها.. ذلك التوجه في المعرفة والحياة هو الذي صنع رجلاً من طراز لويس عوض .

لقد كانت حياة لويس عوض جزءًا لا يتجزأ من تاريخ الحركة الوطنية الديمقراطية في مصر .

بداية الرحلة كانت انتقاله من المنيا إلى القاهرة لدخول الجامعة بعد حصوله على البكالوريا عام ١٩٣١ في سن السادسة عشرة، وبانتقاله إلى القاهرة بدأت ملحمته المتميزة التي جعلت منه «.. أولاً.. مثقفًا معروفًا في أوساط المثقفين .. وثانيًا .. أستاذًا جامعيًا معروفًا في أوساط الجامعيين.. وثالثًا .. أديبًا معروفًا في أوساط الأدباء والمتأدبين يجرب فنون الترجمة والشعر والنقد والرواية والدراما والسير والمذكرات والمحاورات والدراسات .. ورابعًا .. مفكرًا معروفًا بين مفكري مصر والعالم العربي .. قلقًا ثائرًا » .

كان لويس عوض يدرك أنه لن يستطيع أن يرغم نفسه على التخصص في دراسة لا يميل إليها .. وقد أعد نفسه إعدادًا خاصًا بحيث لا تفلح أوامر وتعليمات الأب في إعادة تشكيله وتوجيهه نحو طريق آخر .

يقول لويس عوض في أوراق عمره : «كنت محصنًا ضد كل علم فيه أرقام حتى منذ المرحلة الثانوية وفي تلك المرحلة (الثانوية) كان هناك نوع من العزاء في أن نظريات الحساب والجبر والهندسة وحساب المثلثات .. نظريات مجردة كونية تصلح لكل زمان ومكان ، وإذا بي أجدني في مدرسة التجارة العليا .. أسف إلى مستوى حسابات البقالين ، لا فرق بين دفتر اليومية ودفتر الأستاذ .. أنا الذي كنت أحلق في سموات الشعر وأتمزق في ثورات التاريخ وأجول كاله صغير بين كليات الفلسفة ومقولات الميتافيزيقا .. ها أنذا أجدني مطالبًا بأن أتابع طريقة جمع عشرين رقمًا

بنظرة واحدة.. وعرفت على الفور أن تهلكتي في المحاسبة ومسك الدفاتر .. فقررت أن أهرب من دروسها» .

وتنمو في داخله عقلية المفكر الاجتماعي التي كان «سلامة موسى» يغذيها في نفسه بمؤلفاته و«بالمجلة الجديدة» التي كان يصدرها. يقول : «والغريب أن هذا النمو لم يصاحبه ضمور في حاستي الأدبية أو في اتجاهي إلى الفلسفة .. بل كانت هذه .. براكين جديدة تفجرت في نفسي وألهبت عطشي للمعرفة في كل اتجاه » .

ورغم أن لويس عوض كان ينتمي إلى أسرة من الطبقة الوسطى إلا أنه تحمل الكثير في سنوات التحصيل والدراسة .. يقول :

«لم أكن أعرف شيئًا عن أمور الطهي فكان طعامي من البيض والفول المدمس والطعمية ومن العلب المحفوظة ، ولا سيما السردين والسلامون لأنهما كانا أرخص من البلوبيف الذي كنت أشتري العلبة منه بأربعة قروش .. مرة في الأسبوع فتكفيني لأكلتين ، كذلك كان طعامي من الجبنة والزيتون والحلاوة الطحنية .. وكان هناك مطعم في عمارة اللواء القديمة بجوار ميدان الأزهار[1] .. أتردد عليه مرتين أسبوعيًا ، كل مرة نصف رطل كباب وكفته (أقل قليلاً من ربع كيلو) بقرشين .. ثم خمسة مليمات للعيش والسلطة ، ومع ذلك فقد أفسدت كثرة أكل السردين.. أمعائي وكنت أصاب كثيرًا بالإسهال» .

وها هو لويس عوض ، الطالب في كلية الآداب ، يسأل أستاذه الدكتور منصور فهمي .. قائلاً: «إذا كان من الواجب على كل جيل أن يخضع لتقاليد الجيل السابق وعاداته وأفكاره .. فكيف يحدث التطور في المجتمع؟» . ويعترف الدكتور منصور فهمي بأنها مسألة صعبة .

(1) هذه العمارة ما زالت قائمة حاليًا وتحمل نفس الاسم في شارع شريف .

ويتعرف لويس عوض في أيامه الأولى بالقاهرة .. «بالعمالقة الثلاثة» طه حسين وعباس محمود العقاد وسلامة موسى يقول :

«بقدر ما وجدت طه حسين مهيبًا .. وعباس العقاد شامخًا .. وجدت سلامة موسى متواضعًا .. كان غزير العلم في غير تكلف وقاد سلامة موسى خطاي نحو الاشتراكية .. لما عرفته بأنه يوجه قراءاتي في اتجاه واضح المعالم » .

لم يتنازل لويس عوض أبدًا عن كبريائه .. فهو يعلي من شأن الكرامة الفردية ويقدر تقديرًا عاليًا دور المثقفين المصريين وتضحياتهم .

«لم أحاول أن أطلب من العقاد أن يساعدني مع الجرائد أو المجلات لاعتقادي أن الكفاءة أو الفضيلة لا تحتاج إلى وساطة أو إعلان. إنه نوع من الإحساس بكرامة الإنسان لازمني طول حياتي ، ولم أندم عليه أبدًا .. » .

لم يطلب لويس عوض المساعدة في وقتٍ كان يحتاج فيه إلى مثل هذه المسعدة خلال سنوات التكوين .

وكان لابد أن يعتمد على نفسه في الوقوف على ينابيع الفكر والثقافة :

«بدأت أعلم نفسي منذ اللحظة الأولى لانتقالي الثاني إلى القاهرة في خريف عام ١٩٣٢ ، فاستخرجت بطاقة استعارة خارجية من دار الكتب في باب الخلق لضمان عملي .. وابتكرت طريقة للتثقيف الذاتي : كنت أقرأ دراسات العقاد عن المتنبي مثلاً ، فأقصد إلى دار الكتب وأستعير ديوان المتنبي وانكب عليه نحو أسبوعين محاولاً استقصاء الظواهر التي رصدها الناقد في شعره، وقد أستعين ببعض الشبان في قسم اللغة العربية وكلية الآداب لفهم ما يستغلق عليَّ فإن قرأت كتاب طه حسين عن «رجعة أبي العلاء» انطلقت إلى دار الكتب واستعرت «سقط الزند» ، و«لزوم ما لا يلزم» استعارة خارجية وفعلت بهما نفس ما فعلته بالمتنبي. وكان يسمح في كل مرة لي

بثلاثة كتب في آن واحد، وفعلت نفس الشيء بالمعلقات وبديوان أبي العتاهية. وحين صدر كتاب العقاد عن ابن الرومي انطلقت أيضًا إلى باب الخلق واستعرت من دار الكتب ديوان ابن الرومي. لم يكن لي أستاذ في الأدب العربي فجعلت من طه حسين والعقاد أساتذتي في الأدب العربي، وقد نجح معي - في غيبة المعلم - منهج قراءة النقض قبل قراءة النص، لأن النقض كان بمثابة الأنوار الكشافة التي تجلو لي عتمة النصوص.. ومع ذلك فإني أعترف بأن هذا المنهج كان ناقصًا ؛ لأنه شكل ذوقي وفهمي بأفكار مسبقة عن الأدب العربي القديم .. ولكن أليس هذا ما يفعله الطلبة في الجامعات ؟ يعرفون الشعراء والناثريين، بل ويحكمون عليهم عن طريق الأستاذ المحاضر قبل أن يقرؤوا النصوص.. ما الفرق إذًا؟ الفرق هو إمكانيات الحوار، وجامعات بلا حوار .. كتلاميذ بلا سقراط .. وربما استطعت بين أكتوبر ١٩٣٢ وأكتوبر ١٩٣٣ أن أحصل ضعف ما كان يحصله طالب الجامعة في عام واحد».

اقترن اسم لويس عوض - خطأً أو صوابًا على حد تعبيره - بالدعوة الصارخة للجديد، وبالعداوة الضارية للقديم. يقول :

«كنت أعد نفسي لكي أضيف صفحات إلى الأدب العربي الحديث إلى جانب تخصصي الأكاديمي في الدراسات الإنجليزية .. فبرزت في تفكيري قضية الصراع بين القديم والجديد .. وكانت هذه في الواقع قضية المجتمع المصري بصفة عامة وكانت الحلول التي اهتديت إليها تقوم على ركل كل تراث أخذناه عن عصور الانحطاط والاستفادة من تجارب الحضارات الراقية في تجديد الحياة من كل الوجوه وهكذا بدأ اللاتفاهم الكبير بيني وبين المجتمع التقليدي».

ولا يمكن الحديث عن لويس عوض دون الإشارة إلى موقفه في الدفاع عن استقلال الجامعة يقول :

«كان لطفي السيد وطه حسين واضعي حجر الأساس في استقلال الجامعة وحمايتها من عدوان السلطة التنفيذية .. وتمتعت جامعة القاهرة ومن ورائها بقية الجامعات – بهذا الاستقلال عشرين سنة متصلة حتى عصف باستقلالها مجلس قيادة الثورة في سبتمبر ١٩٥٤ بعد أزمة جمال عبد الناصر مع محمد نجيب في مارس ، وقبل ذلك في حركة تطهير .

ويظل نضال لويس عوض ضد الديكتاتورية ودفاعه عن الدستور والحياة البرلمانية والحريات العامة .. من أبرز معالم حياته يقول :

«كانت ديكتاتورية إسماعيل صدقي الأولى التي امتدت من ٢٠ يونيو ١٩٣٠ إلى ٢١ سبتمبر ١٩٣٣ أفظع فترة ديكتاتورية بقيت في ذاكرة الأجيال المعاصرة والتالية لأنها اقترنت بتزييف الانتخابات على نطاق واسع ، وبسفك دماء المتظاهرين ، وبفصل العمد والموظفين ، وبقطع أرزاق المعارضين أو تشتيتهم أو وضعهم في السجون بالجملة ، وبتلفيق القضايا لأنصار الأحزاب الأخرى ، ولا سيما الوفد» .

وهذا المعلم هو رائد الاشتراكية لديمقراطية المصرية ، وكل من يقرأ برنامجه الانتخابي عندما رشح نفسه لعضوية مجلس الأمة عام ١٩٥٧ عن الدائرة(٢١) شياخة طوسون وجزيرة بدران .. يعرف هذه الحقيقة .

إنه يدافع عن السلام العالمي .. ويرى أن عملية السلام لا تتحقق إلا من خلال تطبيق مبدأ حق تقرير المصير ، ويطالب بـ «عالمية» تمثيل الأمم المتحدة بحيث تشمل كل الدول التي كانت محرومة من عضويتها .

ويحتج لويس عوض على حرمان اصين الشعبية واليابان وألمانيا الغربية وألمانيا الشرقية ومنغوليا الخارجية وغيرها من الدول المستقلة من عضوية الأمم المتحدة (وقد حصلت كل هذه الدول على العضوية فيما بعد) .

كما يدعو لويس عوض إلى نزع الأسلحة النووية نزعًا تامًا مع حظر إنتاجها وتدمير

ما هو موجود منها بالفعل وخفض الأسلحة التقليدية خفضًا حاسمًا توطئة لإلغائها كاملاً.. ويطالب لويس عوض بتعاون مصر مع جميع الأمم المحبة للسلام وفقًا لميثاق الأمم المتحدة على حل كل الأحلاف العسكرية التي كانت قائمة في ذلك الوقت، مثل : حلف الأطلنطي وحلف وارسو وحلف بغداد وسائر الأحلاف الإقليمية العسكرية، واستخدام الطاقة النووية في سبيل السلام وحده، والعودة إلى مبدأ التعايش السلمي وإنهاء الحرب الباردة ومنع التمييز العنصري وتطبيق الإعلان العالمي لحقوق الإنسان .

الفلكة لمعاقبة لويس عوض!

كان أبناء جيلي، ممن يتطلعون إلى المعرفة ويبحثون عن الحقيقة وسط تيارات صاخبة، يحرصون على الاقتراب من لويس عوض وأحمد بهاء الدين والاطلاع على أفكارهما ومواقفهما في معارك الرأي والسياسة .

عرفت الدكتور لويس عوض في أول الخمسينات في كلية الآداب وكان قد أسس جمعية للموسيقى في قسم الأدب الإنجليزي لكي يتيح لطلابه فرصة الاستمتاع بروائع الأنغام الكلاسيكية. وها هو ذا لويس عوض الأستاذ المعلم والكاتب المفكر والناقد والأديب يترك أعمق التأثيرات في عقول تلاميذه من خلال محاضراته القيمة .

وفي عام ١٩٥٤ هبت عواصف هوجاء على الجامعة، وكان لويس عوض في قائمة الأساتذة المفصولين الذين لا يتمتعون بثقة حكام ٢٣ يوليو ولكن الأستاذ لا يهدأ، ففي أول انتخابات أجريت بعد ذلك لاختيار « مجلس الأمة » رشح نفسه في أحد دوائر شبرا ولا أنسى أنني قرأت بيانه الانتخابي الذي أعلن فيه تمسكه بالاشتراكية الديمقراطية ورفضه لديكتاتورية الطبقة العاملة وإيمانه بالنظام البرلماني .. وهي الأفكار التي أصبحت تشكل في وقت لاحق التيار السائد في أوروبا

الشرقية بل يبدو، أنها الأفكار التي استقر عليها آخر رئيس للاتحاد السوفييتي (ميخائيل جورباتشوف).. ولكن بعد فوات الأوان .

غير أن السلطة المشرفة على الانتخابات والتي كانت تعطي لنفسها حق التصديق على الترشيح .. حذفت اسم لويس عوض من قائمة المرشحين وحرمته من دخول المعركة الانتخابية التي كانت نتائجها مقررة سلفًا .

وكنت زميلاً للدكتور لويس عوض في عنبر (٤) في معتقل الفيوم عام ١٩٥٩ في أسوأ الظروف ، ولم تمنعه حالة الإرهاب التي كانت تسود ذلك المعتقل الذي أقيم على نمط معسكرات النازي .. من ممارسة النشاط الثقافي وإحياء الندوات في ليالي المعتقل .

إنه اشتراكي حتى النخاع ، ولكن انتقاداته المبكرة والذكية للتجربة الستالينية.. تضعه في مصاف المفكرين العالميين .

وقد تعرض لويس عوض لمتاعب هائلة في فترة الاعتقال رغم أنه لم يكن عضوًا في أي حزب سياسي ولم يمارس في حياته نشاطًا سريًا مناهضًا للحكم .. أي حكم.. وكانت كل جريمته أنه صاحب عقل مفكر نقدي وأنه يتمسك بعناد باستقلالية في الرأي لا تعرف المهادنة .. مما يعني أن مجرد وجوده خارج الأسوار .. طليقًا يمكن أن يشكل «خطورة » على الحكام حتى لو كان ممنوعًا من العمل وممنوعًا من الكتابة .

ولن أنسى في حياتي ذلك المشهد الذي رأيته في معسكر التعذيب في «أوردي ليمان أبي زعبل» في عام ١٩٥٩ وبالتحديد في منطقة الجبل المخصصة للأشغال الشاقة للمسجونين في القضايا الجنائية .. حيث كان يتم إرغام المعتقلين السياسيين بالقوة على تكسير أحجار البازلت .

هناك كان يتم إرغام لويس عوض مع سائر المعتقلين السياسيين على تكسير

الأحجار وجمعها في « الغَلَقَ » (سلة من البلاستيك أو الكاوتش) وتقديم «مقطوعية»، عبارة عن «غلق» مملوء بالأحجار التي تم تكسيرها في عدد معين من الساعات .. وإلا فإن مصيره هو العقاب بالضرب . وحدث ذات مرة، أن لويس عوض تجرأ ، وتحرك عدة خطوات في أحد أيام « العمل الإجباري » على طريقة السخرة في الجبل .. وأخذ يتحدث مع الدكتور عبد الرازق حسن، الأستاذ الجامعي والعالم الاقتصادي، ومعي ، وسمعت لويس عوض يتساءل مستنكرًا : [أين الهابياس كورباس» (قانون حرمة الجسد وحظر تعذيبه ، وهو يعني في الأصل أين الجثة؟] وعندئذ صاح الدكتور عبد الرازق حسن ـ الذي كان يقف إلى جانبي ـ غاضبًا: يا لويس هل ما زلت تتصور ـ بعد كل هذا الذي نشهده ونعيشه ـ أن في هذا البلد.. قانون؟

في تلك اللحظة : انقض زبانية الجلادين على لويس عوض .

فقد تم ضبطه متلبسًا بارتكاب جريمة « الكلام » مع بعض زملائه المعتقلين .. وكانت العقوبة .. فورية. وهنا حدث المشهد المروع المأساوي .. فقد هجم الزبانية على لويس عوض وأمسكوه من قدميه ورفعوهما إلى أعلى ليصبح رأسه إلى أسفل وجاؤوا بـ« الفلكة » وأخذوا يضربونه بهراوات غليظة على قدميه العاريتين . شعرت في تلك اللحظة بالخزي والعار . وحاولنا ـ أنا والدكتور عبد الرازق ـ التدخل ، ولكن الجنود دفعونا بقسوة .

كيف تفعل الحكومة .. مثل هذا .. في خيرة أبنائها ومثقفيها ورموز الفكر والكلمة بدلاً من الاحتفاء بهم وتكريمهم ؟ وما هي «الجريمة» التي ارتكبوها؟

كان المعتقلون محرومين من ملابسهم الخاصة التي حلت محلها ملابس السجن (تحت التحقيق)، كما سبق تجريدهم من كل شيء خاص يحملونه معهم ، وفرض

عليهم السير حفاة الأقدام فوق قطع البازلت المتناثرة كالسكاكين الحادة والتي أصبحت حمراء اللون من الدماء التي تسيل من أقدام المعتقلين .

وتمضي السنوات .. وأعرف أن لويس عوض في بيروت حيث كنت أقيم في عام ١٩٧٥ – وأنه يريد مقابلتي مع عدد من الزملاء الصحفيين المصريين .

كان «الأستاذ» قد جاء خصيصًا لإقناع الكتاب الصحفيين المغضوب عليهم من لجنة النظام بالعودة إلى مصر كنا ضحايا قرارات «لجنة النظام» في «الاتحاد الاشتراكي العربي» . والتي تنص على فصلنا من العمل .

وكان لويس عوض بين المفصولين. ورويت للدكتور لويس عوض ونحن نتحدث في الفندق الذي اختاره لإقامته في بيروت ، ما قاله لي (في لقاء بالصدفة) المستشار القانوني للجنة النظام في «الاتحاد الاشتراكي العربي» .. بعد أن سألته عن المدة التي استغرقتها داخل لجنة النظام .. مناقشة فصل ١٢٠ كاتبًا وصحفيًا من عملهم .. فقال المستشار بأمانة : «أقل من خمس دقائق؟ فالقائمة كانت جاهزة ومُعدةَ سلفًا في مباحث أمن الدولة» .

ومع ذلك ، فقد كان لويس عوض واضحًا ومحددًا وحازمًا . لا يوجد أي سبب في العالم ـ مهما كان ـ يحول دون عودتك إلى عملك ومهما بلغ الاضطهاد أو التنكيل .. فإن ذلك لا يبرر ابتعادك عن بلدك يومًا واحدًا .. ولا مكان لأي كاتب صحفي إلا في بلاده وفي جريدته .

وكان الأستاذ يوجه حديثه إلى الجميع ومنهم غالي شكري ، وسمير كرم ، وميشيل كامل ، والمذيع المعروف السيد الغضبان .

وفي لقاء ثان منفرد مع لويس عوض في بيروت ، قلت له : كيف أعود إلى مصر .. وأنا مفصول من عملي؟ قال : «يجب أن تعود رغم ذلك ؛ لأنه لا توجد ثقافة في

مصر إذا كان اليسار .. غائبًا» .

وسافر لويس عوض بعد ذلك إلى بغداد ليلتقي بالصحفيين، المصريين العاملين هناك لكي يبلغهم رسالته : عودوا إلى بلادكم .

كان الأستاذ على حق ، وعندما التقيت به في القاهرة بعد ذلك كان سعيدًا للغاية .. لأنني تجاوبت بسرعة مع رسالته ، وقال لي: أنه يفخر بموقفي .

والأستاذ لا تهزه حملات الاضطهاد وعمليات الفصل التعسفية والاعتقال .. والتشهير. إنه يكتب ويعمل بلا ملل .

هموم فكرية وثقافية

كان لويس عوض يشعر بالتقدير نحو الموهوبين ويحرص على تشجيعهم . قال لي الشاعر الشاب «.. إسماعيل»: أن لويس عوض ساهم من جيبه بمبلغ من المال لطبع ديوانه عندما قرأ المخطوط وأعجبته القصائد .

وفي الوقت الذي كان فيه المثقفون المصريون يهاجمون بعضهم البعض.. أذكر أن لويس عوض قال لي ، ونحن نجلس في حديقة نقابة الصحفيين : «سأضع كتابًا عن المثقفين المصريين يرد إليهم اعتبارهم» .. كان يكره أن يغادر كاتب أو صحفي أو مثقف مصري موقعه ويسافر للعمل في الخارج.. ذلك أن مكانه يجب أن يكون في داخل بلاده .

***

ولم يكن لويس عوض مجاملاً على الإطلاق .. وكثيرًا ما كنت أسمعه يتحدث إلى مثقفين وأدباء عديدين بصراحة قاسية . لم يكن يتردد في أن يقول لبعضهم : «أنتم لستم موهوبين.. لماذا لا تكتفون بجمع المال!» .

يقول لويس عوض عن إحدى الشخصيات : وجدته «محدود» الثقافة والاهتمام.. خاليًا من الفضول العقلي. ووجدت دماغه مليئًا بالمعتقدات التقليدية الجاهزة.. ولذا لم أضيع في جدالي معه وقتًا طويلاً لإقناعه بفساد معتقداته السياسية ولا أدري إن كان هذا يأسًا مني .. من إقناعه أو بسبب غطرستي الفكرية مع الخائفين من المعرفة.. فالناس أعداء ما جهلوا» .

وبينما كان بعض من لم يبلغوا نصف عمره من المثقفين أو الأدباء يجنون دخلاً يصل إلى أربعة أضعاف دخله.. ويتمنون أن يسمعوا منه كلمة تدشن انتماءهم إلى عالم الثقافة أو الأدب .. كان لويس عوض يرتدي نفس ملابسه القديمة التي قد يرجع عمرها إلى الخمسينات .

فقد كانت تشغل الرجل هموم أدبية وفكرية وثقافية وسياسية ، تتجاوز بكثير إطار مسيرات .. وأحيانًا ضرورات الحياة اليومية .

ولذلك فإن لويس عوض يصر على أن يرى قضية الفاشية والنازية قضية حياة أو موت، فهو يعارض هذه الأنظمة التي يعتبرها أسوأ أنواع الديكتاتورية .. ويتبنى الاشتراكية الديمقراطية .

ولا يمل لويس عوض من شرح أفكاره من خلال حوارات ممتعة يقدم فيها شخصيات المعلم العاشر (وهو لويس عوض نفسه) و«مجاهد بن شماخ» ، و«صانع الأقنعة» و«الأيديولوجي الفهلوي» ، و«جوركي المذعور» ، و«علي الزيبق الجوكي» ، وكلها شخصيات ترمز إلى جماعات وتيارات سياسية ومصالح معينة، .. مثلاً «علي الزيبق الجوكي» هو لسان حال «أغنياء شارع الشواربي ووكالة البلح وقطاع المقاولات والاستيراد والتصدير والجمعيات الاستهلاكية» .

وكان لويس عوض يرى أن «حملات التطهير المتلاحقة على الثقافة والمثقفين قد

أنهكت مصر الناصرية ومصر الساداتية ، حتى ارتعش الحرف في أقلام كتابها وارتعشت الكلمات في أفواه فنانيها وارتعشت الصورة في ريشة رساميها بل والفكرة في رؤوس مثقفيها ..» .

ويقول في مطلع الثمانينيات إنه: «منذ تولي الرئيس حسني مبارك والأمل يداعبنا . لما نراه من شواهد متناثرة هنا وهناك على الاهتمام بالإنتاج الوطني ، بعودة الروح إلى الجثة الهامدة .. جثة الثقافة المصرية التي لم يعد فيها شيء ينبض بالحياة إلا أحجار هيئة الآثار» .

كان لويس عوض يحب أن يوصف بـ«المعلم» .. فهو أستاذ جامعي يخاطب عقول طلابه ويقدس رسالته . كما كان المعلم ... ولم يكف عن إلقاء دروسه.. حتى توقف قلبه عن الخفقان .. وعلى تلاميذه أن يحاولوا أن يستنتجوا كل ما كان يريد أن يقوله .

■ ■ ■

صحفي يدافع عن الديموقراطية والعلم وحرية الفكر والنقد والإبداع والاستنارة والحداثة. إنه أسير قراءة التاريخ ونموذج فريد للصحفي المفكر والمفكر الصحفي، الذي يؤمن بأننا في عصر الرجل العادي.



أحمد بهاء الدين: الصحفي ليس قطعة شطرنج

عرفت «أحمد بهاء الدين» من كتاباته قبل أن ألتقي به .

كنت طالبًا في السنة الثالثة في كلية الآداب عندما توجهت إلى مقابلته في مكتبة في مجلة «روز اليوسف» في عام ١٩٥٤ .

كانت مقالات «بهاء» التي يدافع فيها عن الديمقراطية والعلم والاستنارة والحداثة تثير اهتمام وإعجاب الكثيرين .. غير أن جوًا كثيفًا كان يسيطر على البلاد والصحافة بسبب ظهور مناخ مناهض للديمقراطية وحرية الفكر والنقد والإبداع. دعوته لحضور ندوة تقيمها «الجمعية الفلسفية» للكلية، والتي كنت أتولى مسؤوليتها، حول «العلم والفلسفة» ودهش عندما عرف أن الجامعة ما زالت تتنفس وتقاوم وتمارس نشاطًا فكريًا. وسألني عن المشاركين في الندوة ، ودهش أيضًا عندما سمع أسماء الدكتور عثمان أمين والدكتور عبد العظيم أنيس والدكتور توفيق الطويل والدكتور محمد صقر خفاجة ، وعادل ثابت .

وقبل بهاء الدعوة .. مرحبًا

واتفق معي على أنه سيحضر الندوة مستمعًا فقط.. ويجلس مع الطلاب وجاء بالفعل، وظل يتابع المناقشة حتى النهاية باهتمام شديد، وكنت كلما فرغت من تقديم أحد المتحدثين في الندوة .. أتوجه إلى المكان الملاصق لأحمد بهاء الدين لكي أحاول إقناعه بالمشاركة برأيه في موضوع الندوة. غير أنني شعرت بأن بهاء يريد أن يتأمل ظاهرة أكثر أهمية لديه.. من مجرد الحديث في الندوة وهي : هل النشاط الثقافي والفكري في الجامعة مستمر أم يتعرض لمشكلات تعوق انطلاقه؟ وهل هناك قوى جامعية قادرة على مواجهة عواصف قادمة تهدد هذا النشاط بالاقتلاع؟ ويبدو أن بهاء كان يتوقع أمورًا وهذا ما حدث بالفعل بعد وقت قصير من انعقاد الندوة . فقد تم فصل مجموعة من الأساتذة. وضحك أحمد بهاء الدين طويلاً عندما رويت له في اللقاء التالي كيف تم استدعائي إلى قسم شرطة الدقي ـ حيث أبلغني ضابط المباحث بقرار حل «الجمعية الفلسفية» بكلية الآداب .. وتهكم بهاء على القرار بقوله : ألم يصادروا أموالها ؟

وبطبيعة الحال .. لم تكن لدى الجمعية أية أموال يمكن مصادرتها لأنها لم تملك شيئًا سوى نشاطها الثقافي غير أن المطلوب بالدقة .. كان وقف أي نشاط فكري أو ثقافي في الجامعة في ذلك الوقت .

وعلى مر السنين .. التقيت مع أحمد بهاء الدين لقاءات سريعة وخاطفة ومتباعدة . ولكنني في كل مرة ، كنت أشعر بمزيد من التقدير والاحترام لهذا الكاتب المثقف الأمين .. صاحب القلم الحر النظيف .

ولم يكن المرءُ يتصور أن يفوته كتاب أو مقال أو تعليق كتبه أحمد بهاء الدين دون قراءته بإمعان. ولا يستطيع المرء أن يتصور جريدة «الأهرام» بدون يوميات أحمد بهاء الدين التي كان القراء ينتظرونها بفارغ الصبر .

إن كلاً من لويس عوض وأحمد بهاء الدين ثروة قومية وشخصية محبوبة وعزيزة .. وأي بلد في العالم يعتز بأن يكون من صفوة كتابه ومفكريه شخصيات مثل لويس عوض وأحمد بهاء الدين .

وبعد وفاتها افتقدنا كلماتهم المضيئة ونتاج إبداع القلم المقاتل الذي شارك في كل المعارك وأرسى قيمًا أصبحت من معالم الحياة الفكرية والصحفية . وهي قيم يعتز بها كل وطني ديمقراطي مصري .

كان أحمد بهاء الدين من أخلص وأقوى المدافعين عن حقوق الإنسان . كتب ذات مرة ، يقول :

«قرأت الخبر في برقية لوكالة رويتر من القاهرة في ١٤ يناير الجاري» .

ولأول مرة لم أصدق عيني ، وقرأت البرقية مرة أخرى جاء في سطورها ما يلي :

قضت محكمة القضاء الإداري بالإسكندرية أمس بإلزام وزارة الداخلية المصرية بدفع مبلغ عشرين ألف جنيه تعويضًا للمواطن رمضان محمد بسبب احتجازه بدون وجه حق لمدة تسعة أيام في عام ١٩٩٦ دون توجيه تهم محددة إليه .

وكان المواطن - وهو صاحب شركة للمقاولات وتجارة الأراضي - قد رفع دعوى منذ ست سنوات يطالب فيها بإلزام رئيس الوزراء ووزير الداخلية بدفع ٥٠٠ ألف جنيه على سبيل التعويض عما لحق به من أضرار مادية وأدبية لاحتجازه في أحد أقسام الشرطة . وتنص عريضة الدعوى على أن « الاعتقال يخالف الدستور وأن قرار اعتقال المواطن صدر لغير المصلحة العامة ، وأن أسباب اعتقاله لم يعلن عنها .

«ولأنها سابقة قضائية هامة .. فقد طيرت وكالة رويتر النبأ إلى الخارج . صحيح أن أحكامًا كثيرة صدرت من قبل بدفع تعويضات لمعتقلين سياسيين ، ومنهم من تعرضوا للتعذيب في الستينيات من القرن الماضي . غير أن حكم المحكمة في هذه

المرة يدور حول الاحتجاز لمدة أيام وهذا هو الجديد .

«كم أتمنى أن يحصل أي مواطن تعرض بسبب الروتين والبيروقراطية أو التسيب ، على تعويض بحكم من المحكمة .

«إذا تأخرت طائرة عن موعد الإقلاع أو قطار عن موعد قيامه من المحطة أو عودته إليها .. ألا يلحق هذا التأخير ضررًا بالمواطن ؟ ألا يستحق حكمًا مماثلاً من المحكمة مرفقًا بالتعويض؟ ألا يجوز أن تكون قد لحقت به خسائر مادية نتيجة هذا التأخير؟

هذا الحكم من محكمة القضاء الإداري يعبر عن روح حضارية وتوقير للمواطن المصري ».

"لست أحد إختراعات الثورة !"

يروي الكاتب الكبير الراحل أحمد بهاء الدين في كتابه « محاوراتي مع السادات » كيف قرأ في الصحف قرارات التغييرات الصحفية عقب انقلاب ١٥ مايو ١٩٧١ ، ومن بينها نقله من دار الهلال وتعيينه رئيسًا لمؤسسة روز اليوسف. وشعر بهاء بأن قرار نقله صدر من منطلق العقاب نتيجة لوشايات صغيرة ودسائس.. وأحزنه أن تتراكم الوشايات عند الرئيس السادات دون أن يحاول مرة واحدة أن يسأله مباشرة .

وكتب أحمد بهاء الدين رسالة إلى السادات يبلغه فيها برفضه للمنصب الجديد وقال في الرسالة :

« لقد اخترعت الثورة صحفيين وكتابًا ودكاترة في كل مجال ولكنني لست أحد اختراعات الثورة ، وقد كنت رئيسًا لتحرير أكبر جريدة في مصر ، وهي أخبار اليوم ، وأتقاضى أقصى حد للمرتب قبل تأميم الصحف بسنتين.. وقد نقلت إلى دار الهلال منفيًا في حقيقة الأمر ، وبالتالي فإن من حقي أن يؤخذ رأيي في أي أمر يتصل بي شخصيًا .. فلا أقرأه في الصحف دون سابق علم ، ولا أتحرك كقطعة شطرنج من مكان

إلى مكان وبلا رغبة » .

الحكيم .. « مخرف عجوز !! »

ويكشف لنا أحمد بهاد الدين رأي أنور السادات في الكاتب الكبير توفيق الحكيم ـ قال السادات لأحمد بهاء الدين :

« .. هذا المخرف العجوز توفيق الحكيم الذي لا أعرف ماذا يعجبكم فيه » !

وكان أحمد بهاء الدين يتألم لأن الصحف كانت تنشر أسماء أبرز وألمح الكتاب المصريين مقرونة بصفات العملاء والخونة. كان في ذلك الوقت كاتبًا في « الأهرام » وكتب مقالاً بعنوان « محايد ». كان المقال عقلانيًا وهادئًا ينطوي على معنى الاحتجاج ولكنه يحتوي على أساس يفتح الباب لتضميد الجراح ، وبعد أن سلم المقال .. توجه إلى بيته ليحزم حقائبه استعدادًا للسفر إلى لندن لإلقاء محاضرات في كلية سان أنطوني بجامعة أكسفورد ، غير أنه فوجئ بدقات على الباب في الساعة الحادية عشرة ليلاً ووجد رئيس مجلس إدارة الأهرام ورئيس تحريرها محمد حسنين هيكل ومعه بعض الزملاء . وعلم منهم بقرار شطب مقاله ونقله إلى مصلحة الاستعلامات ! وقد عرف بهاء فيما بعد أن الدكتور عبد القادر حاتم ، وزير الإعلام ، سمع نص المقال بالتليفون من الرقيب ، وأن الدكتور حاتم اتصل بالسادات وقرأ له الفقرات المهمة في المقال ، فرد عليه الرئيس منفعلاً :

(ألا يكفيه أنه هو المحرض على كتابة بيان توفيق الحكيم الذي كان قد وقع عليه حوالي مائة صحفي وأنه لم ينقل إلى الاستعلامات ؟ اشطب المقال كله) .

وبعد خمس دقائق .. دق جرس التليفون ، وقال السادات للدكتور حاتم بنفس الصوت الغاضب : هل شطبت المقال ؟ طيب . وانقله أيضًا إلى مصلحة الاستعلامات !

ورفض بهاء أن يوقع على إقرار بتسلمه العمل في مصلحة الاستعلامات واعتبر نفسه مفصولاً .

« أفنديات » و « أراذل » !

ويقول أحمد بهاء الدين: أن أنور السادات صار يكره القاهرة وأهلها وكل ما تمثله ، وأن هذا الإحساس لديه زاد بعد مظاهرات الطعام سنة ١٩٧٧ . كان يشعر أن القاهرة بالذات ضده .. فهي في نظره مدينة المشاغبين من الطلبة والعمال والمتحذلقين والصحفيين والكتاب وكل من أصبح يسميهم ـ بقصد الاستهزاء ـ « الأفنديات » ، و« الأراذل » ..

وأخذ يهاجم في معسكرات الجيش «أفنديات القاهرة» ويؤلب الضباط والجنود ضدهم بأن يقارن علنا بين حياتهم في المعسكرات الصحراوية وبين « أفنديات القاهرة » ، كما لو كان كل من في القاهرة يعيش ناعمًا في غرفٍ مكيفة .

وعندما قرر بهاء أن يستحدث في « الأهرام »باباً جديدًا بعنوان « وجهة نظر » يكتب فيه أي محرر في الصحيفة .. ونجح هذا الباب نجاحًا كبيرًا ..لاحظ بهاء أن السادات بدأ يشكو من كتابات هذا الباب . ثم لاحظ أن شكواه ليست من درجة حرارة النقد فيه ، ولكن من أسماء معينة ، وكان سهلاً أن يلاحظ بهاء أن بعضها أسماء عرفت بصداقتها لمحمد حسنين هيكل أكثر من غيرها . ولكنه كان يقول لبهاء :

« يا أحمد فلان هذا شيوعي » ! ويكون رد بهاء : يا ريس ده سبق حبسه لأنه من الإخوان المسلمين !

تقارير عن « النكت »!

وقد عرف بهاء بعد سنوات أن في الصحيفة.. محرر يزود الرئاسة بالمجلدات من التقارير عن النكتة التي قالها هذا والكلمة التي قالها ذاك .. ولم يعرف بهاء وزملاؤه

ذلك إلا حين كوفئ صاحبهم بمكافآت ضخمة في عهود تالية .. وبناء على طلب من السادات !

ويروي أحمد بهاء الدين في « محاوراته مع السادات » الضغوط التي تعرض لها من الرئيس السادات لإغلاق مجلة « الطليعة » التي كانت تصدر عن مؤسسة «الأهرام». وعجز بهاء عن إقناعه بأنها مجلة مقالات رأى يكتبها أصحاب رأي ، وأنها صدرت بهذه الصفة . ولم يرضخ بهاء لرغبة السادات وكذلك لم يرضخ إحسان عبد القدوس .. حتى جاء يوسف السباعي ونفذ رغبة السادات .

الشاه .. « المثل الأعلى » !

وبعد عودة أحمد بهاء الدين من رحلة صحفية إلى طهران قابل خلالها شاه إيران .. انهالت أسئلة السادات على بهاء عن الشاه : ألم تلاحظ أنه خارق الذكاء ؟ ألم تجد ثقافته واسعة ؟ ألم تجد أن فكره الاستراتيجي شديد التفوق ؟

كان السادات يسأل بهاء بروح من الإعجاب الهائل عن شخص لم يكن يعرفه . وعندما حاول بهاء أن يقول: أن الشاه ذكي بلا شك ولكن السؤال هو .. في أي شيء يستخدم ذكاءه ؟ قاطعة السادات قائلاً في اقتناع نهائي :

« أتعرف أنني أعتقد من زمان أن مثلي الأعلى بين كل زعماء العالم الثالث هو .. شاه إيران ؟!

وعندما أعرب بهاء عن دهشته الشديدة لهذا القول وتساءل عن الأسباب استطرد السادات قائلاً :

« زعماء عدم الانحياز بتوعك الذين ملأوا الدنيا ضجيجًا منذ سنوات .. أين هم الآن ؟ راحوا فين ؟ اللي مات واللى انهزم واللي راح في انقلاب . واللي انكمش داخل حدوده .. واحد فقط من هذا الجيل وهذه المرحلة كلها باق على مقعده ، بكل

سلطانه وهيلمانه ، والدنيا تسعى إليه .. هو شاه إيران ! . والسبب أنه أدرك أن هناك دولة عظمى واحدة هي أمريكا .. وقعد على حجر أمريكا ومسك في هدومها ! وأديك شايف : كل أصحابك راحوا ، والشاه عملت له أمريكا كل اللى هو عايزه .. إنه رجل خارق الذكاء وغير عادي» !!

لم يكن السادات يعرف أنه لن يمضي وقت طويل.. ويقوم الشعب الإيراني بخلع الشاه وطرده من إيران .. وأن أمريكا ستتخلى عنه بعد أن أصبح مرفوضًا من شعبه ولم تعد له قيمة.

« مكشوف عنه الحجاب ! »

يكتب أحمد بهاء الدين .. قائلاً :

« سمعت ـ وأظن أن ما سمعته يحمل في رأيي صفة اليقين ـ أن حسن التهامي ، مسؤول أجهزة الرئاسة ، دخل على الرئيس السادات ، قبل زيارة القدس بسنوات ، وقال له : يا سيادة الرئيس ، لقد رأيت حلمًا غريبًا ! رأيتك في المنام تصلي في المسجد الأقصى بالقدس ! ونحن جميعًا حولك ، وأنا بالذات بجوارك ! والمسجد كله مليء بالمشايخ الذين يلبسون العمائم ».

اشتهر عن حسن التهامي أن تدينه انقلب إلى دروشة شديدة، وأنه أصبح يعتقد أنه رجل « مكشوف عنه الحجاب » ! وكان يحدث أن يكون جالسًا بين أصدقائه ثم ينهض فجأة ويقول بصوت مرتفع : « وعليكم السلام ورحمة الله وبركاته » ويفسر ذلك للجالسين معه بأن « سيدنا الخضر قد مر أمام الجالسين وألقى السلام .. ولكن لا يراه ويرد عليه السلام إلا من كُشفَ عنه الحجاب !».

ويقول بهاء : ولعل الكثيرين من أصدقاء الرئيس السادات لاحظوا بعد ذلك ـ دون معرفة السبب ـ أن السادات نفسه بدأ يلازم حسن التهامي ويقربه أكثر من

المعتاد وأنه بدأ يقول عنه للناس . بشكل جدي أنه: « فيه شيء لله ومكشوف عنه الحجاب . ولم نكن نعرف أن الاتصالات المصرية ـ الإسرائيلية المباشرة قد بدأت في المملكة المغربية سرًا، وأن إسرائيل كانت ترسل « موشى ديان » وزير دفاعها وقائدها العسكري الشهير ممثلاً لها في هذه المباحثات السرية البالغة الدقة والخطورة وأن السادات لم يرسل في مقابل «موشى ديان».. إلا حسن التهامي !! ومن يدري .. فربما كان هذا الاختيار الغريب يرجع إلى الحلم الذي رواه التهامي للسادات من قبل !

« لزقتها » في بريجنيف !

ويروي أحمد بهاء الدين حديث السادات معه عقب زيارة القدس وهجومه على الرئيس السوري حافظ الأسد وقوله أنه: « خذلنا بعد يومين من بدء حرب ١٩٧٣ ولم ينفذ الخطة المشتركة المتفق عليها واجتاح الجولان كله في يومين ثم طلب وقف إطلاق النار .. » وعندما قال بهاء :

« ولكن سيادتك نفيت ذلك ، وقلت علنًا: أن الروس كذبوا عليك عندما بلغوك بطلب حافظ الأسد منهم التدخل لوقف إطلاق النار » رد السادات قائلاً :

«أنا فعلا لزقتها في بريجنيف (الرئيس الروسي) حتى أحتفظ بتحالف حافظ الأسد معنا ، ولكنه فعلاً طلب ذلك ! وانطلق السادات يتحدث عن لقائه مع الأسد قبل زياراته للقدس ، وكيف طلب من الرئيس السوري ألا يذهب بعيدًا في الهجوم على الزيارة «لأننا سنريدك بعد شهور لكي نسلمك الأرض!». ويقول بهاء : سألت الرئيس ببلاهة حقيقية : « أي أرض يا ريس سنسلمها لسوريا ؟ » ورد السادات : « الجولان طبعًا !! أم أنك تصدق الدعايات التي تقول: أنني سأعقد صلحًا منفردًا ؟! ».

هذا قليل من كثير .. كتبه أحمد بهاء الدين الكاتب الكبير المعتدل والموضوعي الذي لم يعرف إلا لغة الحقيقة والصدق . وهذه السطور تعد مدخلاً يتطلب المساهمة في دراسة تلك الشخصية السباقة إلى مستوى الحنكة والحكمة السياسية لصاحبها » .

كيف نحب مصر؟

عندما شاهدت أحدهم يبكي على شاشة التليفزيون بعد أن اكتشف أنه لم يكن يعرف أنه «يحب مصر» بهذا القدر (!) تذكرت الكاتب الكبير الراحل أحمد بهاء الدين عندما كتب يقول :

«دعونا من كل النظريات والاتهامات والشوشرة الكاذبة .. دعونا من الذين يكتفون بحب مصر على أمواج الإذاعة وشاشات التليفزيون ، والأناشيد الغنائية والمقالات الغرامية .. إننا فقط نريد من هؤلاء أن يحبوا مصر في غير التمثيليات والخطب والمقالات والأناشيد .. نريدهم أن يحبوا مصر بأن يحبوا شعبها .. فهذا هو الحب الأصيل ، وليس مجردَ حبها (لظلها الظليل) » .

«وأن يحبوا شعبها هو أن يكافحوا لكي يتعلم الطفل المصري أحسن ويأكل أحسن ، ويجد مرافق تجعل حياته أكثر راحة بعد أن صارت هذه المرافق بدائية كمواسير المياه والمجاري والمواصلات العامة والشوارع المدمرة .. بحيث تكون هذه المرافق في حالة أفضل » .

وقال أحمد بهاء الدين :

« الوطنية اليوم بالممارسة ، لا بالأغاني والأناشيد والمهرجانات » .

وربما لم يعالج كاتب مصري من قبل قضية الوطنية بهذا العمق والاستنارة .. والشجاعة .

والوطنية «الاقتصادية»، عند أحمد بهاء الدين ، لا تقل شرفًا عن الوطنية

السياسية .

إنه يشرح معنى الوطنية الاقتصادية على النحو التالي :

«لنعمل وننتج ونتعب ونعرق ونشتري ، بعد ذلك ، السيارات الكاديلاك ، فهذا وضع اقتصادي سليم . أما أن يركب الكاديلاك مائة شخص ، ويركب كباري المشاه مليون ، ويجري وراء المواصلات العامة ملايين ، وتدفع هذه الملايين ثمن الكاديلاك ، فهذا ليس ظلمًا فحسب ، وإلا لاحتملناه .. ولكنه كارثة اقتصادية قومية» .

***

كم كان أحمد بهاء الدين صاحب نظرة ثاقبة وواعية . إنه لا يتصور أن تكون وطنيًا دون أن تحب الشعب الذي تنتمي إليه . وهذا الحب لا يكون بالكلمات وإنما بالعمل من أجل رفع مستوى معيشة الشعب بحيث يعيش المصريون جميعًا حياة لائقة وكريمة وعزيزة .

قبل ٣٥ سنة .. كان هذا الكاتب الوطني يكتب بلا ملل ليشرح معنى الوطنية و«حب مصر» ، في وقت حاول فيه البعض تعريف الوطنية بأنها تأييد الحكام والولاء المطلق لهم ، كما حاول البعض تعريف الوطنية على أنها إعلان العداء لشعوب أخرى ، حتى لو كانت شقيقة .

كتب «بهاء» يقول :

«لم تعد الوطنية هي التعصب بمعنى عدوان الوطن على أوطان غيره والسيدة عليها بالمعنى «النازي» ـ الألماني الهتلري ـ ولم تعد الوطنية مجرد رؤية الوطن عزيزًا مستقلاً ، وإنما هي ـ فوق ذلك ـ رؤية المواطنين أعزاء أحرارًا يتمتعون بمستوى لائق من المعيشة ، ولا يعانون من استغلال داخلي أو خارجي . هذه هي وطنية العصر الحديث ، وطنية العصر الديمقراطي ، وطنية الحرية والمساواة . والمصري الحقيقي

هو الذي يؤرقه العدوان على وطنه ، كما يؤرقه أن يرى معظم مواطنيه يعيشون دون الكفاف ، ويؤرقه أن تقوم أي ظروف تسمح باستغلال المصري للمصري تحت ستار أن الكل مصريون .. ! » .

أحمد بهاء الدين يعتبر أن الدفاع عن الطبقات الشعبية جزء لا يتجزأ من الوطنية المصرية ، فهي قضية مقدسة ولذلك كان داعية للتحول الاجتماعي .

«فهذا التحول مطلوب ، لأنه لابد أن يشعر الشعب بأن نضاله أيضًا يمتد إلى الأمل في حياة أحسن ، حياة أكثر عدالة وأعلى مستوى ، ولابد أن يشعر بأن الجميع يشاركون في أعباء هذا النضال » .

إذن.. فإن رفع مستوى القواعد الشعبية هو بمثابة «الأسمنت المسلح» في بناء أي مجتمع أو أي دولة .. فالأمم لم تعد تحسب قوتها وتقدمها بعدد أصحاب الملايين فيها - كما يفعل البعض الآن - ولكن بمستوى الحد الأدنى من المعيشة لشعبها .

الوطنية عند أحمد بهاء الدين ، سواء في الماضي أو الحاضر ، ترتبط بالاستقلال وتحقيق السيادة ، وكذلك بسيطرة الشعب على ثروات بلاده . يقول :

«... فلابد أن يتحرر الشعب من كل سيطرة أجنبية ، ولابد أن يصبح أبناؤه جميعًا شركاء في الحكم ، متساوين في الحقوق والواجبات ، متساوين في القوة والحرية » .

***

وكان أحمد بهاء الدين يرى أن اعتزاز كل دولة عربية بتاريخها وتراثها لا يتنافى مع انتمائها العربي . وكان يؤكد دائمًا أن تاريخنا المشترك الضارب في القدم قد جعل بين هذه الشعوب العربية وشائج وروابط تجيء ظروف العصر الحديث لتوقظها وتدعمها .. لا .. لتضعفها ، وقد قاتل بهاء بصلابة في مواجهة عوامل الانكسار

للمد القومي ، ولم يكن معنيًا بعنصر العرق أو الجنس في أدبيات تطور القومية وإنما .. باللغة والتاريخ والتراث المشترك والأرض الواحدة والمصلحة الاقتصادية .

وكان فهم أحمد بهاء الدين للقضية القومية يرتبط بالدفاع عن العقل وتخطي الفجوة الحضارية وإقامة الدولة العصرية والديمقراطية وبناء عصر التنوير .. وقبل ذلك كله : التكوين النفسي المشترك .

ولا يستطيع كاتب هذه السطور أن يتصور أن «حب مصر» لا يظهر أو يتجلى ويتفجر إلا في مباريات الكرة .. والمفترض أن يظهر في قضايا حيوية وكبرى ، وهي عديدة وتواجهنا ، وتعترض طريقنا ، وتشكل تحديات بالنسبة لنا .

والوطنية ليست تعصبًا أو انغلاقًا وليست تطرفًا أو غرورًا واستعلاءًا .. وإنما هي التزام بالعمل على أن تكون بلادك في أرفع مكانة ، وشعبك في أفضل مستوى .

والدفاع عن الكرامة الوطنية قضية رئيسية بشرط أن يكون هذا الدفاع في كل الميادين والمجالات والأحوال ، وليس فقط فيما يتعلق بتداعيات مباريات كرة القدم .

وليس فيما نقول جديد ، فقد دعت «جماعة النهضة القومية» (د. إبراهيم مدكور - مريت غالي - محمد زكي عبد القادر) منذ مطلع الأربعينيات من القرن الماضي إلى تكون رأي عام مستنير يكون له شأنه في تقرير مصير الوطن ، وطالبت ببعث الشعور الوطني الحق عن طريق نهضة على أسس اجتماعية واقتصادية سليمة ووضع برنامج قومي تلتقي عنده كلمة المصلحين ويحقق رغبات الأمة في التقدم ويرسم للشباب معالم الغد ، ويكفل للشعب رفع مستوى حياته الروحية والمادية .

وكان النداء الرئيسي لرفاعة رافع الطهطاوي هو : «ليكن الوطن مكان سعادتنا أجمعين بالحرية والفكر والمصنع» .

.. فالوطن ليس الجغرافيا ومشاهد الطبيعة فقط ، وإنما هو البشر الذين عاشوا

ويعيشون فيه على مر الزمن ، ولن يتعمق شعورهم بالانتماء إلا إذا أيقنوا أنه وطنهم ، وأنهم أصحابه والسادة في أرضه .. يتمتعون بكل ثماره وموارده ، ويحرصون على زيادتها وتطويرها باستمرار لتحقيق المتعة والاستقرار في حياتهم .

كلما غامت الرؤية وتكاثر الضباب واختلطت الأوراق .. واشتدت كثافة الغيوم .. يفتقد المرء .. قلم أحمد بهاء الدين .

إنه ـ كما قال هو عن نفسه ـ من السذج الذين عاشوا بالأفكار ، والذين سيموتون بها » .

إنه نموذج فريد للصحفي المفكر ، والمفكر الصحفي .

كان بهاء يدعونا إلى الانتقال من عصر الجمود إلى عصر الحركة والاكتشاف ، ويحث على النضج الاجتماعي ، وتنمية حاسة التذوق ، وترقية الذوق العام والأخلاق .

إننا بإزاء كاتب وصحفي عرف كيف يحترم قلمه ويحميه ويكسب ثقة وتقدير القارئ .

إنه صاحب الفكر النقدي التحليلي الذي لا يقبل المسلمات والأحكام النهائية القاطعة ، ويرفض القوالب السياسية الجامدة .

ولذلك كان لابد أن يكون صاحب الصفحة النقية ، الذي لا يخاف تقلبات الزمن ، ولا يلهث وراء المغانم مع تغيير الأحوال والأزمنة .. عرضة للاضطهاد والتنكيل ، فيتم نقله من عمله مرة ، كعقوبة ، وإيقافه عن الكتابة مرتين ، وفصله من العمل الصحفي مرة أخرى .. وكل ذلك خلال ثماني سنوات فقط في السبعينيات من القرن الماضي .

إنه يتحدث عن الذين اغتنوا من «الاشتراكية» ، بينما «السذج» ، من أمثاله الـذين عاشوا بالأفكار ، لا يملكون سوى أثاث شقتهم ، وربما سيارة صغيرة «نصف عمر» ، وأحيانًا مئات قليلة في البنك .. للطوارئ .

كان بهاء يواجه تيارًا شرسًا يريد تدمير كـل شيء تحقـق .. وذلـك تحـت شـعارات «جديدة» .

إنه يضع خطًا فاصلاً بين الكسب المشروع والكسب غير المشروع .

ولم يكـف بهـاء عـن انتقـاد أهـوال البيروقراطيـة ، وغيـاب التخطـيط وعـدم احـترام الأولويـات ، والإسراف المظهـري ، والبطالـة المقنعـة ، والتجريـف المسـتمر لـلأراضي الزراعية ، والرافضـين للتقشـف مـن الفئـات العليـا ، ومـن يفضـلون اسـتعمال اللغـات الأجنبية في أحاديثهم ، وكل ما يصاحب الانفتاح الاستهلاكي من أشياء فجة وغثة .

منذ بداية انخراطه في العمل الصحفي قبل ٢٣ يوليو ١٩٥٢ ، اشتبك في معـارك متعددة ، وتم تقديمه إلى نيابـة أمـن الدولـة بتهمـة كتابـة مقـال يـدعو إلى قلـب نظـام الحكم في مجلة «اللواء الجديد» ، وكان عمره فوق العشرين بقليل .

ومع ذلك ، ظل يشارك كتّاب الحركة الوطنية في الكتابـة في الصـحف المضـطهدة قليلـة الانتشـار ، ويسـاهم في تـدبير جنيهـات قليلـة مـن أموالـه وأمـوال أصـدقائه المحدودة لطبع كتاب لواحد منهم .

إنه يرفض القوالب الجاهزة ، وينفـر مـن فكـرة الخضـوع لقـرارات مجموعـة مـن محترفي العمل السياسي ، كما يعارض إعدام الماضي ومحو صفحات من التاريخ .

إنه مفكر شديد الإحساس بالمسئولية .. يأخذ على عاتقه مهمـة الـدعوة إلى عبور حاجز اليأس والإتكال .. إلى آفاق العلم والمعرفة والتقدم والحرية والعدل .

وقد اشتبك في معارك مع قوى عاتية دفاعًا عن حرمة المال العام والاقتصاد القومي والصناعة الوطنية .

وتجلى بوضوح حرصه على التفرقة بين الجهد والتطفل ، وبين العدل والظلم :

«هل يكسب المال الذين يبذلون عرقهم ويعملون عشر ساعات في اليوم؟ أم الذين يصنعون الملايين بمكالمة تليفونية؟».

«هل يكسب المال صاحب رأس المال وصاحب الحرفة والمهنة .. أم يكسبه صاحب النفوذ وقريب صاحب النفوذ؟».

«هل سكب المال من يحترم القوانين الموضوعة .. أم يكسبه من ينتهك القوانين ؟».

واعتبر أحمد بهاء الدين أن مجانية التعليم ـ التي يتسابق المسؤولون اليوم لمحوها نهائيًا ـ هي ديمقراطية الكفاءة .. لا ديمقراطية الوراثة . كما دافع عن حق المواطنين في الرعاية الصحية .

ولا يمانع بهاء في تشجيع القطاع الخاص ورأس المال الاستثماري والانفتاح الإنتاجي ، ولكنه يعترض بشدة على حرية السرقة والتهريب وتحويل الأموال إلى الخارج .

كان يحاول دائمًا أن يضع «فرامل» ، على حد تعبيره ، ويتحفظ على الاتجاهات المعادية للديمقراطية .

الفيلسوف وبائع السمك!

وفي معركة القيم ، يدعو بهاء إلى نمط جديد من الحياة ، وقيم جديدة للسلوك . ويقول بأسلوبه الطريف اللاذع :

«حياة المرء اختيارات .. من حقك أن تجرب أن تكون تاجر سمك وتكسب .

ومن حقك أن تجرب أن تكون فيلسوفًا وتجوع ، ولكنك لن تكون فيلسوفًا وتكسب ثروة تاجر السمك في وقت واحد!» .

واخترع بهاء تعبير «الجهل النشيط» ، وأصحاب هذه الصفة هم الذين وصلوا في بلادنا إلى كثير جدًا من مراكز التأثير ، كبيرها وصغيرها ، وهو ما يجعل الإصلاح بالغ الصعوبة .. بعد أن تراكمت أهرامات من عدم الكفاءة ، على حد تعبيره ، فكل فرد لا يأتي إلا بمرؤوس أقل من مستواه .. حتى قاع الهرم .

وأحمد بهاء الدين يدافع عن السلامة النفسية للمواطن . ويحذر الدولة من النزوع إلى أن تكون قوية على الضعيف ، وضعيفة في مواجهة القوى ، وأن تتغاضى عن المساواة بين الناس .

***

مهنة قاتلة !

قبل بلوغه سن الأربعين .. شعر بهاء بتعب في مكتبه فجأة ، وظهر أنه أصيب بضغط دم مرتفع وتضخم في الكبد وإجهاد عصبي شديد .

وفي وقت لاحق ، أصيب لأول مرة بجلطة في أحد شرايين المخ عندما قرأ خبرًا «محبطًا» في الصحف .

وقال له الأطباء المعالجون في الولايات المتحدة :

«إن نجاتك هذه المرة .. أمر لا يتكرر . وعليك أن تتجنب بكل وسيلة .. الإصابة مرة أخرى . إن مهنة الصحافة في تلك المنطقة من العالم التي جئت منها ... قاتلة بكل تأكيد!» .

كيف يمكن لكاتب يعبر عن الضمير العام لأمته في أصعب - وربما أحلك -

الظروف .. أن يتجنب الإصابة مرة أخرى ، وخاصة إذا كان هذا الكاتب يصرّ - بعناد - على أن لا يلقي السلاح .. وعلى مواصلة الدفاع ، بكل قوة ، عن الرجل العادي ، لأنه يؤمن دومًا بأننا في عصر الرجل العادي .

ما أجمل أن تستعين أفكار ومواقف صاحب هذا الفكر الطليق المستنير ، الذي يعبر عن وجدان الأمة .. وهذا المثقف .. أسير قراءة التاريخ ، ورجل القيم والأخلاق ، وصاحب القلم النظيف الذي يفضي بهمومه إلى قرائه بطريقة حميمة ، والداعية إلى التحول الاجتماعي ، والذي لا يكف عن التذكير بأن الأمم لم تعد تحسب قوتها وتقدمها بعدد أصحاب الملايين فيها ، ولكن بمستوى الحد الأدنى من المعيشة لمواطنيها .

***

صحفيون مصريون في العراق

لم أفهم السبب في تجريد المصري من مصريته وتجاهل انتمائه الحضاري رغم أن ذلك لا يتعارض مع العروبة والقومية العربية .

في بغداد ، جلسنا نستمع إلى خطاب أنور السادات في ٢٨ سبتمبر ١٩٧٣/ .

المستمعون هم الكاتب الكبير أحمد بهاء الدين ، رئيس اتحاد الصحفيين العرب في ذلك الوقت ، وكامل زهيري أمين عام الاتحاد ، والكاتب عبد المنعم الصاوي نقيب الصحفيين آنذاك ، والكاتب الصحفي إبراهيم عامر ، رحمهم الله جميعًا .

كان هؤلاء هم الضيوف . أما سكان البيت فهم كاتب هذه السطور والدكتور أمير اسكندر وعبد السلام زكي مبارك . وقد انضم إلى سكان هذا البيت - في وقت لاحق - جلال السيد (جريدة الجمهورية) والصديق الصحفي الراحل كمال القلش

(جريدة الجمهورية) .

كان جميع الصحفيين من سكان هذا البيت مبعدين من أعمالهم الصحفية ومحرومين من ممارسة مهنتهم بقرار من أنور السادات مما اضطرنا إلى قبول العمل في صحف عربية .

وما أن أعلن السادات ، في خطابه ، ما أسماه بالعفو عن الصحفيين والطلاب المغضوب عليهم ، حتى بادرت إلى القول : «إذن.. فإنني سأعود غدًا إلى القاهرة». ولكن أحمد بهاء الدين نصحني بالتمهل لبضعة أسابيع ؛ لأن الفرصة مواتية أمامي لدراسة أحوال منطقة الخليج من موقعي في بغداد .

ولم تمض أيام حتى وقعت حرب أكتوبر .

كنت في مكتبي بجريدة «الثورة» العراقية ويجلس إلى المكتب الملاصق لي الصديق العزيز الراحل المذيع التليفزيوني الشهير والخبير الإعلامي الكبير صلاح ذكي ، الذي كان ـ هو أيضًا ـ من ضحايا عمليات القمع في التليفزيون المصري ، وتم إبعاده من عمله القيادي في ذلك الجهاز عقب أحداث مايو ١٩٧١ .

وفجأة تهلل وجه صلاح ذكي وانفرجت أساريره بعد أن ألقى نظرة على أجهزة «التيكرز» ، التي تتلقى برقيات وكالات الأنباء ليزف إلينا ، بصوته الرخيم ، نبأ العبور العظيم .

شعرت.. ، وأنا أقرأ برقيات وكالات الأنباء عن عبور الجيش المصري لقناة السويس ، وأن كلمة «المصري» أصبح لها رنين ساحر ووقع جذاب ، وأنها تكتسب معاني ودلالات وأبعاد جديدة .

وقررنا إعلان التعبئة العامة في الجريدة لكي نخصص كل صفحاتها لحرب التحرير . وتم توزيع المهام والأدوار ، مع اهتمام خاص بإعداد كل الصور عن

المعارك وإبرازها . وتواصل العمل حتى ساعة متأخرة من الليل دون انقطاع .

لم يغادر أي منا الجريدة . وعكفت الزميلة الصحفية المصرية «أميمة أبو النصر» - زوجة الكاتب جلال السيد - على إعداد الأنباء التفصيلية عن القتال بتسلسلها الزمني .

عدت إلى بيتي عند الفجر لأنام ساعة واحدة . وعندما توجهت إلى مكتبي في الصباح فوجئت وأنا أقرأ الجريدة بأن كلمة «مصري» تم حذفها من كل الأخبار لكي تحل محلها كلمة «عربي!» .

فقد نشرت الجريدة أن الجيش «العربي» قام بعبور قناة السويس ، وأن الطائرات «العربية» أغارت على مواقع العدو . ورغم أنني من أشد المتحمسين للنضال المشترك ولقضايا العرب والعروبة ، إلا أنني لم أشعر بارتياح من هذا التصرف .

وعندما تحدثت مع رئيس التحرير «طارق عزيز» في هذا الأمر ، قال : «أنها معركة كل العرب» . وحاولت إقناعه بأن عدد الدول العربية يتجاوز العشرين دولة ، ولابد من تحديد اسم الدولة التي تحارب ، وأن تعبير «الجيش العربي» يمكن أن يقبل التأجيل لحين تحقيق الوحدة العربية المأمولة .. ولكن الرجل أصرّ على وجهة نظره .

وبعد أيام ، قام مسؤولون عراقيون بإبلاغنا - نحن الصحفيين المصريين - بأن العراق دخل المعركة وأرسل عددًا من طائراته إلى جبهة سيناء للمشاركة في القتال .

وأسعدنا هذا القرار .

وظهرت في اليوم التالي عناوين ضخمة في الصحف العراقية عن اشتراك الطيارين «العراقيين» والطائرات «العراقية» في القتال . ولم يرد أي ذكر ، من قريب أو بعيد ، لاشتراك طيارين «عرب» أو طائرات «عربية» ، بل كان ثمة حرص

وتأكيد على أنهم طيارون «عراقيون» وطائرات «عراقية» .

ولا أستطيع أن أوجه اللوم إليهم ، فمن حقهم الاعتزاز بأنهم عراقيون ينتمون إلى الحضارة الآشورية والبابلية والسومرية والكلدانية ، ولكنني لم أفهم السبب في حرمان المصري من حقه في أن يكون مصريًا ينتمي إلى أقدم وأعرق الحضارات ، رغم أن هذا الانتماء لا يتعارض في شيء مع العروبة والقومية العربية .

■ ■ ■

كم كان هذا الكاتب الصحفي والأديب والشاعر وعاشق المسرح والمناضل.. يحب الكبرياء .



عبد الرحمن الشرقاوي
فارس فوق جواد جامح

أتذكر جيدًا ذلك اليوم الذي التقيت فيه مع «عبد الرحمن الشرقاوي» في بداية الخمسينيات . كانت قصيدته «من أب مصري إلى الرئيس ترومان» تدوي في الآذان.. وكنا نردد معه قوله في خاتمة القصيدة: «فإن تملكوا الذرة المفنية.. فإنا نمتلك التضحية .. ونمتلك الذرة البانية.. ونملك طاقاتنا كلها. ونملك أيامنا الباقية.. وتاريخ أجيالنا الآتية ».

في نهاية ذلك اللقاء الأول صافحني بحرارة وهو يقول : «لابد أن نلتقي مرة أخرى» . وكانت تلك هي عادته مع كل صديق جديد يتعرف به .

وأذكر في سنوات حالكة.. وحملات الاعتقال على قدم وساق.. قصيدته الرقيقة «عزة والرفاق». التي قرأتها لأول مرة في مجلة «الثقافة الوطنية» اللبنانية وإلى جانبها صورة الشرقاوي وهو يرتدي معطفه ويسير على الطريق بقامته المديدة.. وكأنه يشعر ـ رغم الصقيع ـ بدفء داخلي عظيم ويدعونا لكي نسير معه ونضع أيدينا في يده.. فيشد عليها ويقول في حنان: «لا تهنوا ولا تحزنوا.. » .

أذكر جيدًا تلك الصورة التي أحببتها للشرقاوي.. وهو يتطلع إلى الأمام.. وتبدو نظراته ـ حتى من وراء نظارته السميكة ـ مليئة بالعناد.. والإصرار والتحدي والكبرياء .

كم كان يحب كلمة الكبرياء .

***

وعندما سافرنا معًا إلى هافانا في نهاية عام ١٩٦٧ شعر بسرور غامر عندما قلت له: أنني حصلت على نص أغنية «جوانتانا ميرا» التي كتبها ـ كقصيدة ـ بطل تحرير أمريكا اللاتينية (خوزيه مارتي) وهي أشهر أغنية شعبية في كوبا.. وسألني : ماذا ستفعل بها؟ قلت .. سأترجمها وأنشرها .. وكان سعيدًا عندما طلبت منه مراجعة صياغتها من ناحية البناء الشعري.. وأخذنا نردد معًا باللغة الأسبانية مطلع الأغنية .

يا فتيات وانتانامو

يا فلاحات وانتانامو

إنني رجل مخلص ..

جئت من أرض النخيل

ولاحظت أنه توقف طويلاً عند الكلمات التالية:

جدول صغير من المياه في الجبل قد يهزني أكثر مما يفعل البحر .. الشاسع.

***

كان ثائرًا للغاية ضد قرارات لجنة النظام التابعة للاتحاد الاشتراكي التي صدرت في ٤ فبراير عام ١٩٧٣ بفصل عشرات الصحفيين من عملهم . ورغم أنه تحدث معي طويلاً في مكتبه بمجلة «روزاليوسف» حول هذه المسألة إلا أنه أصر على أن

نلتقي في المساء حيث كنت أجلس معه في معظم الأحيان وسائر الأصدقاء .. في «النادي الثقافي» .

كان معنا الصديق «عبد المجيد أبو زيد» . وكيل أول وزارة الثقافة وعضو اللجنة المركزية للاتحاد الاشتراكي والأمين العام المساعد للقاهرة في ذلك الوقت.. وأيضًا الصديق المشترك «أديب ديمتري» (من كبار رجال التربية والتعليم) .

وقال لنا «عبد الرحمن الشرقاوي» : «لا أجد أمامي سوى حلاً واحداً هو أن أقدم استقالتي من عملي كرئيس لمجلس إدارة «روزاليوسف» .

وكانت وجهة نظرنا ـ نحن أصدقاؤه ـ أن يبقى في موقعه وأن يطالب بإلحاح بإعادة جميع الصحفيين والكتاب المفصولين، ووافق على مضض .. وقد شعرت في تلك اللحظة أكثر من أي وقت مضى ، أن المناصب تشكل بالنسبة له عبئًا ثقيلاً ومرفوضًا وأن الخيط الوحيد الذي يربطه بتلك المناصب هو إصرار أصدقائه الذين يثق بهم .. على أن يبقى و«يجاهد» .

وكم تركناه يصارع وحيدًا.. في مواجهة قوى ضارية وعاتية .. وعناصر مستفزة تدعو إلى الجمود والتخلف وتكره الاستنارة.

***

عندما تحدثت لساعات طويلة مع «الشرقاوي» في يوليو عام ١٩٦٩ كانت ملحمة الحسين التي كتبها تشغل كل تفكيري بعد أن قرأت «الحسين ثائرًا» و«الحسين شهيدًا».. وأصبحت مأخوذًا بهما .

وسألته عن التوقيت الذي بدأ يشغله فيه موضوع الحسين . وقال لي : «منذ سبع أو ثماني سنوات .. تقريبًا ، شعرت بالحاجة إلى هذا النموذج شيئًا فشيئًا . ولكن ..

حقيقة بعد الخامس من يونيو وجدت نفسي لا أستطيع إلا أن أتفرغ تمامًا لهذا العمل وأعطيه كل وقتي ووجدته يستولي على أعصابي ، وسافرت إلى العراق وعشت أحزان الناس في كربلاء لأنهم تركوا الحسين يموت . وأحسست بهذا الندم .. وكأني به ذلك الندم العام الذي ساد بعد ٥ يونيو لأننا تركنا أرضنا تنتهك » .

وقد اختار الشرقاوي شخصية الحسين في فترة الشعور الملح بالحاجة إلى نموذج .. إلى الإنسان الذي يضحي بالحياة لقيمة أغلى عليه من الحياة ، ولتأكيد أن هناك قيمًا تصون الحياة وتستحق أن نضحي في سبيلها .

وقال لي الشرقاوي :

«ثمة فراغ في عصرنا يحتاج إلى استعادة النماذج الإنسانية العظمى في التاريخ الإنساني بأسره .. يحتاج إلى الرجل الذي يعطي كل هذا .. ويجاهد إلى حد الموت في سبيل ما يؤمن به حتى ليرفض أن يكون التنازل هو ثمن حياته أو نجاحه .. والحسين نموذج من تراثنا وأرضنا .. والتعريف به يملأ نفوسنا بثقة أكبر.. » .

كنت أتطلع بشغف إلى أحاديث الشرقاوي عن الحسين .. وقال لي في إحدى الأمسيات :

«الحسين ظهر في عصر غريب ومختلط .. ومناقض للقيم التي كان يحملها الحسين ويصونها قليل جدًا من معاصريه . كانت القيم الثورية تصطدم بنظرية جديدة ودخيلة هي «ضرورات سياسة الملك» ، وهي نظرية تقوم على اصطناع الأنصار وتأليف القلوب بالمال .. وعلى أن تتحول الإمامة أو الخلافة إلى ملك .. هذا الملك الذي أسماه الصالحون من ذلك الزمان هيرقلية أو قيصرية. أي أن يتحول شكل الدولة البسيط القائم على الشورى الكاملة والعدالة المطلقة وتكافؤ الفرص إلى نظام ملكي مدعم شبيه بنظام الإمبراطورية الرومانية. وكان المطلوب من الناس أن

يتحولوا من ثوار إلى رجال دولة . وتحول بعضهم بالفعل من فقهاء مصلحين إلى رجال دولة يجمعون المال ويملكون القطائع ويستغلون سواهم ويقيمون نظام حياتهم ، ويخلقون مستوى أفضل لهذه الحياة عن طريق استنزاف حقوق الآخرين وتعبهم وثمرات عملهم . وهذا كله يناقض ما آمنوا به من مبادئ وعقائد وما ورثوه من شريعة . وفي مثل هذه الدولة يحتد الصراع بين الأغنياء الجدد وبين الثوار.. بين أصحاب المصالح .. وأصحاب المبادئ . وقد تمثل هذا الصراع في الدولة الأموية .. بين زعماء هذه الدولة ـ وكلهم دعاة ملك ونظام ـ وبين بقية ورثة القيم الإسلامية والمبادئ العليا وعلى رأسهم (الحسين بن علي) .

ويرى الشرقاوي أنه كان من الطبيعي أن يعكس هذا الصراع .. تلك المعركة والتي تكاد تكون خالدة بينْ المبدأ والمصالح .. وهي المعركة التي يصطدم فيها الصدق بالكذب ، والحقيقة بالزيف ، والارتفاع بالنفاق ، والإيمان بالطمع . والارتفاع عن الدنيا بالتهافت على المباذل.. وهي معركة تجسم كافة القيم المتصارعة في مثل ذلك المجتمع حيث تعاني القيم الفاضلة محنة قاسية .

وهذه القيم ـ فيما يرى الشرقاوي ـ تحتاج إلى نماذج عظيمة وفدائيين عظام ، وقد كان الحسين في صراعه ذاك هو أحد النماذج الشاملة والخالدة . وقد ظهر عندما اشتدت الحاجة إليه ليعيد للإنسان ثقته حتى بالحياة نفسها دفاعًا عما يؤمنون به .

***

وقد وقع اختيار الشرقاوي على المسرحية الشعرية باعتبارها الشكل الفني لتقديم ملحمة الحسين .. لماذا؟ : «اخترت هذا الشكل الفني لأن ما أردت أن أقوله ـ من اختياري لواقع ثورة الحسين واستشهاده ـ لم يكن في إمكاني أن أعبر عنه بأدق من هذا الشكل .. ذلك أن المسرحية الشعرية تكثيف وتركيز وتجسيد ، وهذا كله يغذي

فاعلية الكلمة عندما يكون إطارها هو المسرح .. والشعر أقدر على استيعاب الشحنات العاطفية والانفعالية التي يحتويها موقف الحسين.

وهنا يقول الشرقاوي : «.. في الحق ، ولكي أكون دقيقًا تمامًا ، أني لم أختر هذا الشكل بقدر ما وجدته ملتحمًا مع الموضوع ، أي بقدر ما فرض نفسه على قلمي . ومنذ فكرت في الكتابة عن الحسين ، وأنا أفكر في الكتابة عنه في إطار المسرح الشعري ، ومأساة الحسين بكل أبعادها ، منذ انتقلت من ذمة التاريخ إلى وجدان الجماهير ، أي منذ بدأ الناس في كربلاء وغيرها من البلاد المجاورة يبكون الحسين في مشاهد تمثيلية تشخص خروجه ونضاله واستشهاده ، ومنذ بدأ الندم العظيم يخالج هذه المشاهد وينديها بالدموع.. ومنذ بدأ إيقاع الألم على استشهاد الحسين ينبض من قرع الصدور واللطم على القلوب والخدود والرؤوس .. منذ بدأ هذا كله .. بدأت في أدبنا الغربي التراجيديا الإسلامية : تراجيديا صاغتها الأحزان وألّفها خيال النادبين التائبين . واشتركت فيها الكلمات والصرخات والأنغام الفاجعة على موسيقى الأنين البشري . وهذا كله ما هو إلا تكوين فني ضخم ظل ينتظر الفنانين الذين يقدمونه في مسرحيات ولوحات وأعمال فنية مختلفة.

***

ويشرح لي الشرقاوي كيف اقترب من الموضوع في وجل ، وفي ذهنه أن المأساة كلها تصلح مسرحًا ملحميًا أو تراجيديا قومية لها خصائصها التي تتميز بها عن التراجيديا الإغريقية ، ولكنه بعد الخامس من يونيو ١٩٦٧ وجد نفسه يعالج الموضوع ويكتبه دون أن يفكر في الشكل الملحمي أو التراجيدي .

وكان الشرقاوي يدعو الشعراء والكتاب والفنانين إلى الاقتراب من هذا الحدث الضخم بكل ما يملكون من شجاعة فنية وجسارة ، ويقول: إنه في مجال المسرح

بالذات ، سيجد المخرجون والكتاب من مأساة الحسين منبعًا لا ينصب لعشرات .. بل لمئات التراجيديات والمسرحيات الملحمية .. فالمشاهد التمثيلية الشعبية التي يقدمونها في كربلاء (وفي كل بلد ما زال الناس فيه يندمون على ما حدث للحسين ، أو على موقفهم مما حدث للحسين) .. في جميع هذه البلاد يقدمون مشاهد تمثيلية منذ الأول من محرم حتى العاشر ، وهي مشاهد تستغرق الليل بطوله وجزءًا من النهار ، وهي تروى تفاصيل كاملة لكل ما حدث منذ خروج الحسين حتى استشهد .. وفيها عرض لما حدث للشخصيات التي خرجت معه من أهله وأصحابه ، وكل شخصية تصلح لأن تكون محورًا لمسرحية ، وكل موقف واحد يصلح لأن يكون مسرحية بكاملها ، وهذه الوقائع جميعًا أضافت عليها الأحزان الشعبية (جيلاً بعد جيل) روعة خارقة وملهمة .

***

شخصيتان هامتان ظللت أعيش معهما بعد قراءة ملحمة الحسين للشرقاوي هما «مسلم بن عقيل» ، و«المختار الثقفي» ، وكان لابد أن يجري الحديث بيني وبين الشرقاوي عن هذين النموذجين.. قال لي خلال حوار ممتع :

«مسلم بن عقيل .. واحد من ضحايا الصراع التراجيدي في المسرحية لأنه يشنق من فضائله ، فقد كان أعداؤه في قبضته ، وكان يستطيع أن يصل بأمر المبايعة للحسين إلى مداه، وكان من الممكن أن يفعل ما يشاء بوالي البصرة والكوفة ابن زياد ، وكان بيت المال في متناول يده ، وهو مفلس وأعوانه في حاجة إلى مال وسلاح ، ولكنه رفض أن يصنع شيئًا من هذا كله تمسكًا بمبادئ الفتوة وبفضائل خاصة آمن بها .

***

ويقول الشرقاوي: أن تراجيديا التاريخ الإسلامي في تلك الفترة جسدت مأساة اقتناص الإنسان الفاضل من مزاياه كما حدث للحسين من قبل ، وكانت تلك المزية مفتاح شخصية مسلم ، وقد عرفها أعداؤه فتغلبوا عليه بها حتى استردوا من تحت أقدامه كل ما كسب من أرض .. وبعد أن كانوا محاصرين ، فك ـ هو ـ حصارهم ليسجنوه وليقتلوه .

ويقول الشرقاوي: أن المختار الثقفي نموذج آخر .. فهو يشحذ يقظته في الحياة على سوء الظن بأعدائه . وكان يرى أنه لو أخطأ في سوء ظنه بحاكم .. فلن يضر إلا هذا الحاكم إن ظهر أنه طيب ، أما إذا أحسن الظن به وتبين أنه سيئ فقد يضر الأمة جميعًا .. والمختار لم ينخدع بابن زياد عندما حوصر وبعث يستعطف .. وحاول المختار أن يقنع مسلم بن عقيل باستمرار حصاره ، ولكن مسلم رفض . ودفعت الأمة كلها الثمن .. ودفع مسلم رأسه ثمنًا لهذا الخطأ .

وفي حرص المختار ويقظته .. استطاع أكثر من مرة ، كما يقول الشرقاوي: أن يؤلب الناس على ابن زياد وأن يمهد الأرض لثورة عارمة انتقمت من قاتل الحسين بعد مقتله بنحو أربع سنوات وجعلت استشهاد الحسين نفسه راية كفاح في سبيل العدالة والحقيقة والقيم الفاضلة وحولت هذه الفاجعة إلى كسب للمبادئ التي استشهد من أجلها الحسين .

***

وكم كان الشرقاوي يحب العدالة والحقيقة والقيم الفاضلة ..

ولذلك أصبحنا نعرف جيدًا أسماء «محمد أبو سويلم».. وعبد الهادي ، والشيخ حسونة ووصيفة .. في صراعهم من أجل «الأرض» .

وفي سنواته المبكرة ترجم الشرقاوي قصيدة «الحرية» . التي كتبها الشاعر

الفرنسي «بول أيلوار» والتي هزت العالم في وقت من الأوقات بكلماتها الملتهبة :

«أيتها الحرية .. لقد ولدت لكي أهتف باسمك » .

وكم كان الشرقاوي يتعلق بحب الحرية طوال حياته .

ولكن المأساة أننا «نحن الذين يموت أفضلنا ليحيا الآخرون بلا دموع» .. فمتى .. يا عبد الرحمن يغرد القلب الحزين .. و«تعبر الأنغام أسوار السجون» . ومتى يتحقق ما وعدتنا به و«يقبل الزمن السعيد» ، و«تملأ الضحكات أرجاء الحياة؟» .

وقد أعلن البعض الحرب على الشرقاوي.. عندما بدأت خطوات تقديم «الحسين ثائراً.. وشهيداً» على المسرح. وتسابق هذا البعض في مهاجمته.. الى حد تجاوز كل التقاليد والأعراف والحدود.. وإتهامه بالكفر!

كبرياء وشموخ

في عام ١٩٦٧ ، أتاحت لي الظروف أن أقترح أسماء أعضاء الوفد المصري في المؤتمر الثقافي العالمي في هافانا وكان من أبرز الأسماء التي اقترحتها : عبد الرحمن الشرقاوي.. فقد كان سفير كوبا في القاهرة.. وأتذكر بعد وصولنا إلى هافانا أنني اتفقت مع الشرقاوي في إحدى الأمسيات أن نغادر الفندق للقيام بجولة في العاصمة الكوبية .

وأرهقنا المشي وقررنا الجلوس إلى مقهى وكان من الطبيعي أن يسألنا رواد ذلك المقهى عن جنسيتنا وما إن عرفوا .. حتى صدرت منهم عبارات الاستهجان، فقد كانت هناك حالة من السخط على كل ما هو مصري بسبب هزيمة يونيو ١٩٦٧ . ونصحني الشرقاوي بأن نغادر المقهى على الفور وهو يكتم غضبه .

وقررنا أن نلزم الفندق .

وشعرت بضرورة إحداث تغير في حالتنا النفسية. كنت أحمل معي كلمات أغنية « وانتاناميرا ».

***

وكلمة «وانتا ناميرا» ـ كما سبقت الإشارة ـ تعني «يا فتيات وانتانامو» ، وهي منطقة تقع في جنوب كوبا ينطق البعض اسمها بطريق الخطأ «جوانتا نامو» .. وتقيم فيها الولايات المتحدة قاعدة عسكرية تحتلها حتى الآن .. وبها معسكر الاعتقال الشهير .

وكتب موسيقى هذه الأغنية « خوزيه فيرنانديز دياز » ، ويرى بعض الخبراء أنها من إبداع الفلاحين في جنوب غرب كوبا في مطلع القرن العشرين . وقرأت كلمات الأغنية، مرة أخرى ، لعبد الرحمن الشرقاوي وقلت له: إنني ترجمتها ، ولكنني أريد أن يراجعها مرة أخرى باعتباره الشاعر الصنديد .

وأخذ الشرقاوي ينقح معي كلمات الأغنية وقد استعاد حيويته وحماسه : أنا رجل صادق ومخلص/ جئت من هذه الأرض/ أرض أشجار النخيل/ وقبل أن أمضي/ وأودع الحياة/ أتمنى أن تسمعوا قصائدي/ التي تنطلق من أعماق روحي .

الفضائل والشرور

كانت القضية التي تشغل الشرقاوي خلال مناقشاتي الطويلة معه هي : اقتناص الإنسان من فضائله .

وربما كانت هذه القضية تفجر لديه طاقات الإبداع؛ لأن هناك شخصيات تاريخية ودينية عديدة وقعت في حبائل أعدائها .. لا لسبب سوى أنها كانت تتصرف وتتحرك وتعمل وفقًا لأسمى قواعد الأخلاق بينما تتربص بها القوى الشريرة .

التقيت به بعد اجتماع عقده مع قداسة الأنبا شنودة بطريرك الكرازة المرقسية .

كان البابا قد رفض أن يتوسط الكاتب الصحفي موسى صبري بينه وبين السادات ووافق على أن يكون الوسيط هو عبد الرحمن الشرقاوي ، وعندما قيل للبابا : كيف ترفض وساطة مسيحي وتقبل وساطة مسلم؟ أجاب بقوله : «إنني أثق في هذا المسلم ولا أثق في هذا المسيحي» . وروي لي الشرقاوي أن البابا قال له: إنه ليس معارضًا لمبادئ الشريعة الإسلامية .. فنحن تحكمنا قوانين رومانية وفرنسية .. فإذا كانت الشريعة الإسلامية تضمن حقوقنا .. فما المانع.. وقال البابا : غير أن ما يفعله ويريده السادات .. لا علاقة له بالشريعة .

وقال لي الشرقاوي : إن البابا أبلغه بأنه لا يعارض في وجود حزب شيوعي في مصر بشرط أن لا يهاجم الرسل .

وكانت فترة القلق والشكوك والهواجس التي عاشها الشرقاوي هي تلك التي أعقبت قيام لجنة النظام في الاتحاد الاشتراكي بفصل حوالي مائة صحفي .

كنت ألتقي معه باستمرار ، في تلك الفترة ، بعد أن ينهي عمله في روزاليوسف ويتوجه إلى النادي الثقافي في فندق شبرد .

وكان يتعمد أن يدعو بعض الأصدقاء اليساريين المشتركين إلى جلساتنا لكي نناقش ما يجري.. فقد كان يحب سماع آراء أصدقائه ، الذين يثق بهم . ويتشاور معهم، ويطرح السؤال الذي يلح عليه : ما العمل؟

وعندما قام السادات بحملة الاعتقالات في سبتمبر ١٩٨١ لم يطق الشرقاوي ولم يتحمل ما يجري.. فأجرى اتصالاً ، وطلب مقابلة السادات وردت عليه ـ في التليفون ـ السيدة جيهان السادات وطلب منها تحديد موعد المقابلة ، وقالت له السيدة جيهان : تستطيع الحضور الآن .. فالرئيس موجود .. ثم أبلغت زوجها بأن الشرقاوي قادم لزيارته ، ولكنها فوجئت بالسادات يرتدي ملابسه ويستعد

للخروج من منزله .

وعندما أعربت السيدة جيهان عن دهشتها من تصرفه وتساءلت : الشرقاوي في الطريق إليك فكيف تخرج الآن ؟ أجابها بقوله :

«هل تفضلين أن يأتي ، وألا أقابله بعد حضوره؟ وانصرف خارجًا!!

«وروت السيدة جيهان ما حدث في ذلك اليوم للشرقاوي بعد اغتيال السادات بفترة من الوقت وقالت : ليت هذا اللقاء بينكما قد تم» .

ويشهد «عبد المجيد أبو زيد ـ صديق الشرقاوي ـ بصحة هذه الواقعة » .

استنزاف المبدع

وأنت تجلس معه .. إذا ظهرت عليه فجأة علامات التوتر والعصبية ويشرد ذهنه . تدرك على الفور أنه اقتنص فكرة جديدة .. وعثر على ضالته المنشودة .

وأتصور أن إنتاج وإبداع عبد الرحمن الشرقاوي كان يمكن أن يكون أكثر غزارة لو لم تفرض عليه تلك المعارك المستمرة سواء في ميادين الفكر والثقافة .. أو السياسة . كذلك ، فإن العمل الصحفي كان يستنزف قدرًا من طاقته .

كان يقول : تمر بالإنسان حالات نفسية لا يستطيع فيها قول الشعر وكتابة القصة القصيرة . وكثيرًا ما اختنقت قصائد وقصص نتيجة لظروف العمل الصحفي اليومي ، وهذا مؤسف ، لأنهما عندما يختمران في ذهني لابد أن أتفرغ لهما ، على عكس القصة الطويلة والمسرحية ، فالمؤلف يستطيع أن يكتب فيها من حين لآخر. وهذا يعطي الكاتب فرصة للإتقان .

في مقهى الفيشاوي

عرفت عبد الرحمن الشرقاوي عن طريق صديقين قديمين هما عبد العزيز فهمي

وأديب ديمتري ، والأول كان مراقب الأخبار في الإذاعة . ولم تكن كلمة «مراقب» تعني رقيبًا ، وإنما مشرفًا على نشرات الأخبار ثم أصبح بعد ذلك من كبار الصحفيين في «الجمهورية» قبل أن يتولى منصب نائب رئيس تحرير «أخبار اليوم» وكان أديب ديمتري من كبار رجال وزارة التربية والتعليم .

التقيت مع الشرقاوي كصديق حميم لهما . وكنا في ذروة انطلاق الحركة الوطنية عقب إلغاء مصطفى النحاس لمعاهدة ١٩٣٦ . وكان الحديث يدور حول تشكيل لجنة وطنية لمساندة نشاط الفدائيين في منطقة القناة والنضال ـ في الوقت نفسه ـ لتوسيع الحريات السياسية في مصر، والسهرات المفضلة كانت في مقهى الفيشاوي ، والشرقاوي يتحدث بحماس عن معارك الكفاح المسلح في منطقة القناة ضد قوات الاحتلال الإنجليزي ، ويشيد بمواقف شخصيات الجناح اليساري لحزب الوفد ، وكان الشرقاوي نشطًا في حركة أنصار السلام المصرية في ذلك الوقت .

استقالة مسببة

في عام ١٩٤٧ ، قدم عبد الرحمن الشرقاوي استقالة مسببة من منظمة «الطليعة المتحدة» الشيوعية السرية .

«كانت المنظمة ثمرة لوحدة متعجلة بين منظمتي «أسكرا» ، و«تحرير الشعب» .

وجاء في نص الاستقالة ما يلي :

«ليس الخطر على الطبقة العاملة وعلى الجماهير الشعبية بصفة عامة بمقصور على ما يظهر الأعداء الماهرون من استعمار ورجعية وذيول ، وإنما ثمة خطر آخر أعظم وأدهى هو الذي يكمن في طائفة من البورجوازيين بكل انحرافاتهم وجهلهم تحاول قيادة الجماهير الشعبية فتضللنا وتمزق وحدتها» .

ويضيف الشرقاوي :

«النضال غفور رحيم، ومع ذلك كنت أشعر بهذا الخطر على الحركة الشعبية يكمن في جماعة «أسكرا» من جماعة من صغار الطبقة الوسطى لم تستطع أن تحرر عقليتها من مفاهيم طبقتها فدخلت إلى النضال تحت ثورية البورجوازية الصغيرة فأخذت مواقعها من خلال وضعها الطبقي ، واندفعت في حومة نضال البروليتاريا كظل غريب تعس .. هذه الجماعة خانت الفلسفة والنضال مشيعة في الأفكار لونًا من الميوعة ، داعية إلى متاع الراحة وسيتكفل القضاء والقدر بحل مشاكل الشعوب والطبقة العاملة » .

ويستطرد الشرقاوي قائلاً :

«هذه الجماعة هي التي أنكرت على الحزب الشيوعي في سوريا ولبنان أن يشترك في معركة الحرية الكبرى، وطالبته - وهو الحزب الثوري - بأن يخون قضية وطنه وقضية الشعوب ».

«وهذه الجماعة هي التي نادت بالوطن القومي لليهود في فلسطين وأيدت الهجرة «اليهودية» حتى ظن الناس أن التقدمية هي الترجمة الجديدة لكلمة الصهيونية ، وهي أيضًا التي هاجمت القضية المصرية فشجعت الحركة الانفصالية في السودان بدعوى حماية السودان من استعمار الرأسمالية المصرية .. حتى تركت العناصر الوطنية في مصر والسودان «وعلى رأسها الوفد السوداني» تعتقد أن التقدميين في مصر هم أجراء الاستعمار البريطاني .

«وهذه الجماعة هي التي حطمت الحركة الوطنية في العام الماضي ١٩٤٦ باعتمادها على الخونة والجواسيس بين العمال ، وهي التي تمرغ الذي ما في النفس الإنسانية في الوحل .. وتصب الفتية والفتيات في قوالب الإنسانية كما تعامل قطع

الشطرنج تحت شعار سحق بقايا الكبرياء البورجوازي » .

كان الشرقاوي قد تعلم دروسًا كثيرة من خلال احتكاكه بعناصر ماركسية أو عناصر تصف نفسها بذلك ، ليصبح أكثر ثورية من أدعياء كثيرين .

فلسفة الشرقاوي

إنه يمجد الكبرياء والشموخ ، ويشيد بهؤلاء الذين يحتفظون بارتفاع قاماتهم ، ويحرصون على ألا تنحني رؤوسهم، وتقطر كلماته وسطوره بالإعجاب برجال الشرطة الذين يرفضون أن يضربوا المظاهرات والمتظاهرين الوطنيين. كان يحب المترفعين ، ويتحرق شوقًا إلى العدل والحرية ويكره النفاق والظلم والطغيان ، كما يكره طلاب المنافع وكيد الكائدين ، وصناع البدع والضلالات والأباطيل وأهل الزيف .

إنه يرفض الكذب والمذلة . ومهموم دائمًا بالحق والإخاء والمساواة .

وعندما تستمع إلى كلماته المتناثرة في الأمسيات مع الأصدقاء تشعر أنه ضمير لأمته وقلب نابض يخفق بعشق الأرض وأنه ارتبط بالجذور وتشبع بعبق أشجار الريف .

وكان يردد دائمًا : «إن فلسفتي في الحياة هي أن الإنسان يستطيع أن يملأ حياته وحياة الآخرين بالخير والحب ، ولكن هناك ظروفًا اجتماعية تفسد كل شيء وفي وسع الإنسان أن يصنع ظروفًا أفضل يمارس فيها كل فضائله» .

ولكن الحياة لن تصفو للناس، ولن ينتصر فيها الحق والخير «حتى يعجز الفجرة ، ويصبح الثقات هم أهل الجلد» .. وذلك أنه ـ كما قال على لسان الفقيه المعذب ابن تيمية ـ ما جدوى العمل والفقه وكل الكلمات ، إن لم تستطع أن تنتشل الإنسان وتحمي شرف الحياة؟

وما جدوى كل شيء إن كان الذعر يطارد الأمن والباطل يغشى الحق بدخان البارود والبهتان؟

وقد قرر الشرقاوي أن يسير على خطى الرواد الذين يستلهم حياتهم وأفكارهم ، فهو يشهر القلم واللسان ، ويناضل لكي ترتفع هامة الإنسان ، ولكيلا تنهش وحوش الغابة لحوم الأطفال ولكي ينقذ الرجال والنساء من الهوان .

إنه يكره التعصب «الذي يطمس البصائر ويعطل العقول» ومثله الأعلى هم كبار قادة الفكر الذين يقتحمون المخاطر .. «فمن يخاف الله لا يبالي بالجبارين العتاة» .

كان الشرقاوي يقول : «الكاتب أو المفكر ليس كالتاجر ، فهو لا يمسك بدفاتر ، ويجب ألا ينشغل بالحسابات ، والعطاء الفكري ليس وسيلة للكسب التجاري ، كما أن الكاتب أو المفكر أو الأديب عندما يكتب فهو يختصر حياته لأن الإجهاد البدني أو العصبي الذي يعانيه الكاتب عندما يكتب أو الفنان عندما يبدع يؤثر أبلغ التأثير على صحته . والكاتب في مصر تعس حقًا ، والكتابة هي مهنة الشقاء .. ولذا فإنني أطالب بأعلى الأجور للكتاب والأدباء.. إنني أطالب بعدالة في الأجور تحقق المساواة بين أهل الفكر .. وأهل الرقص!» .

كان والده يعده للالتحاق بالأزهر ، لأنه كان في طفولته شبه أعمى إذ فقد بصره تحت تأثير الإصابة بالرمد .. ولم تكن هناك دراسة تناسب فتى ضريرًا سوى الفقه والدين ، ولكن المعجزة حدثت وعاد إليه بصره وهو في السابعة من عمره فتغير خط حياته ، واجتذبه المسرح منذ حداثته ، فكان يشترك في التمثيل بالمسرح المدرسي ، أما الذي كان يقوم بتدريب الفريق على التمثيل .. فهو الفنان الكبير «زكي طليمات» ، وقام عبد الرحمن الشرقاوي بتمثيل دور «قيس» في مسرحية «مجنون ليلى» ودور «أنطونيو» في «مصرع كليوباترا» .

حملات مضادة

تعرض عبد الرحمن الشرقاوي لحملات كثيرة . وحاول البعض تشويه مواقفه واتهامه بمهادنة الحكام وأحيانًا بالاعتدال الشديد في أمور تستدعي التشدد .. وانتهاج سياسة وسطية في قضايا تتطلب الحسم القاطع .

ولم تكن هذه الاتهامات صحيحة .

فلم يكن بين المبدعين أو الطلاب أو خريجي الجامعة الجدد من اتخذ مواقف ثورية ضد حكومات الأقلية في العهد الملكي مثل الشرقاوي ، وتشهد بذلك روائعه ومئات الصفحات من القصص والروايات والقصائد التي ينصح فيها الحكومات المعادية للشعب مثل حكومة إسماعيل صدقي وبقية حكومات كبار الملاك ورجال المال والأعمال .

وهنا ينبغي تسجيل ملاحظة جديرة بالتأمل . لقد كنت خلال فترة الخمسينيات وما بعدها حتى فترة الثمانينات ألتقي بالعديد من الشخصيات الثورية والتقدمية والاشتراكية والشيوعية ، ولكني لم أجد من هو أشد التزامًا بالعدل الاجتماعي ومن هو أكثر تعلقًا بأمنيات الفقراء والمهمشين من عبد الرحمن الشرقاوي .

ومهما كان موضوع الحديث ، أجد عبد الرحمن يتطرق إلى قضايا الحياة والناس والمجتمع ومشكلات المحرومين لكي ينتقل إلى متطلبات التنوير والاستنارة وتحرير العقول ، لم يكن يغفل عن آلام الناس وأحلامهم حتى إنني شعرت بأنه لا توجد قضية أخرى تشغله أو تشد انتباهه .

كان حسه الطبقي مرهفًا ، ولا يستطيع أن يفصل بين أي متحدث أو كاتب وبين وضعه الطبقي وموقعه في السلم الاجتماعي .

في فبراير ١٩٥٧ ، كان يقول :

«لم أشاهد مسرح الريحاني منذ وفاة الريحاني ، لأني لم أجد الشجاعة لدخول مسرحه بعد خلوه من شخصيته ، ولم أشاهد فرقة إسماعيل ياسين ، ليس احتقارًا لفنه : بل لأنني لا أستطيع دفع ثمن التذكرة ، ويظهر أنه أنشأ مسرحه لناس من غير طبقتنا.. » .

كان الشرقاوي يريد أن يصل الجميع إلى حد الكفاية .

مع «الفجر الجديد»

في ١٦ مايو عام ١٩٤٥ ، افتتح عبد الرحمن الشرقاوي صفحات العدد الأول من أول مجلة يسارية في الشرق الأوسط بقصيدة عنوانها «الفجر الجديد» ـ وهو اسم المجلة التي كان يرأس تحريرها «أحمد رشدي صالح» وسكرتير تحريرها أبو سيف يوسف ـ ليقول :

أيها الضارب في الليل

هنا الفجر الجديد

أيها الحائر في اليم

هنا البر السعيد

يا ثكالى الأمس

كفكفن.. فإن اليوم عيد

يا عذارى

ضجت النشوة في قلب الوجود

قمن فاسكبن على الدنيا

جمالاً وبهاء

زالت الغمة فأملان

دجى العيش ضياء.

***

تفاؤل مبكر

ومثل سائر البشرية كان الشرقاوي متفائلاً عقب هزيمة الفاشية الإيطالية والديكتاتورية النازية والعسكرية اليابانية .. وافترض، مثل غيره من القوى الديمقراطية في العالم، أن عصر الشعوب قد بدأ وأنه حان وقت انتصار الإنسانية على التخلف والفقر والانحطاط الاجتماعي .

يقول في نفس القصيدة :

أيها الفلاح: هل تعلم

قد زال البلاء

يا أخي أعلنت الهدنة

فاجمع في المساء

فتية القرية والشادي

ولا تنس النساء..

ليس بعد اليوم

حرمان وجوع وألم

فالغد الضاحك يا فلاح

موفور النعم

أيها الصانع لن تعرف

بعد اليوم شدة

أنت منذ اليوم لن تصنع

غير المجد وحده

وفي أول يوليو ١٩٤٥ يكتب الشرقاوي قصيدة يحتفي فيها بثورة الشام، ويقول :

نحن جيل جل بالحرية الحمراء شأنًا

ليس بعد اليوم عبدان وسادات.. فإنا

قد أردناها مساواة.. وماثئنا فعلنا

وبلونا العيش أهوالاً وحرمانًا وحزنًا

ألنحيا فوق الأرض ـ قطعانًا ـ خلقنا؟

عجبًا إذ يجعل الطاغي قضاء الله سجنًا!

ليس بعد اليوم صمت .. فكفانا ما صمتنا

سندك الظلم والطغيان في حيث مضينا

وسيحكي الدهر للأجيال يومًا كيف كنا

ويقول الطير والأنهار والريح.. انطلقنا

وفي ١٦ يوليو ١٩٤٥، يكتب عن محنة الفلاح والعامل، وحقوقهم المهدورة في قصيدة بعنوان «جهاد وأحلام وحب ومطمح يقول :

ما أنت إنسان .. وفي الأرض حزة/ وفي الأرض أوحال .. وفيها مذابح .

أي حصاد؟

ومع وصول شهر نوفمبر من نفس العام، تأكد لدى الشرقاوي أن القوى الرجعية المعادية للحرية والتقدم تشدد قبضتها على البلاد .. فكتب قصيدة تحت

عنوان «أي حصاد» بمناسبة عيد الجهاد الوطني :

لنيل ماذا تم في استقلاله

والشعب كيف بليلة استغلاله

ما خطب فلاحيه .. أو عماله؟

ما بالهم في قبضة الجلاد

يا شعب مالك قد وقفت وحيدًا

لهفان تبكي حلمك المفقودا

ألقتك عن ثمر الجهاد بعيدًا

فئة تزخرف من دموعك عيدًا

سرقت دمًا لك طاهرًا

وجهودًا وإذا حنت ـ كرما ـ فذر رماد

وصراخ نشوان.. وأنة شاد

فكأنها أنشوطة الصياد

كم أنفلتك ـ على الحديد ـ حديدا

هي تبذل الدنيا مني ووعود

ووراءهن سموم الاستعباد

فليفعل الطاغي بنا ما شاء

سنريدها حرية حمراء

عيد الجهاد.. لأنت فجر جهاد

وفي عدد ٢٠ مارس عام ١٩٤٦ «العدد السادس والعشرون» من مجلة «الفجر

الجديد» .. كانت المعركة قد احتدمت بين القوى الوطنية والمستعمرين الإنجليز وأذنابهم.. فكتب الشرقاوي قصيدة بعنوان «ثار العبيد» يخاطب بها الاستعمار :

أأردتها[1] مجنونة عشواء

فتلقها مشبوبة شعواء

ثار العبيد فسر على أشلائهم

فلكم ملأت بلادهم أشلاء

ولا يفوت الشرقاوي أن يمسك بتلابيب أعوان الاستعمار ، فيقول :

شبعوا بما منح الغصوب فأترفوا

رهلا، لذا أسماهم عظماء

وصموا نضال الكادحين بأنه

«شغب» وسموا ركبهم دهماء

كان الشرقاوي قد بدأ شاعرًا، مثل العقاد وطه حسين والمازني ، ثم أخذ يكتب أنواعًا أدبية متعددة كهؤلاء السابقين أيضًا : القصيدة والقصة القصيرة والرواية والمسرحية، والمقالة ، وعندما دخل معارك حامية مع الأساتذة الذين سبقوه، مثل طه حسين والعقاد .. كانت مثل اجتماعية تدفعه إلى ذلك .

الثقافة ليست امتيازًا

أثناء حياته الطلابية ، عاصر الشرقاوي فترة اشتعال الحركة الوطنية عام ١٩٣٥ عقب انقلاب إسماعيل صدقي ضد دستور ٢٣ واتساع نطاق المعركة من أجل عودة الدستور ، وتشكيل الجبهة الوطنية من زعماء الأحزاب السياسية .

(1) يخاطب الاستعمار .

وفي الجامعة كان عنصرًا نشطًا في اتحاد الطلبة ، وعقب التخرج، شارك في «لجنة نشر الثقافة الحديثة» التي تشكلت في عام ١٩٤٣ العام الذي تخرج فيه .. في كلية الحقوق والتي كانت تعبيرًا عن التعاون المشترك بين كل أجنحة اليسار .

وعمل محررًا في صحف «المصري» ، و«المصور» ، و«الجمهورية» .. واشترك مع الكاتب والفنان حسن فؤاد في إصدار مجلة «الغد» التي ظهر عددها الأول في مايو ١٩٥٣ .

وإذا كان قد نشر رواية «الأرض» في حلقات بصحيفة المصري ، فإنه افتتح مع مجلة «الغد» معركة الدفاع عن الثقافة منذ عددها الأول .

كتب يقول : «يجب علينا أن نؤكد على الدوام أن الثقافة ليست امتيازًا لأفراد ممتازين في المجتمع ، وإنما هي تراث المجتمع الإنساني وتراث العمل الإنساني منذ بدأ الإنسان يعمل أي منذ بدأ يوجد . الثقافة هي تراث العمل الجماعي من أجل السعادة والحرية والسلام ، تؤكد للإنسان كل ما هو إنساني وجليل في الإنسان .

فأعداء الإنسان يريدون أن يجردوا الثقافة من روحها .. يريدون أن يلغوا منها كل انعكاسات نضال البشر للسيطرة على المصير ، وسبيلهم إلى هذا أن يحاربوا الثقافة عن طريق القوة، فإذا فشلوا شوهوها عن طريق المشعوذين والمجاذيب وحملة الجلاجل.. » .

أقوى من الخديعة

الشرقاوي ابن الريف، فهو من قرية الدلاتون من المنوفية، وتشكل وعيه في القرية المصرية ووسط الفلاحين ، وعاش قضايا الصراع على الأرض.. ولذلك فإن للفلاح دورًا رئيسيًا في إبداعات الشرقاوي .

في الفصل العاشر من رواية «الفلاح» للشرقاوي ، نقرأ هذه السطور :

«وكنت أعتقد أن الحق جليل، وأن الصدق باتر وأن الشرف سلطان، وأن الفضيلة قلعة لا تُقتحَمْ وأن الخير نافذ الكلمة ، ولو مشى في ثياب رثة» .

«وكم من دماء سالت عبر التاريخ ، لأن الفاضلين تصوروا لبعض الوقت أن فضيلتهم وحدها يمكن أن تحميهم ، أو لأنهم اعتقدوا ـ بما أن الحق معهم ـ أنهم أقوى من الخديعة» .

وفي كتابه «الروائي والأرض» يشرح الدكتور عبد المحسن طه بدر مكان الفلاح في أدب الشرقاوي ، فيقول :

«سر مأساة الفلاح عند الشرقاوي يرجع إلى الطبقة الجديدة التي تعيش في القرية مدعومة بأقربائها في المدينة ، والتي استطاعت أن تتسلل إلى أجهزة الدولة وجهازها السياسي لتكون جهازًا سريًا مترابطًا يحتمي بسلطان الدولة وقانونها ليجعل حياة الفلاح جحيمًا ويضعه في وضعية أبأس من وضعيته قبل ٢٣ يوليو..» .

وحاول الشرقاوي في «الفلاح» أن يكشف عن تناقضات مرحلة ما سمي بالتحول الاشتراكي في القرية المصرية . فقد حلت محل كبار الملاك القدامى عناصر ليس لها لون سياسي انحازت للعائلات القديمة وتحالفت معها، وبدأت عملية استغلال آخر وقمع عانى منها الفلاحون أسوأ من ذي قبل .

كاتب ملتزم

إنه الالتزام بالقضايا نفسها التي اعتبرها الشرقاوي محور حياته .

يقول عبد الرحمن الشرقاوي : «واندفعت إلى كل مكان تجلله دماء الثوار الأوائل ، وخالطت الليل الذي يضيء بالشعب ، وناديت بالتحرير للمستعمرات ، وبالحرية للإنسان الإفريقي ، ولعنة الحرب القذرة في فيتنام والهند الصينية» .

إنه ثائر ومتمرد في الشعر والقصة والرواية والمسرحية .

والشرقاوي ، الذي اتهمه البعض بأنه يميل إلى المهادنة.. كان على عكس ذلك.. فقد اتخذ مواقف شجاعة في وقت لم يكن الكثيرون يملكون فيه القدرة على اتخاذ أي موقف نقدي .

كان ذلك قبل هزيمة ١٩٦٧، وفي وقت تتخذ فيه كل القوى السياسية «التقدمية واليسارية» موقف التأييد المطلق لجمال عبد الناصر ، الذي كان في قمة مجده وزهوه وعظمته ، بل كان المناخ السائد هو النفاق وحرق البخور حتى لدى من يتظاهرون بتأييده . وعرضت مسرحية «الفتى مهران» للشرقاوي في عام ١٩٦٦، وظلت المسرحية على خشبة المسرح القومي دون مقعد خال حتى آخر يوم في عرضها.

وانطلق صوت مدو من فوق المسرح ، إنه الفتى مهران يقول :

«قل له يا أيها السلطان اترك عزلتك » .

«اختلط بالشعب يصبح قلعتك» .

شجاعة كاتب

في هذه المسرحية الشجاعة ، يجنح الكاتب إلى التجريد، رغم الديكور المملوكي ، ويبعث إلى الحياة إحدى حلقات المقاومة الفلاحية ويضع كلتا يديه على جراح هذا الشعب الغائرة في وجدانه : عزلة الأمير عن الشعب أو عزلة القادة عن الجماهير ، وفساد اختيارات الحاكم للمسؤولين عن أمن هذا الشعب وعافيته بينما العدو على الحدود.. وتحذر المسرحية من محاولات التلاقي والتهاون مع بعض القوى الاجتماعية المتخلفة، كما تحذر في نفس الوقت من المساومة مع قوى العدوان الخارجي .

خلق الشرقاوي بطلاً ملحميًا وتراجيديا في نفس الوقت ، وجعل منه شاعرًا . وهذا البطل من أصل فلاحي ومتصل الجذور بالأرض وعميق الارتباط بأحزان المثقف الوطني في عصرنا . هنا نجد البعد الإنساني والقومي والشخصي في شخصية

درامية حية .

لقد تكلم الشرقاوي في وقت كان الجميع يؤيدون أو يلزمون الصمت ، وكان المسرح يشهد كل ليلة أثناء العرض ما يشبه المظاهرة .

كانت تلك أسعد أيام الشرقاوي .

الشرقاوي يؤمن بوظيفة الفن في الحياة . والبحث عن الحقيقة هو الذي يقود خطوات الإبداع لدى هذا الكاتب .

هجوم على المسرحية

مسرحية الفتى مهران تشيد بتقاليد الفتوة العربية .

إنه يخاطب الحاكم بأن أعوانه كذبوا عليه، وأن المنافقين تسللوا - ومعهم أجهزة الأمن - لإقامة حاجز أو سياج بينه وبين الشعب . وفي المسرحية إشارة إلى خطيئة حل منظمات الفتوة والذوبان في عسكر السلطان «مما فهم منه أن الشرقاوي يندد بحل الشيوعيين لحزبهم وذوبانهم في الاتحاد الاشتراكي ». وكتب المفكر والناقد اليساري محمود أمين العالم ، معلقًا على مسرحية الفتي مهران ، قائلاً : «إنها توحي ببعض الإيماءات التي تبذر بذور التشكك والريبة في أن اللقاء الثوري يتم في بلادنا بين مختلف القوى الاجتماعية المؤمنة بالتقدم والاشتراكية!» .

ولم يكد يمضي عام واحد حتى كانت الهزيمة التي تدعم بوقائعها ومآسيها كل ما قاله الشرقاوي .

تلك هي شجاعة الكاتب صاحب الرأي والموقف الذي لا يخون أفكاره .

الكاتب في السجن

موقف آخر للشرقاوي :

في أوائل عام ١٩٥٥ ، كتب أنور السادات سلسلة مقالات حول «الخطر الأحمر

القادم من الشرق» .. وبعدها كتب الشرقاوي يطالب بإيجاد توازن في علاقاتنا الخارجية وتطوير هذه العلاقات مع الاتحاد السوفييتي والدول الاشتراكية .

وألقى القبض على الشرقاوي وألقي به في السجن الحربي ثم أفرج عنه .

وألقي القبض عليه مرة أخرى ، لأنه كتب مقالاً يهاجم فيه جنود البوليس الحربي ، ثم أصدر مجلس قيادة الثورة قرارًا بالإفراج عنه .

موقف من باندونج

وهذا الكاتب الشجاع والمتمرد كان يلعب أحيانًا دور القائد السياسي ، فالمعروف أن مقالاته وكتابه عن باندونج في عام ١٩٥٥ هو الذي قاد عملية التحول في صفوف اليسار المصري لتأييد عبد الناصر وقرارات ذلك المؤتمر التاريخي .

وقد شن الشرقاوي هجومًا على هؤلاء الذين لا يدركون أهمية ما حدث في باندونج وقال: إن «البيرة أفسدت عقولهم!» .

والكاتب المناضل يختلف عن غيره في نقطة جوهرية: أنه عندما يؤيد سياسة ما .. إنما يؤيدها عن اقتناع ويحتفظ لنفسه ـ في ذات الوقت ـ بحقه في الاختلاف ، فهو ليس من «صبيان» الحاكم ، ولكنه صاحب رأي .

الانتفاضة الشعبية

وثمة موقف مهم آخر للشرقاوي .. قبل طبع عدد «روزاليوسف» عن الانتفاضة الشعبية في ١٨ و ١٩ يناير عام ١٩٧٧ الذي يتهم فيه الحكومة بأنها أشعلت الحريق، ويشير إلى أن السادات أطفأه عندما ألغي قرارات رفع أسعار المواد الأساسية ، اتصل «مسؤول كبير» بعبد الرحمن الشرقاوي رئيس مجلس إدارة مؤسسة «روزاليوسف» في مكتبه .

ويقول فتحي غانم : «إنه بعد حديث دام بضع دقائق، أغلق الشرقاوي سماعة التليفون ، وقال لصلاح حافظ ولي : إن الرئيس يطلب تهدئة الموقف وألا نتحدث عن انتفاضة شعبية ، وكان السادات يعد في ذلك الوقت لإدانة الأحداث ودمغها بأنها «انتفاضة حرامية» بينما تستعد أجهزة الشرطة للقبض على بعض كبار المحررين في «روزاليوسف» . ولم يستغرق النقاش بيننا أكثر من نصف دقيقة لنقرر أننا لا نستطيع أن نغير موقفنا . وطلبت من الشرقاوي أن يضيف اسمي للمشتركين في كتابة التحقيق حول الأحداث تأكيدًا لمسؤوليتي عما ننشره كرئيس للتحرير ، إلى جانب صلاح حافظ ، ووافقني الشرقاوي على ما قلت ، ولم يمض وقت طويل حتى كان السادات يستدعي الشرقاوي وينهي الوضع القائم في «روزاليوسف» .

متاعب مع السادات

يقول عبد الرحمن الشرقاوي للكاتب الصحفي مصطفى عبد الغني : «حين توليت «روزاليوسف» كان السادات يضيق ببعض الكتاب ، لكنني كنت أناقشه وأقنعه بأن يستمر الكتاب فيما يكتبون ، وأحيانًا كان يصمم على منع البعض من الكتابة ، فأتمسك بحقهم في الكتابة على مسؤوليتي الخاصة ، وكانت كل خلافاتي معه في تلك الفترة حول كتابات بعض من يريد منعهم من الكتابة ، وكان ينتهي الخلاف كل مرة إلى كفالة حق هؤلاء في الكتابة والتعبير .

ويضيف الشرقاوي حول ظروف خروجه من «روزاليوسف» : «كان السادات قد ضاق صدره جدًا ببعض المقالات التي كانت تناوئه في الحكم أو تهاجمه ، وخاصة من كتاب روز اليوسف .

وقد وصل هذا الضيق إلى أقصاه بموقف روزاليوسف من أحداث يناير ١٩٧٧ . والواقع أن ما كتبته : أنا، وما كتبه كتاب المجلة حول أحداث ١٩٧٧ ضيق الخناق

على الحكومة وحملها مسؤولية ما حدث . وقد ركزنا على اتهام الحكومة بالتقصير ، وبأن ما تقوله هو مجرد اتهامات باطلة . «والدليل على براءة الشيوعيين أن الحكومة راحت تقبض ، بعد ذلك ، على بعض محرري روزاليوسف وبعض أصدقاء المجلة وتتهمهم بأنهم أشعلوا نيران الأحداث «المطالبة بالطعام» في وقت كانوا فيه جميعًا في غرفتي! وأدت حملتنا العنيفة على الحكومة ، التي تسببت في انفجار الموقف برفعها للأسعار ، إلى غضب شديد من جانب السادات ، الذي قرر إحداث تغيير كامل في روزاليوسف في ذلك الوقت» .

ويضيف الشرقاوي :

« في اللقاءات التي تمت ، وردود الأفعال التي واجهتها ، قلت : أنا وحدي المسؤول عن كل ما كتبته روزاليوسف ولا داعي لإقصاء المسئولين عن التحرير، ويجب المحافظة على هيئة تحرير المجلة بعد أن أصبحت وجهًا مشرقًا لمصر في العالم العربي ، وأنه إذا كان الرئيس السادات يرى أنني أخطأت ، فإنني سوف أستقيل على أن تبقى المؤسسة كما هي بكل قياداتها » .

ورشح عبد الرحمن الشرقاوي حسن فؤاد وصلاح حافظ ولويس جريس لرئاسة مجلس الإدارة ، على ألا يخرج الاختيار عن أحد هؤلاء الثلاثة ، ووافق السادات ثم فوجئ الشرقاوي بأنه لم يتم تعيين أي واحد من هؤلاء الثلاثة!

في ١٥ مايو :

هذه هي مواقف الشرقاوي المبدئية ، والتي لا نجد فيها ميلاً للمهادنة في حالة الصدام المباشر مع ضمير الكاتب الحر .

ولا يمكن توجيه اللوم إلى عبد الرحمن الشرقاوي ، لأنه انحاز منذ اللحظة الأولى إلى السادات عندما وقعت أحداث ١٥ مايو عام ١٩٧١ ، وتم عزل من أطلق

عليهم مراكز القوى، فقد عانى الشرقاوي كثيرًا في عهد عبد الناصر إلى الحد الذي أقنعه بأن الإطاحة بقيادات الاتحاد الاشتراكي يمكن أن تفتح الطريق إلى أوضاع تقترب من الديمقراطية .

لقد تم فصله من صحيفة «الجمهورية» في عهد عبد الناصر مع أحمد عباس صالح وعبد الرحمن الخميسي وسعد الدين وهبة وسعد مكاوي وكتاب كبار آخرين، ونقل إلى مؤسسة السينما بلا عمل، كما عانى من الألم بسبب فصل واعتقال وتعذيب شقيقه الأستاذ الدكتور عبد المنعم الشرقاوي لمدة ثمانية عشر شهرًا قضى منها ثمانية شهور في مبنى المخابرات العامة ، وتضاعف ألم عبد الرحمن الشرقاوي عندما فرضت الحراسة على مكتب شقيقه للمحاماة ، ولم تكن قد فرضت الحراسة إلا على مكتبيَّ محاماة فقط أحدهما مكتب يهودي والثاني إنجليزي !

ويقول عبد المنعم الشرقاوي: «عبد الرحمن عانى كثيرًا من اتهامات أعدائه ، لقد منعوه من الكتابة سنوات طوال ، واعتقلوه مرات عديدة ، وكانت حياته رحلة طويلة من الدفاع عن الموقف والكلمة الحرة والزود عن الحق..» .

ومن الوقائع التي تعرض لها الشرقاوي ما يرويه هو نفسه : «وجد زوار الفجر كتابًا مجلدًا بجلدة حمراء، فصادروه دون أن يفتحوه، ولما كنت حاضرًا، تبرعت بأن شرحت لهم أن هذا الكتاب لا يعدو أن يكون ديوانًا للشاعر المتنبي وأني اشتريته بغلافه الأحمر ، كان ذلك الغلاف قرينة على أنني من ذوي الاتجاه الأحمر!!» .

لا .. للمهادنة

بعد إبعاده عن رئاسة مجلس إدارة روزاليوسف ، تقرر تعيينه كاتبًا في «الأهرام» ورغم أن رئيس تحرير الأهرام أكد له أن السادات اتصل به وطالب بتوفير الضمانات الكافية لكفالة حريته في التعبير ، إلا أن مقالاته حول نقد استغلال الدين

وشعار العلم والإيمان والتحذير من هيمنة التطرف الديني .. مُنِعت من النشر! كما تم منع مقال له يطالب فيه بعدم توقيع معاهدة سلام مع رئيس الوزراء الإسرائيلي مناحم بيجن، لأن الطبقة الحاكمة في إسرائيل لا تريد السلام ولا تحترمه .

خناجر مسمومة

يقول موسى صبري في كتابه عن السادات إن الشيخ عبد الحليم محمود كان يحمل حساسية خاصة من البابا شنودة ، وقد حدث أن هاجم عبد الوارث الدسوقي ، المشرف على الصفحة الدينية في «الأخبار» كتابًا لابن الشيخ عبد الحليم محمود، وهو أستاذ في الأزهر ، وغضب شيخ الأزهر ، وتصور أن موسى صبري وراء الحملة ، وأن البابا شنودة هو الذي دفعه إلى ذلك «رغم أن العلاقة كانت مقطوعة تمامًا في ذلك الوقت بين موسى والبابا ، لأن الأخير فقد ثقته في شخص موسى واعتبره مجرد مدافع فقط عن كل ما يصدر عن الرئيس السادات» .

وطلب موسى صبري من عبد الوارث الدسوقي وقف هذه الحملة وكان عبد الوارث مصرًا على استمرارها على أساس أنه لا كهنوت في الإسلام وأن شيخ الأزهر شخص عادي يمكن نقده . في ذلك الوقت ، نشط بعض حملة التوكيلات والأقلام - على حد تعبير عبد الوارث الدسوقي - لمهاجمة عبد الرحمن الشرقاوي ، وأخذوا يكيدون له جهارًا .

ويقول عبد الوارث الدسوقي : «راح هؤلاء يطرقون كل باب وبأيديهم خناجرهم المسمومة، وفي قلوبهم ضغن وغل » .

راحوا لشيخ الأزهر عبد الحليم محمود ليوغروا صدره ضد الشرقاوي ، قائلين له : «يا مولانا ، لم نكن نعلم أن الإمام الحسين شيوعي» ، في إشارة إلى مسرحية الحسين ثائرًا والحسين شهيدًا.

فيقول لهم شيخ الأزهر : وكيف كان ذلك؟

فيقولون : وعلى شفاههم ابتسامات رقطاء وشوهاء ، أن عبد الرحمن الشرقاوي يقول ذلك في مسرحيته عن الحسين!!

ويصمت شيخ الأزهر ، وتتكلم ألسنة الفتنة في كل ناد وتتسابق الأقلام تسود الصفحات بمدادها الحقود المصنع محليًا والمستورد من الخارج .

ويقول عبد الوارث الدسوقي : إن عبد الرحمن الشرقاوي يترك الفتنة تعربد حتى تسقط ، ويستمر على الطريق الذي بدأه بـ«محمد رسول الحرية» ، وختمه بـ«الصديق أول الخلفاء» ، لا يعبأ بمن يكيدون ، ويأسى ويتألم لمن وقعوا في الكمين.

الثروة في الإسلام :

ويقدم عبد الوارث الدسوقي التفسير الصحيح للحملة على الشرقاوي : «عندما أثار عبد الرحمن الشرقاوي قضية الثروة في الإسلام ، وساق بصددها الأسانيد المعتبرة والأدلة المعتمدة من أئمة الإسلام الذين يرون رد فضول الأغنياء على الفقراء ، هبت عليه الرياح الصرصر العاتية تتهمه بالشيوعية .

وكان أحد المهاجمين للشرقاوي قاضيًا .

ووجه الشرقاوي إليه الحديث قائلاً : «إن هذا الاتهام بالشيوعية أصبح باليًا . ولا يجمل بك - وأنت قاض - أن توجهه بلا دليل . وأنا أرجوكم جميعًا أن تعودوا إلى تراثنا الخصيب . ارجعوا إليه لتجدوا عمر بن الخطاب، وقد صنع قاعدة للعطاء : «لكل وسابقته» .. «لكل وبلاؤه» .. «لكل وحاجته» .. إنه أول من وضع قاعدة «كل وحاجته» ، وعلى بن أبي طالب ، يقول : «ما أغتنى إلا بفقر فقير» .

«أهما - عمر وعلي - شيوعيان .. إذن؟» .

ويمضي كاتبنا ليقول لمهاجميه ناصحًا :

«فتعلموا قبل أن تتهموا فتأثموا . وكفى اتهامات بالباطل . وعودوا إلى الإسلام الحق تجدوه أكثر تقدمًا من كل الفلسفات البشرية .. أم أنكم ستسلبون الإسلام محاسنه لتضيفوها إلى الشيوعية؟» .

ألغام وأعاصير

كان طريق الشرقاوي مزروعا بالألغام محفوفا بالأعاصير .

فهناك من لا يريدون أن يكتب أحد غيرهم عن الإسلام وشعر بعضهم بأن كتابات الشرقاوي الإسلامية هي الرائجة التي يقبل عليها الناس بينما لا يقبلون على مؤلفاتهم .

وكانت بروفات مسرحية « الحسين ثائرًا وشهيدًا » قد بدأت بالفعل ، وانتظر الجميع عرض « درة المسرح المصري » وكان عبد الله غيث هو الذي سيقوم بدور البطولة بعد أن أبدع في دور « الفتى مهران » .

وكان المخرج الراحل كرم مطاوع يجري التعديلات التي يطلبها مندوبو الأزهر خلال مفاوضات على مدى شهور .

وتمت طمأنة الأزهر بأن من سيقوم بدور الحسين سيقول على لسانه : يقول الحسين ، وليس بضمير المتكلم .

وفي النهاية لم تعرض المسرحية ، وألغى العرض قبل الافتتاح بيومين !

وعرض أحد منتجي القطاع الخاص على الشرقاوي شراء مسرحية « الحسين » لتقديمها في أول تجربة من نوعها على مسرح القطاع الخاص ، ولكنه رفض رغم الإغراءات المادية الكبيرة ، وأصر على أن يقدمها مسرح الدولة « المسرح القومي » .

وكان الأمل الوحيد الذي كان الشرقاوي يرجو ويتمنى تحقيقه ، قبل رحيله ، هو رؤية مسرحية « الحسين » على خشبة مسرح الدولة .

ولكن هذا الرجل المتدين ، الذي كان يذهب إلى حي الحسين ليشتري « مداسا » لكل ابن من أبنائه ، قوبل بحرب ضارية ضده لأنه تجرأ على الكتابة في التاريخ الإسلامي .

المزيد من الحرية

وهذا الكاتب الوطني قوبل بحملة عنيفة بسبب دعوته إلى قيام جبهة وطنية تقفز فوق الخلافات السياسية والحزبية لتضع مصر على الطريق الصحيح لحل مشكلاتها والخلاص من أزماتها ..

ومع ذلك كان يمضي في طريقه مدافعا عن الحرية .

كتب قبل رحيله بأسابيع يقول : « وبعد فلا حماية للحرية إلا بمزيد من الحرية . وإذن فلنطلق إنشاء الأحزاب لنسد الفراغ السياسي المخيف الذي يستغله أعداء الإسلام وأعداء الوطن . ويجب أن تجد القوى الاجتماعية كلها تعبيرها في أحزاب جديدة وصحف جديدة ، ويجب أن تلغى القوانين الاستثنائية .. فماذا أفاد قانون الطوارئ .. ؟ » .

■ ■ ■

* من القلة التي كان لابد أن تترك وراءها أشياء لها أثرها ولها قيمتها .



موسى صبري
من لا يعرف بصماته ؟

هل يمكن تصور مبنى

هل يمكن تصور مبنى مؤسسة «أخبار اليوم» .. بدون «موسى صبري؟» . هل يمكن افتراض أنه لا يجلس الآن إلى مكتبه في الصباح والمساء .. يكتب ويقرأ ويراجع بروفات الصفحات ويضع العناوين الجذابة بدلاً من العناوين العادية أو الروتينية . وخلال ذلك كله يستقبل المحررين والأصدقاء..؟

سنوات طويلة جعلت موسى صبري جزءًا لا ينفصم عن العمل اليومي لصحف أخبار اليوم و«خبطاتها» وتفوقها وفتوحاتها وإبداعات محرريها .

ذكريات العمل معه تتزاحم وتتدفق ، وتترك انطباعًا جميلاً في النفس .

كنت أدخل مكتبه كل يوم ، وأشعر بلذة العمل معه .

جدران المكتب تبعث في القلب درجة عالية من الدفء الإنساني . هناك صورة الزوجة والأولاد ، وصورة لأخلص الأصدقاء : «مدحت عاصم» الموسيقار الشهير .

موسى صبري من القلة التي كان لابد أن تترك وراءها أشياء لها أثرها ولها قيمتها .

وقد عاش زمنًا مليئًا بالمواجهات بين الصحفيين والسلطة ، وعاصر أكثر الأحداث صخبًا وخطورة خلال النصف الثاني من القرن العشرين .

كنت أجلس إلى جانبه أثناء القيام بواجب العزاء في زوجته «أنجيل» في أواخر الستينيات عندما مال ناحيتي ، ليقول بصوت هامس: «إنني أعرف أفكارك ، ولكن تقديري أن أصلح نظام سياسي هو الذي يقوم على تعدد الأحزاب ، ولا قيمة ولا معنى لأي شيء في هذا البلد .. بدون ديمقراطية وأحزاب سياسية » .

وقد واجه موسى صبري مهمة صعبة وشاقة لأن السلطة ـ في كل العهود ـ لم تكن تسمح للصحفيين بالمشاركة بالرأي الحر .

وكان يعرف تمامًا أن من يحبهم من الصحفيين المثقفين يحرصون على استقلالهم الفكري وعلى حقهم في توجيه الانتقادات للسياسات الرسمية ، ولذلك كان موسى صبري يشقى بعذاب التصدي للموجات الكاسحة التي تريد اقتلاع الصحفيين من عملهم وإلقائهم إلى مخازن محلات بيع اللحوم والأسماك والأخشاب !

وجاء وقت أصبح فيه ـ هو نفسه ـ الضحية بعد نشر سلسلة من التحقيقات حول محاكمة قادة سلاح الطيران عقب هزيمة يونيو ١٩٦٧ وختمها بعبارة «وما خفي كان أعظم » .

ونقل موسى صبري على أثر ذلك ليكون «محررًا» بجريدة الجمهورية .

ولكنه لا يسترخي .. ولا يهدأ ، فقد عمل بكل طاقته هناك وسمعت من محرري الجمهورية ، في ذلك الوقت ، أن موسى صبري يوقظهم من النوم في وقت مبكر من صباح كل يوم ليتوجهوا إلى عملهم بعد أن يكون ـ هو نفسه ـ قد سبقهم إلى الجريدة .

وهنا نلاحظ لدى موسى صبري جانبًا مهمًا في شخصيته .. وهو العمل بأقصى طاقته حتى وهو «مغضوب عليه» ، كما لو كان يتحدى هؤلاء الذين يقللون من قدره أو يريدون تقزيمه أو تهميشه .

وكانت دورات إبعاد وطرد الصحفيين متكررة وموسمية .

إنه يقدر الجهد والمثابرة والكفاءة والتفاني في العمل ..

عندما عدت من رحلة صحفية إلى فيتنام أثناء الحرب هناك ، وقرأ رئيس تحرير إحدى مطبوعات المؤسسة حديثًا أجريته مع القائد الفيتنامي الجنرال «جياب» بطل معركة «ديان بيان فو» ، الذي هزم فرنسا في حرب الهند الصينية كما هزم بعد ذلك الجيش الأمريكي المحارب على الأرض الفيتنامية ، قال لي : «إن حديثك مع الجنرال جياب لم يعجبني» . ورفض نشر الحديث .

أما موسى صبري ، فقد لمحني أثناء خروجه من مبنى المؤسسة ودخولي إليها .. فبادرني بالقول : «هل أعددت مقالاتك عن الرحلة .. أريد منك خمس موضوعات فورًا عن رحلتك إلى فيتنام لكي تسلمها لي غدًا» .

وأفرد صفحة كاملة للحوار الذي أجريته مع الجنرال جياب مع إشارة كبيرة لهذا الحوار في الصفحة الأولى .

وكان يحدث - في مرات نادرة - خلاف أو سوء تفاهم بيني وبين موسى صبري لأسباب سياسية أو لأسباب تتعلق بالعمل .. فأقرر ما يشبه الإضراب عن العمل . وذات يوم جاءنا خبر اغتيال الزعيمة الهندية أنديرا غاندي . وكان لابد أن يعلن القسم الخارجي في «الأخبار» ، الذي أتولى رئاسته ، التعبئة لكل محرري القسم لتغطية هذا الحدث الكبير . اتصل بي موسى صبري من مكتبه ليسألني ، وهو على يقين من أن الخبر أعادني بقوة إلى زخم العمل :

- كم صفحة تريد لكي تغطي الحدث ؟

وقلت له بما يشبه التحدي أو التعجيز :

- أربع صفحات كاملة .

وفوجئت بموافقته .

وفي اليوم التالي ، كانت الأخبار متفوقة على جميع الصحف في تغطية مأساة اغتيال أنديرا غاندي .

والتقيت بموسى صبري على سلم مبنى المؤسسة ، قال : إن موضوع أنديرا غاندي اليوم رائع . هل تعرف السبب ؟

ولم أجب .

وتولى هو الإجابة قائلاً :

لأنك اشتغلت .

كان موسى صبري حريصًا على مشاعر من يعملون معه .

وعندما تولى جلال الدين الحمامصي ، نائب رئيس مجلس الإدارة ، وضع قائمة بالعلاوات الجديدة للمحررين .. أرسل ، بطريقته المعتادة ، في مراعاة الدقة والقواعد الإدارية ، خطابًا مطبوعًا إلى كل محرر يبلغه فيه بقيمة العلاوة الممنوحة له ثم وجه في نفس الخطاب سؤالاً يطلب الإجابة عليه حول رأي المحرر في هذه العلاوة التي حصل عليها .

وفي تلك المساحة المخصصة لرأى المحرر كتبت رأيي . قلت: أن نائب رئيس مجلس الإدارة طبق قاعدة أن من معه يُعطي له ويُزاد ، أي كلما زاد مرتب المحرر حصل على علاوة أكبر ، وكلما قل مرتبه حصل على علاوة أقل ، الأمر الذي يوسع

الفارق في المرتبات داخل المؤسسة ، وسخرت من الدعاوي التي كانت تتردد حول «الاشتراكية» في ذلك الوقت ، وأعلنت رفضي للعلاوة - وكانت جنيهان ونصف - وتبرعي بها للسعاة العاملين في المؤسسة ، وقلت: أنه يكفي أنني أعرف قيمة عملي وجهدي حتى لو لم يلق التقدير الواجب من مسئولي المؤسسة .

وفي اليوم التالي ، قال لي موسى صبري :

- ما هذا الذي فعلته مع جلال الدين الحمامصي؟

- لم أفعل شيئًا .

- الرجل في حالة غضب شديد وهياج صاخب بعد أن قرأ ما كتبته عن رأيك في العلاوة .

- ولكنه طلب أن يعرف رأي المحرر في علاوته ، وهذا هو رأيي .

- إنه يطلب أن تقابله وحدد موعدًا لذلك .

- وأنا مستعد .

- وماذا تنوي أن تقول له ؟

- نفس ما كتبته له .

- إذن .. لابد أن أحضر المقابلة معك ، حتى أخفف من وقع أي صدام يحدث بينكما .

وهذا ما حدث . وكانت تلك المقابلة بداية لعلاقة ودية ورائعة مع الحمامصي .

وقد شعر الحمامصي بارتياح عندما قلت له: أن المكافأة المادية لا تهم ، وكان يكفي أن أسمع منه كلمات تشجيع تنطوي على تقدير لعملي حتى لو لم أحصل على علاوة .. مع تمسكي بكل كلمة كتبتها له .

عملية إنقاذ للحمامصي

عاش موسى صبري فترة بالغة الصعوبة .. كان يضطر خلالها إلى التصدي لمحاولات إصدار الأوامر إلى كبار الكتاب لكي يكتبوا في موضوعات معينة أو يذهبوا إلى بيوتهم ويستريحوا ويحصلوا على مرتباتهم كاملة بلا عمل .

وحتى في الأحوال التي كان فيها موسى صبري نفسه يعترض على أفكار واردة في المقالات الانتقادية للحكم ، فإنه يجد نفسه مستغرقًا في مهمة إقناع الحاكم بأن يخفف من غلوائه وغضبه من تلك الأفكار حتى لا يقع هذا الحاكم في خطيئة تحطيم قلم الكاتب .

وقد شاءت الظروف أن أشهد واقعة بالغة الأهمية .

كنت في مكتب موسى صبري لمراجعة أخبار الصفحة الأولى عندما تلقى مكالمة استنتجت على الفور أنها من الرئيس أنور السادات .

ونهضت من مقعدي لكي أغادر المكتب ، ولكن موسى صبري أشار بيده دون أن ينطق بكلمة طالبًا مني بطريقة حاسمة الجلوس وعدم المغادرة .

واستغرقت المكالمة التليفونية أكثر من ٤٥ دقيقة فهمت خلالها أن السادات يطلب من موسى صبري إبلاغ جلال الدين الحمامصي أن يلزم بيته ولا يضع قدمه في مؤسسة أخبار اليوم .

وظل موسى صبري يناقش السادات طالبًا منه إعادة النظر في قراره . ومن بين العبارات التي رددها موسى صبري أكثر من مرة : «إنه الحمامصي .. علينا أن نضع في اعتبارنا أن هذا الرجل هو جلال الدين الحمامصي . وهل من المعقول أن يحدث مثل هذا الأمر في عهدك» .

وأخيرًا - بعد محاولات مستميتة - نجح موسى صبري في حمل السادات على التراجع عن قراره . وكمن أزاح حجرًا ثقيلاً من على صدره ، التفت نحوي قائلاً : «سيواصل الحمامصي عمله .. كالمعتاد» .

كان الموقع يفرض على موسى صبري أن يتحمل شطحات وغضب الحاكم الذي يطلب الكثير من الإجراءات ضد الصحافة والصحفيين كما يتحمل غضب زملائه من الصحفيين العاملين معه ، الذين يأخذون عليه مسايرته للحاكم ويلقون عليه بالمسئوليات الجسام ، كما لو كان هو صاحب القرار ، بينما هو ضحية مثلهم لكل قرار متعسف موجه إلى المهنة والمشتغلين بها .

وكانت علاقته التاريخية بأنور السادات عبئًا عليه ، لأن الكثيرين اعتبروه مسئولاً عن سياسات الرئيس أو أنه شريك فيها على الأقل بينما كان السادات ، وحده ، هو صاحب كل قرار ، وكان يعلن أنه ليس في حاجة إلى محام - موسى صبري - ليدافع عنه ! .

قرار إبعاد الصحفيين

وحتى عام ١٩٨١ كان موسى صبري يدافع عن بقاء جلال الدين الحمامصي في عمله الصحفي .

كيف يمكن تخيل أن اسم الحمامصي بعد كل ذلك التاريخ في الصحافة ، وفي تلك السن المتقدمة ، كان يوضع في قوائم المبعدين من العمل الصحفي ؟

يقول موسى صبري في كتابه «السادات : الحقيقة والأسطورة» :

«أعلن الرئيس السادات في اجتماع أنه قرر نقل عدد من الصحفيين ومن لهم نشاط سياسي مضاد . وقال: ان وزير الداخلية سيعلن ذلك ، فطلبنا جميعًا الاطلاع

على الأسماء قبل إذاعتها لإبداء رأينا حتى لا يظلم أحد .

«وكان هذا هو القدر المسموح به لرؤساء الصحف). وفعلاً اجتمعنا بوزير الداخلية واعترضنا على كثير من الأسماء .. واعترضت ، من جانبي ، على اسم جلال الدين الحمامصي ونبيل زكي وسعد كامل . وفي المساء اتصلت بالرئيس لكي أتأكد من استبعاد اسم جلال الدين الحمامصي . وقال لي الرئيس: ان وزير الداخلية أبلغه باعتراضي وأنه يوافق على رأيي ، ثم اتصلت بوزير الداخلية لكي أتأكد من استبعاد اسم نبيل زكي ، واستغرق ذلك مناقشة غير قصيرة . ولم أترك التليفون حتى تأكدت من استبعاده.. » .

وهكذا انتزع موسى صبري الثلاثة المذكورين : الحمامصي - نبيل زكي - سعد كامل .. من خيوط العنكبوت . وفي حديث خاص ، قال لي: انه كلما تمكن من استبعاد اسمي من القائمة كان .. الاسم يعود مرة أخرى . وقد تكرر ذلك ثلاث مرات .

وأستطيع أن أتصور ما دار في تلك المناقشة «غير القصيرة» من اتهامات لكاتب هذه السطور والجهد الذي بذله موسى صبري مع وزير الداخلية المسئول عن جهاز الأمن في مواجهة تلك الاتهامات .

لقد دافع موسى عن صحفي يعمل معه في مواجهة هجمة شرسة . ولم يستطع أن يفعل ذلك مع الجميع . لأن الموجة الغاضبة كانت عاتية ورياح السموم .. كانت عالية .

لقد واجه جيل من الصحفيين - منهم موسى صبري - خلال سنوات عملهم الطويل .. سطوة الأجنبي ، وطغيان القصر ، ورجعية حكومات الأقلية ، ونزوات الثوار وعدم ثقتهم في الصحفيين ، والنزوع إلى الديكتاتورية العسكرية ، والقرارات

المرتجلة ، والتعليمات التليفونية بإبعاد هذا الصحفي أو ذاك أو منعه من الكتابة ، لأنه خرج على الخط المرسوم .

الضمير المهني :

ومن هنا .. معاناة الصحفي وشقاؤه في عصور وأزمنة تختفي فيها الحرية ، ولا يبقى سوى ضمير الكاتب . ومن المؤكد أننا ـ كصحفيين ـ أرهقنا موسى صبري كثيرًا ، لأنه كان يتصدى لتبعات قرارات فوقية لم يتخذها ، كما كان يتحمل انتقاداتنا لتلك القرارات وكأنه صاحبها .

كنت ، وأحد الزملاء ، في مكتب موسى صبري ، عندما شن هذا الزميل هجومًا على محمود أمين العالم ، المفكر والكاتب والناقد والمناضل اليساري المعروف ورئيس مجلس إدارة أخبار اليوم السابق .

وتدخلت في الحديث ، وقلت: أن محمود العالم شارك في ندوة في ليبيا ، وكان البعض هناك يريده أن يتبنى بعض الأفكار والمواقف ، ولكنه رفض ودفع محمود العالم ثمن هذا الرفض النابع من استقلالية تفكيره . وقلت أيضًا: أن محمود العالم يعيش في باريس ـ في ذلك الوقت ـ بمبلغ محدود يتقاضاه من التدريس وأن ظروفه المادية صعبة .

وحاول الزميل أن يستأنف هجومه على محمود العالم ، ولكن موسى صبري طلب منه أن يكف عن ذلك . وأخذ يسألني حول المزيد من التفاصيل عن الظروف التي يعيش فيها محمود العالم . وبدا على وجهه الاهتمام والتعاطف ، وتجلى بوضوح ذلك الجانب العاطفي في شخصية موسى صبري . والمعروف أن الخلافات الفكرية والسياسية بين موسى ومحمود العالم .. جذرية .

وفي إحدى المرات ، سألني موسى صبري عن الكاتب المسرحي الكبير الفريد فرج ، وعما يفعله في ذلك الوقت وقلت له: أنه يقيم في لندن ويواصل الكتابة ، وما زال هناك من يضطهدونه في مصر .

وقال موسى صبري: أنه يسعى لإعادة الفريد فرج إلى مصر لكي يتولى إدارة المسرح الكوميدي . والمعروف أيضًا أن موسى يقف في المعسكر الفكري والسياسي المضاد لألفريد فرج .

حرب في الظلام :

وعندما فوجئت بزوار الفجر يعودون ليطرقوا باب شقتي في عام ١٩٧٩ ، وبأن هناك تهمة ملفقة جاهزة موجهة ضدي .. زارني أحد ضباط المباحث في سجن القلعة ، وقال لي: إنه يعرف أنه لا توجد تهمة ضدي! وعندما أعربت عن دهشتي ، وقبل أن أتساءل عن سبب وجودي في سجن القلعة .. أخذ يوجه لي أسئلة عن موسى صبري ، حتى أنني تصورت أنه ربما يكون في الزنزانة المجاورة لي ، جنبًا إلى جنب مع زنزانة أحمد طه ، وأحمد مجاهد عضوي مجلس الشعب المقبوض عليهما بنفس التهمة الملفقة !

وعندما قابلت موسى صبري عقب قرار المحكمة في دائرتين قضائيتين بالإفراج عني وعن زميلي بلا ضمان ، قال :

«أعرف أن التهمة التي وجهت ضدك ملفقة تمامًا . أرجو أن تتحمل ، فهناك أيضًا من يحاربونني ويحاربون صحفيين من أصحاب الأفكار . وهناك من لا يعجبه أنني مصدر معلومات صحيحة وأن هذه المعلومات الصحيحة تصل عن طريقي إلى أعلى المستويات ، وذلك لأنهم يريدون أن يحتكروا الصلة مع المستويات العليا حتى يكونوا المصدر الوحيد للمعلومات » .

.. إذن ، فإنه حتى رئيس تحرير أكبر صحيفة في بلادنا .. يجد من يحاربونه في الظلام ، وبأساليب غير مشروعة وغير أخلاقية... رغم أن رئيس التحرير من غلاة المتحمسين المؤيدين للحاكم!

وتذكرت عندئذ واقعة أخرى .

كان موسى صبري قد اتصل بي وطلب أن أقابله على عجل .. ووجدته مهمومًا وقلقًا . سألني :

«هل صدر منك كلام عن القبض على ممدوح سالم ومعه وثائق خطيرة..؟» .

قلت له : كنت مع زملاء بوكالة أنباء الشرق الأوسط ، وجاء أحد المحررين المتعاونين من الخارج مع الوكالة ليقول لهؤلاء الزملاء ذلك الخبر وسمعته ، مثل الآخرين . وبعد ذلك وصل أحد العاملين في مصلحة الاستعلامات ، وكان يتعاون مع الوكالة ، وسألني عن الأخبار .. فقد كانت الأجواء متوترة للغاية في البلد عقب القبض على المجموعة الناصرية فيما أسماه السادات «انقلاب مايو» . وقلت لذلك الشخص أن آخر ما سمعته على لسان أحدهم هو الخبر المتعلق بممدوح سالم . ولاحظت بعد لحظة أنه انتحى ركنًا وأخذ يتحدث في التليفون . والراجح أنه كان ينقل ما قلته إلى جهة ما .

وظهرت علامات الارتياح على وجه موسى صبري وتنفس الصعداء . وقال :

«أشكرك على هذا الإيضاح . فقد كنت منزعجًا من احتمال أن تكون قد ذكرت هذا الكلام هنا في المؤسسة ـ أخبار اليوم ـ وليس في مكان آخر ونقله أحدهم من هنا إلى جهات الأمن ، لأن معنى ذلك أنه يوجد في داخل المؤسسة من يعملون مع الأمن .. وأنا لا أعرف عنهم شيئًا .. » .

ثم ابتسم بطريقة أبوية ، وقال :

« لا تردد هذه الشائعات مرة أخرى ، إذ لولا تدخلي لصالحك .. لكنت الآن في السجن » .

مصدر القوة

كان يستمد قوته من موقعه الصحفي ، وقدرته على التأثير . وكان يعلّم أجيالاً من الصحفيين كيفية صياغة الخبر وتقدير أهميته وكل فنون العمل الصحفي .

وحتى هؤلاء الذين حاربوه .. كانوا يحسبون له ألف حساب ، ولا يخطئون في تقرير حجمه ووزنه .

كان موسى صبري - وهو رئيس لمجلس الإدارة ، ورئيس للتحرير - يتوجه بنفسه إلى موقع الأحداث ، ولا ينسى زملاؤه أنهم فوجئوا به على شاطئ النيل قرب الترولي باس الذي سقط في مياه النهر لكي يصف بنفسه كيفية وقوع الحادث ويوجه المحررين للاهتمام بزوايا معينة في كتابة التحقيق الصحفي ، ولا ينسون العناوين الجذابة والسطور الرشيقة التي كان يختارها ويخطها بقلمه .

فعندما رشح السناتور الأمريكي باري جولدووتر نفسه لرئاسة الولايات المتحدة ، كتب موسى صبري تحقيقًا سياسيًا بعنوان : «نيرون أمريكا.. يقترب من البيت الأبيض» . فقد كان جولدووتر مشهورًا بأفكاره اليمينية المتطرفة .

وعندما توفى جمال عبد الناصر ، كان مانشيت «الأخبار» الذي تفوق على جميع مانشيتات الصحف الأخرى : «فقدنا عبد الناصر» .

ورغم وجود طاقم كبير من سكرتيري تحرير الأخبار الممتازين ، إلا أنني كنت أجد موسى صبري يرسم الصفحة الأولى ويعد الماكيت الخاص بها .. بنفسه ، وكان

الزملاء يتعلمون من طريقته .. الكثير .

وجاء وقت ، مرت فيه عدة أسابيع لم أره خلالها . وكان ذلك شيئًا غير مألوف بالنسبة لي في حياتي اليومية . فقد تعودت فور وصولي إلى «الأخبار» أن أسمع صوته في التليفون يسألني ، من مكتبه في الصحيفة ، عن أهم الأخبار التي نقلتها إلينا وكالات الأنباء حتى الساعة الخامسة مساءًا ثم يدعوني إلى التوجه إلى مكتبه حاملاً معي كل الأخبار التي تم إعدادها للنشر لاستعراضها وقراءة محتواها وما بين سطورها .

وعرفت أن المرض قد داهمه ولزم الفراش في المستشفى وآثرت ألا أراه خلال مرضه بعد أن شعرت أنه في حاجة إلى الراحة والهدوء عقب إرهاق شديد متواصل ، فقد عرف عنه أنه يملك طاقة غير عادية من النشاط في عمله ، وأنه يعكف على هذا العمل بكل وجدانه ويكتب بكل أعصابه ، في نفس الوقت الذي يشحذ فيه الهمم ويتعجل إنجاز عمل الآخرين ، وهو حاضر البديهة دائمًا في كل ما يتعلق بتفاصيل .

وتمضي الأيام ، بعد انقطاعه عن العمل .. إلى أن رأيته في السرادق الذي وقف فيه يتقبل العزاء في وفاة والدته . كان حزينًا مهمومًا .. ترك الإرهاق البدني والنفسي آثاره على كيانه وملامحه ، فقد ظل لفترة من الوقت يعاني من ارتفاع في درجة الحرارة لم يعرف له الأطباء سببًا واضحًا . ومرت لحظات مشحونة بالانفعالات ووجدت نظرة فلسفية في عينيه ، وعاودتني الرغبة في رؤيته في مكانه الطبيعي .. في مكتبه ، وهو يعمل بكل نشاطه وحيويته الدافقة .

قلت له ، وأنا أصافحه قبل مغادرتي السرادق ـ كما لو كنت قد عثرت فجأة على العلاج من كل ما يعانيه : « إن عملك في حاجة إليك » .

وتطلع إلى وجهي في اهتمام ، ولمعت عيناه ببريق غريب فأدركت أنه كان يفكر

قبلي فيما أفكر فيه .. فالعلاج الوحيد لهذا الرجل هو أن يستأنف عمله ، فهو لن يسترد حيويته ولن يجد روحه ولن تشتعل جذوته إلا وسط ضجيج المطبعة وسحر الكلمة المطبوعة وحركة الأنباء التي لا تنقطع ، ولن يستطيع أن يتنفس إلا ذلك الهواء الذي يختلط برائحة الحبر والمطابع .

هكذا كان وسيكون دائمًا ، وذلك هو قدر الصحفي الذي يحمل على كاهله هموم عصر بأكمله .

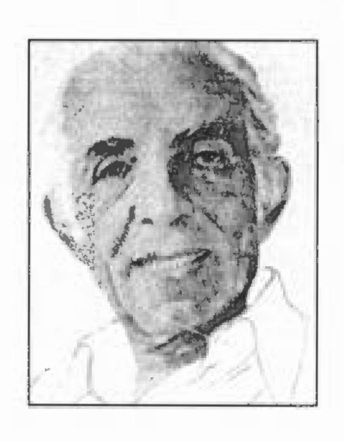
وفي يوميات «الأخبار» .. كتبت .. ما يعبر عن هذا المعنى .

بعد يومين قرأت في «الأخبار» سطورًا قليلة تقول : «موسى صبري يعود إلى العمل ابتداء من الاثنين المقبل » . وعندما رأيته قال لي :

«لقد قرأت يومياتك في الأخبار .. ووجدت نفسي أبكي » .

ستبقى بصمات موسى صبري في كل صفحة من صفحات «الأخبار» ، لا يمحوها الزمن ، وسيظل المحررون والعمال والإداريون يشعرون بأنه في مكتبه لم يغادره قط ، وستظل أنوار هذا المكتب مضاءة دومًا .

■ ■ ■



* إنه يريد أن يحقق «متعة الاتصال بالجماهير» فالصحافة هي «غرامه الكبير».. ويحاول إقناع الناس بخلع رداء السلبية .

جلال الدين الحمامصي: القلم .. لا يزال في يده

في أحد أيام صيف عام ١٩٧٩ .. دق جرس التليفون في منزلي . وسمعت صوت «جلال الدين الحمامصي» يقول : «إذا كنت تصر على التوقف عن العمل ، فهل تصر على رفض دعوتي لتناول القهوة؟» .

والتقيت به في مكتبه في «الأخبار» وأعدت شرح موقفي : لقد كنت ضحية تهمة ملفقة وُجِهّتْ لي مع عدد من المرشحين في انتخابات مجلس الشعب . ولما كان هؤلاء الذين لفقوا لي التهمة يتمتعون بنفوذ كبير في الدولة .. أو الدولة نفسها وكان التلفيق جزءًا من عمليات تزوير مدبرة.. فإن أبسط رد هو امتناعي عن العمل احتجاجًا على هذا التلفيق ، خاصة أن سبب كل ما حدث هو أنني أعمل في مهنة الصحافة .

وشعرت بدهشته عندما رويت له كيف أن المحكمة اكتشفت التلفيق في الحال ، وقررت الإفراج عنا بلا ضمان ، ولكن تم الاعتراض على الإفراج ، ونظرت دائرة قضائية أخرى في أمرنا فقررت تأييد حكم الدائرة الأولى .. وهكذا أُطلِقَ سراحنا .

■ ■ ■

قال الحمامصي : «إذا كنت ترى أن قرارك بالامتناع عن العمل هو الموقف

الصحيح الذي يجب أن ترد به على من لفقوا لك التهمة .. فيجب ألا يكون هذا موقفك وحدك ، بل موقفنا جميعًا .. وأنا في المقدمة ».

كانت عبارته الحاسمة مفاجأة لي .. ولم يدع لي فرصة للتعليق . قال : «إن ما تريده لا يصح أن يتحقق من خلال موقف فردي ، بل جماعي ، فهي قضيتنا نحن جميعًا .. » وأضاف مداعبًا : «.. أم ترى أنك تريدني إقناعك بجدوى وأفضلية الموقف الجماعي ؟ » .

تلك هي طبيعة الحمامصي ، فقد كان يشعر بُغصة لأن الخطأ الذي أصبح يُرتكب في حق الغير في كل موقع من مواقع العمل لا يحرك فينا الاهتمام الفعال المؤثر الذي يضع في قمة اعتباره أن هذا الخطأ يمكن أن يتعرض له أي منا في فترة زمنية لاحقة مما يفرض على جميع المتصدرين للخدمة العامة التكاتف لدفع الضرر عن هذا الغير .

وعندما استجيب لدعوته لتناول القهوة في مؤسسة أخبار اليوم .. فوجئت به.. وقد دعا كلاً من مصطفى أمين وسعيد سنبل للاستماع إلى تفاصيل كل ما حدث معي منذ لحظة اعتقالي حتى الإفراج عني .

***

منذ الطفولة .. كان جلال الحمامصي يريد أن يحقق «متعة الاتصال بالجماهير» وبناء الجسور التي تربط بينه وبين الرأي العام ، ومنذ أيام الصبا .. كان سعيدًا بأن يكون صاحب رأي مستقل .. رأي لا يفرض عليه ، بل يختاره بنفسه .

ملامح رئيسية تشكل جزءًا لا يتجزأ من كيانه : ما يسميه ـ هو نفسه ـ عمق غريزة رفض التدخل في تطويع الفرد لقبول آراء لا يؤمن بها .. ذلك أن الفرد ليس ملكًا لنفسه ، وإذا أراد أن يكون على عكس ما يراد به .. فهو يستطيع مصارعة الواقع وطرق كل الأبواب التي تساعد على تحقيق الأمنيات وتحويلها إلى حقيقة ..

ولو طال الزمن .

كانت تلك أيضًا سمة بارزة من سمات شخصية الحمامصي . وكان على رأس أمنياته التعبير عن الرأي بالكلمة المطبوعة .

أما الأساس في «نظريته السياسية والصحفية ، فهو أنه لا يمكن للرأي أن يكسب معركته إلا إذا كان هناك تكافؤ فرص لكل الآراء المخالفة ».

.. ثم طاقة التحدي والتمسك بالرأي الذي يراه صوابًا حتى لو ضحى ، في هذا السبيل بالكثير . إنه يقول :

«تعلمنا معنى التزمت عندما نقف للدفاع عن الحق وعما نؤمن به ونحن ننتقل من مرحلة إلى أخرى من مراحل العمل الصحفي والسياسي الشاق » .

احترام الرأي الآخر .. صفة رئيسية من صفات الحمامصي ولم تتأثر علاقاته الشخصية مع آخرين كان يختلف معهم في الرأي في وقت كنا نجد فيه كتابًا يقاطعون من يخالفهم في وجهة نظرهم كما لو كان الإذعان لأفكارهم شرطًا لإقامة علاقات الصداقة معهم ! إنه رجل المبادئ الذي لا يتراجع :

«مبادئ كثيرة رسخت في قلوبنا وأفكارنا ، ولم يعد ممكنًا ـ حتى لو أردنا ـ التنازل عنها أو التسامح في محاسبة من يقترب منها ويحاول هدمها أو تغييرها .. طريق صحفي وسياسي وعر .. وأنا أجد نفسي ملتزمًا في عملي بخط مستقيم لا أقوى على الخروج عنه .. وإلا هزني القلق » .

فترة الانتقال من مرحلة من مراحل العمر إلى أخرى .. حافلة بالأحداث السياسية الكبرى . وكانت بداية هذه الأحداث ثورة ١٩١٩ شاهد الحمامصي ثوار دمياط يفتحون صدورهم لنيران المحتل ولا يهابون الموت .. وعندما كتب الرجل

بصيغة المتحدث الجمع في سطوره السابقة .. كان يقصد ذلك الرعيل الأول «الذي تمثله قلة .. هي نتاج ثورات شعبية صنعت الرجل والمثل » .

إنها الفترة التي غرست في نفوس أهل دمياط ضرورة تحقيق الاستقلال والتمسك به والدفاع عنه .

يتساءل الحمامصي : هل كانت هذه الفترة وما تميزت به هي التي أكدت لديه معنى احترام رأي الغير ومعنى إقامة الاعتبار لحكم الشعب ؟

وخلال متابعته لتطورات ثورة ١٩١٩ ازداد اقتناعه بشيء لم يكن يعرف حقيقته وأبعاده في سنوات عمره المبكرة : «رسخت في عقلي وفي قلبي المبادئ التي خرجت بها من بلدي دمياط : الديمقراطية المرتكزة على دستور يرضاه الشعب وأن تكون له صحافة حرة تعبر عن آماله .. الاستقلال في الرأي والتمسك بالحقيقة .. والديمقراطية هي قاعدة الرخاء والاستقرار لكيان أي شعب من الشعوب .. والصحافة يجب أن تكون في أيدي الذين يؤمنون بهذه المبادئ ولا يحيدون عنها » .

***

ومنذ وقت مبكر .. أصبحت الصحافة جزءًا من حياته .. فالصحافة هي «غرامه الكبير» . حاول أن يبتعد عنها .. لأنها لم تكن كما يشتهي ، ولكنه لم يستطع .

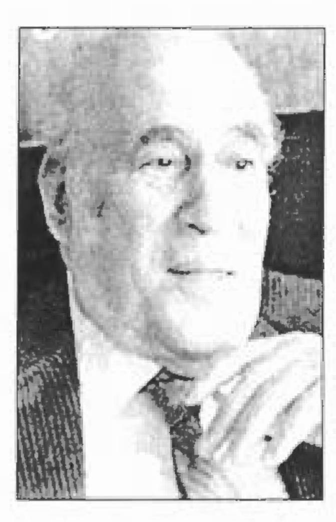
كان يتمنى أن تكون الصحافة مهنة ينطق العاملون فيها بما يؤمنون به . لا بما يُفرض عليهم . ولم يمل من تحذيرنا : «ما أرخص الصحفي إذا استهان بقيمته» . وكتب يقول : «ما أهوننا إذا تناسينا أن قدسية المهنة التي نرتدي ثوبها تحتم علينا أن نكون أصحاب مواقف بالغًا ما بلغ الثمن .. أليس على رجال الصحافة واجب مطالبة الآخرين بأن يكونوا أصحاب رأي وفكر وموقف في مواجهة الصعاب ، فكيف يتأتى لهم ذلك وقد حرموا أنفسهم من حق الإقدام على صد اغتصاب من

يحاول تعريتهم من ثوب المهنة ؟ » .

إنه يحلم «بفك الخيوط المعقدة التي كبلت بها الصحافة خيطًا بعد الآخر» . وشغله الشاغل هو الذود عن كرامة المهنة ، وقهر قوة الإعلان ، وتطوير الخدمة الصحفية ، ورد الاعتبار للصحافة المصرية في الوطن العربي والعالم . والبحث عن كيفية الاستفادة من القوة الضاربة للشعب في إقامة صحافة مثالية .. والعمل على إيقاظ الرأي العام والحرص على استمرار هذه اليقظة ، وهو يبذل قصارى جهده لدفع الناس إلى خلع رداء السلبية ، ويدافع عن الديمقراطية وحقوق الإنسان في كل مكان من الدنيا .

ويستعرض الحمامصي الفترات التي تمت فيها السيطرة الكاملة على مصائر الصحفيين ، بل .. وعلى ألسنتهم وأقلامهم ، وقصة فصله من عمله في ٣١ ديسمبر عام ١٩٦٠ ويحمل المسؤولية ـ فيما أصيبت به الحرية ـ للصحفيين الذين آثروا الاستسلام وتخلوا عن أي فرصة للمقاومة أو محاربة خصوم الحرية .

■ ■ ■



حياته.. ثلاث مراحل، الأولى تشبه الأخيرة، ويبدو أنه أراد أن يختتم حياته على النحو الذي كانت عليه في بدايتها.

مصطفى أمين :
صحفي من « بيت الأمة »

عرفته في وقت متأخر ، رغم أنني كنت أقرأ كل ما يكتبه ، وأنا في بداية مرحلة التعليم الثانوي . وما زالت حكاياته عن فترة طفولته - هو وشقيقه التوأم - تبهرني وتثير خيالي حتى الآن .

لم يكن حدثًا عاديًا .. أن يولد صحفي في بيت زعيم تاريخي للحركة الوطنية .. قاد ثورة شعبية هائلة هزت المنطقة والعالم . ولكن مصطفى أمين وعلي أمين ولدا في «بيت الأمة» وسط أرقى التقاليد وأرفع قواعد السلوك الأخلاقي .

ونحن نعرف أن فترة الطفولة هي مرحلة التكوين . وقد عاشت أخلاقيات وسلوكيات «بيت الأمة» مع مصطفى أمين عبر فترات طويلة من حياته .

ولم أعرف علي أمين عن قرب ، ولكنني عرفت مصطفى أمين في السنوات الأخيرة من حياته عقب خروجه من السجن .

■ ■ ■

وتقديري الشخصي أنه يمكن تقسيم حياة هذا الصحفي إلى ثلاث مراحل :

مرحلة «بيت الأمة» ، وهي أجمل فترات حياته التي عاشها في كنف سعد زغلول ، لكي يصبح في سنوات النضج وفديًا مخلصًا ومقاتلاً وطنيًا .

والفترة الثانية ، هي التي أعقبت انقلابه على الوفد وحملاته الشعواء على حزب الأغلبية وزعيمه مصطفى النحاس ودفاعه عن القصر وأحزاب الأقلية وعن مشروعات كان يجري إعدادها لا تحقق لمصر أمانيها الوطنية، وهي المرحلة التي كنا – نحن طلاب المدارس – نتظاهر فيها ضد سياسة «أخبار اليوم».

والمرحلة الثالثة ، التي أعقبت خروجه من السجن بعد اتهامه بالتخابر مع الأمريكي «بروس أوديل» .

واعتقادي أن مصطفى أمين تحدث مع ذلك الأمريكي مهاجمًا جمال عبد الناصر وكل سياساته، وربما يكون قد تجاوز في ذلك الهجوم .. مما أدى إلى توجيه ذلك الاتهام المشين له .

في المرحلة الثالثة .. عاد مصطفى أمين إلى قيم ومواقف المرحلة الأولى (بيت الأمة) ، وربما كان قد تعلم الكثير .. من أخطائه وخطاياه السابقة .

كتب يقول :

«.. لقد عرفت ، وأنا في سجن المخابرات ، أن مصطفى النحاس قد توفي إلى رحمة الله . وحزنت كثيرًا عليه . وأسفت لأنني لا أستطيع أن أكتب رثاء له . لقد أحببت هذا الرجل وحاربته . وسجنت من أجله . وفصلت من المدارس من أجله . واختلفت معه في الرأي وهاجمته وهو رئيس حكومة ، فلم يفكر في أن يضعني في السجن . ولو كنت كتبت اليوم عن سكرتير أحد الوزراء ما كتبت عن رئيس الحكومة مصطفى النحاس .. لشنقوني أو أعدموني رميًا بالرصاص .

«ولقد قبض عليّ في عهد النحاس سنة ١٩٥١ ستًا وعشرين مرة ، ولكني كنت

أدفع الكفالة وأخرج من السجن ولم يفكر النحاس أن يدبر لي تهمة أو يحاكمني ...

«ومن حق النحاس أن أشيد به وأنا مسجون وأن أذكره كرجل قاد كفاح هذه الأمة ، وضحى في سبيلها ، ونفي من أجلها ، وحمل الزعامة بعد سعد زغلول ، وكانت نهايته هي نهاية الديمقراطية.

«ولقد أسعدني أن الملايين خرجت لتشييع جنازته . وحزنت لأن الصحف لم تخصص الصفحات للحديث عن تاريخ هذا الرجل وأمجاده ، التي هي تاريخ شعب مصر وأمجاد شعب مصر .. » .

إنه نقد ذاتي واضح لمرحلة من حياة مصطفى أمين المهنية ومواقفه السياسية.

أروع صفحات التاريخ

هذا الرجل «من بيت الأمة» كان آخر من بقي على قيد الحياة ليسجل على الورق ملحمة ثورة ١٩١٩ الوطنية الشعبية الكبرى ، فقد كتب عن أسرارها وقصة جهازها السري . والمؤسف أن الكثيرين من قادة الثورة وأبطال الجهاز السري للثورة لم يكتبوا مذكراتهم ولم يتركوا مستندات عن أدوارهم .. يستطيع المؤرخون أن يعرفوا منها كيف كان يتم تنفيذ عمليات هذا الجهاز وعلاقته بزعيم الثورة سعد زغلول .

ولكن مصطفى أمين اخترق حواجز كثيرة ليكشف الحجب والأستار ويزيح النقاب عن أروع صفحات في تاريخ مصر في القرن الماضي . وكان هذا الصحفي «ابن بيت الأمة» قد تمكن من الاتصال بعدد من أعضاء الجهاز الذين اشتركوا في وضع الخطط وتنفيذها ودفعهم إلى الخروج من حالة الصمت ليعرف كل مصري وقائع حرب القنابل والاغتيالات ضد الإنجليز وعملائهم . وتجمعت لدى مصطفى أمين الوثائق والشهادات حتى يعرف الأبناء ما قدمه الآباء من تضحيات لهذا الوطن . وعرف الناس ، لأول مرة ، الحقائق عن فروع الجهاز السري ، وإدارة

مخابرات الثورة ، وإدارة الاتصالات الخارجية ، وإدارة تحريك المظاهرات ، وقطع خطوط إمدادات قوات الاحتلال .

تكلم «محمد صادق فهمي» ، الذي كان يشترك في حل رموز تعليمات الثورة السرية ، وتكلم «عريان يوسف سعد» ، الذي ألقى القنبلة على رئيس الوزراء «يوسف وهبة» باشا عام ١٩١٩ لأنه خالف قرار سعد زغلول بأنه لا يجوز لمصري أن يؤلف وزارة في ظل الحماية البريطانية . وحصل مصطفى أمين على مذكرات «سيد علي محمد» ، المحامي الشرعي الذي حاول اغتيال محمد سعيد باشا ، رئيس الوزراء ، وعلى أقوال «محمد محمد خليفة» ، تاجر كفر الزيات ، الذي حاول اغتيال السلطان فؤاد ، الذي كان يتآمر مع الإنجليز ضد الثورة ، إلى جانب مذكرات الدكتور محمد حفني ومحمد خليل النحاس ، عضوي الجهاز السري .. وغيرهم .

واستعان مصطفى أمين بمذكرات سعد زغلول ، ونشر نصوص الرسائل المتبادلة بين سعد وعبد الرحمن فهمي ، رئيس الجهاز السري ، لتكتمل حلقات الدراما الكبرى . ولو لم يفعل مصطفى أمين شيئًا آخر في حياته ، فإنه يكفيه الاضطلاع بتلك المهمة الجليلة . ولو لم يفعل .. لأصبحنا ضحايا فقدان الذاكرة .

كتب مصطفى أمين أسرار ثورة ١٩١٩ في سطور حلوة المذاق .. وبحروف دافئة ، وبكلمات تنبض بدفقات من مشاعر وطنية جارفة .

مشاهد كثيرة تهز الإنسان من الأعماق .

قادة الثورة الذين تصدر عليهم أحكام بالإعدام .. فيهتفون بحياة مصر .. التجاوب الشعبي الإجماعي مع قيادة الثورة ، واندفاع المواطن البسيط إلى العطاء والبذل والتضحية .. الوحدة الوطنية .. المرأة في معترك الكفاح الوطني .. هامات مرفوعة .

إنها مدرسة يتعلم فيها المواطن أن يحب الشعب ويثق به وبقدراته الهائلة .

وأتصور أنه إذا كانت وزارة التعليم في بلادنا تريد ، حقًا ، أن تنشئ جيلاً يحب بلاده ، فإن الوسيلة واضحة أمامها .. وهي تدريس «الكتاب الممنوع - أسرار ثورة ١٩١٩» .

في المرحلة الثالثة من حياة مصطفى أمين .. رفض أن يهاجم حزب الوفد الجديد ، الذي عاد إلى الساحة السياسية ، رغم إلحاح أنور السادات على ضرورة أن يكتب مصطفى أمين ضد الوفد .

قال مصطفى أمين: أن حزب الوفد لم يفعل شيئًا يدفع إلى مهاجمته ، وأنه إذا هاجمه سوف تزداد شعبية الوفد . وثارت ثائرة السادات .

وانتقد مصطفى أمين بشدة «هرولة» أعضاء حزب مصر العربي الاشتراكي للانضمام إلى الحزب الوطني الديمقراطي الذي أسسه أنور السادات بعد أن تخلى عن رئاسة الحزب الأول .

وقال مصطفى أمين ساخرًا: أن هؤلاء المهرولين لم ينتظروا حتى لكي يعرفوا شيئًا عن برنامج الحزب الجديد . وقد تسبب هذا النقد في صدور قرار من السادات بمنع مصطفى أمين من كتابة عاموده «فكرة» .

المرحلة الثالثة من حياة هذا الصحفي ترتبط بالمرحلة الأولى مباشرة .

تعلم في «بيت الأمة» أن للصحفي مكانة سامية .. فعندما كان يجري إعداد المائدة لضيوف سعد زغلول «لاحظ الطفل مصطفى أمين أن مقعد الصحفي «عباس محمود العقاد» قد وضع إلى جانب مقعد زعيم الأمة . وتساءل الطفل : «ألن يجلس هنا فلان باشا؟» ورد عليه سعد قائلاً : «بل تجلس هنا.. صاحبة الجلالة» .

معايير لا تهتز

وقد بدأ مصطفى أمين حياته مدافعًا عن حرية الرأي والعقيدة وحرية التعبير

والديمقراطية ، لذلك كانت كل كتاباته ، بعد خروجه من السجن ، في السبعينيات ، مكرسة للدفاع عن نفس تلك القيم والأهداف .

وجاء وقت أصبح فيه الرجل - وحده - حزبًا سياسيًا شعبيًا . ووجدت نفسي في الطابق الأول من مبنى المؤسسة القديم ، في صالة التحرير ، أستقبل عائلات في حملة سبتمبر ١٩٨١ الشهيرة لكي أصحبهم إلى مكتب مصطفى أمين لكي يقدموا له الشكاوي .. وليكتب عن ذويهم المعتقلين .

وكان يكرر القول: بأن الدستور - أي دستور - يجب أن ينص على عبارة : «الصحافة حرة» - بلا زيادة أو نقصان - وأنه إذا أضيفت أي كلمة إلى هذه العبارة ، فإن ذلك يعني فرض قيود على حرية الصحافة .

كان يعرف أن كاتب هذه السطور يقف على طرف نقيض من أفكار كثيرة يعتنقها ، ولكنه لم يتوقف لحظة عند هذا الاختلاف ، لأنه لم يكن ينتظر من الآخرين أن يفكروا مثله .

وأتذكر كيف كتب عاموده ذات يوم مطالبًا بجمع تبرعات مالية لإنقاذ مجلة «اليسار» من أزمتها المالية التي تهددها بالتوقف عن الصدور .

وكتب، ذات مرة، عاموده لكي يشيد بحكم صدر من المحكمة بتعويض كاتب هذه السطور عن فترة الاعتقال وما تعرض له من تعذيب.

وفي أحد الأيام طلب أن يلتقي مع عبد الرحمن الشرقاوي ، وقال له: أنه يعرف أن عدد قرائه في مصر عدة آلاف وهو يريد أن يكسب هؤلاء القراء إلى جريدته ، ولذلك فإنه يضع صفحة كاملة أسبوعيًا تحت تصرف الشرقاوي يكتب فيها ما يشاء .

كان يقدر كل من تؤهله ثقافته أو خبرته للخلق والابتكار والإبداع . وكان يحترم كل من يعمل بجد وإتقان .

ذات مرة .. توجه بعض المحررين إلى مكتبه ليقولوا له: أنهم اكتشفوا أن «فخري عزيز» ، المحرر بالقسم الخارجي ، يشرف على إصدار مجلة السفارة اليابانية وينبغي منعه من هذا العمل الإضافي أو فصله من أخبار اليوم . وفوجئ هؤلاء بمصطفى أمين يقول لهم : أنه لابد أن فخري عزيز يملك كفاءة غير عادية جعلت اليابانيين يستعينون به في القيام بهذا العمل ، ورفض الاستجابة لطلبهم .

معيار الكفاءة لم يهتز في حساباته قط .

دخل مكتبه يومًا صحفي من أقرب المقربين إليه ، على المستوى الشخصي ، قال له الصحفي : «أريد أن تخصص لي يومًا أكتب فيه يوميات الأخبار » (التي تنشر يوميًا في الصفحة الأخيرة) . ورد عليه مصطفى أمين في الحال قائلاً : «من الذي سيكتبها لك؟!» .

وأدرك الصحفي على الفور أن مصطفى أمين لن يسمح بأن تطغى العلاقة الشخصية على تقديراته ومعاييره ، فإن كان الصحفي غير مؤهل للكتابة في اليوميات، فإنه لن يكتب .. مهما كانت درجة العلاقة بينه وبين مصطفى أمين .

جعل الصحيفة في متناول القارئ العادي بأسلوبه البسيط ، الذي يفهمه ويستوعبه كل أنواع القراء . كان يحرص على أن يجعل كل من يعملون معه يزدادون عشقًا للصحافة ويقنعهم بأنهم محظوظون ، لأنهم يمارسون أقدم مهنة في الوجود . فلا نجاح لأي صحفي ما لم يحب الصحافة ويتفانى في خدمتها . وكان تفاؤله الدائم يساعد من يحيطون به على تجاوز الأزمات واستعادة التوازن النفسي .

وظل هدفه الدائم أن يجعل الصحافة مهنة محترمة ومهابة وفي أعلى مكان .. ويحسب لها الحكام .. كل حساب .

■ ■ ■



*يستدعي التاريخ ليعرف قصة كل شارع وحارة ومن هم العباقرة الذين عاشوا في تلك الأماكن .

كامل زهيري : قطرات من العطر

كنا نجد متسعًا من الوقت لكي نلتقي ونتحدث خلال رحلاتنا خارج مصر ، سواء في مؤتمرات الاتحاد العالمي للصحفيين أو مناسبات أخرى .

وهكذا قضيت أيامًا لا تنسى مع الكاتب الكبير الراحل كامل زهيري في بكين وفي العاصمة الكورية «بيونج يانج» وفي بغداد وغيرها . إنه متحدث لا تمل سماعه ، يفيض بالحيوية . ولم يكن يستغرق في النوم ، ولو دقيقة واحدة ، في الطائرة . ويقول: أنه لا يستطيع أن ينام داخل شيء متحرك . وفي إحدى المرات ، وأنا مستغرق في القراءة خلال رحلة جوية ، وجدته يختلس النظر إلى وجهي عدة مرات ، ثم اكتشفت ، بعد لحظات أنه يرسمني على ورقة بيضاء . ولم أكن أعرف أنه يرسم إلا عندما زرته في مسكنه وشاهدت لوحاته في وقت لاحق .

وفي الوقت الذي كان كامل زهيري يعقد اجتماعا كل ساعة ، معي ومع الزميل الصديق الراحل صلاح الدين حافظ ، لمتابعة كل ما يجرى « في لجنة الصياغة » خلال مؤتمر دولي ، لكي يطمئن إلى صدور قرارات مؤيدة لقضايا العرب وحركات التحرر الوطني ..

كان يطلق العنان لتأملاته البصرية ، متابعًا بدقة مذهلة كل ما يتعلق بالطبيعة والبشر من تفصيلات لا يتوقف عندها الكثيرون ، بل تغيب حتى عن كافة الناس .

في باريس مثلاً يعرف كامل زهيري أوسع شارع وأكبر ميدان وأصغر حارة ويدعي « شارع القطة التي تصطاد » ، ـ ولعلها أصغر حارة في أوروبا ـ وهي عبارة عن زقاق عرضه يقل عن متر ويطل على نهر السين بالقرب من كاتدرائية نوتردام .

إنه يقضي أوقاتًا سعيدة أمام الأحجار الصماء الناطقة والألوان الزاهية أو الباكية في متحف اللوفر . ويذهب إلى ميدان السوربون ليتأمل حجارته السوداء وبيوته الداكنة وقبابه المذهبة ، ثم إلى حديقة اللوكسمبورج التي يقول عنها: أنها مكان لقاء العشاق من الطلبة والطالبات ، والعشاق من الشيوخ والشبان والعشاق فقط بلا عمل ولا وظيفة سوى الحب .. مجانًا!

وكما يستدعي التاريخ في شوارع وحواري مصر .. ويروي لك أن أحد علماء الحملة الفرنسية الذين شاركوا في وضع موسوعة «وصف مصر» كان يسكن في تلك الحارة في السيدة زينب ، وأن الفنان محمد عبد الوهاب ولد في الحارة الفلانية وكذلك الأديب يحيى حقي .. فإنه يفعل نفس الشيء في باريس . فهو عندما يتجول في شوارع باريس يذكر لك أن توفيق الحكيم كان يقيم في ذلك الموقع وأن طه حسين أو محمد مظهر كان يقيمان في شارع كذا ..

وعندما يتجول في حديقة «الكوليزيري دي ليلا» ، يتذكر أن الزعيم الروسي لينين والكاتب الأمريكي إرنست هيمنجواي والشاعر الفرنسي بول إيلوار والرسام سلفادور دالي .. كانوا يترددون على تلك الحديقة .

ويتوجه إلى شارع الشانزليزيه ليتابع مظاهرة أنصار السلام من المحتجين على الحرب الفرنسية في الجزائر ، ويشارك فيها .

باريس تشده من حي إلى آخر، وتقذفه من مكان إلى مكان. ويمضي في شوارعها تحت وابل المطر ليبحث عن المعروض على مسارحها والقضايا المطروحة في أوكارها الثقافية. وهنا نلاحظ أنه - وهو في باريس - يفكر بالعربية بنشاط!

سماء عالية

تجذبه سماء الهند العالية جدًا «التي يفنى فيها النظر مهما كان قويًا وثاقبًا ولحوحًا». كان يحدثنا كثيرًا عن الارتفاع الشاهق لسماء الهند، ويقول: إنها «قبة سماوية أوسع وأعرض وأعلى من كل القباب، كما أن أفقها أبعد من كل الآفاق». وفي ظل هذا الاتساع والارتفاع يقول «كامل زهيري»: أن أي إنسان لابد أن تصيبه برعشة من الضآلة، ورجفة الإحساس بالانفراد، ويحس أنه صغير القامة مهما كان طويلاً مديد القوام.

في الهند، وجد كامل زهيري ذلك الجو الروحاني الذي يعشقه ووجد في سيرة حياة غاندي ونضاله تلك القيم التي يحبها، وكذلك نضال الزعيم جواهر لآل نهرو الذي تعلم منه الكثير.

كان يجذبه في الهند اللون الأخضر العميق ورائحة النبات. ومن بين ما تعلمه من نهرو والهند: كيف يفتح الشرقي رأسه على أفكار الغرب، وكيف يصفي الأفكار الغربية في بوتقة شرقية.

بدأ حياته في مدرسة الهند .. مدرسة المتناقضات والتنوع .. لأن التنوع، في رأي كامل زهيري، يعلم الناس المقارنة، والمقارنة تعلم التقدير والتسامح الأخلاقي والتسامح ليس هو الضعف، ولكنه اتساع أفق في التقدير .. إنه مرونة روحية.

الهند .. أعلى سقف في العالم، وأهدأ صوت مؤثر، وأضخم جماهير تتحرك وسط المشاكل المعقدة.

وكامل زهيري ليبرالي حتى النخاع، وديمقراطي حقيقي، واشتراكي معتدل.

وقد تعلم أن أعظم شيء في حياة الشعوب هو .. الأمل .

بين الجبال والصحاري

في الجزائر ، يلاحظ كامل زهيري أن الفتية ليس بينهم مترهل ولا بدين ولا كسول .

وهذا الكاتب الفنان يلاحظ أيضًا أنه لا يوجد في الجزائر من يتثاءب (!) فهي مدينة تتمطى وتتحرك كالبندول أو تقفز كالزناد وتنام فورًا وتصحو فجأة . إنه يريد أن يعرف أسرار الجزائر ولذلك يتحدث هناك مع الوزير والخادم والسائق ومدرس القرية الصغيرة والعامل ورئيس مجلس الإدارة والمحافظ .

وتلفت نظره أشياء لا يتوقف عندها الكثيرون (كالعادة) إنه لا يسمع حديثًا متواصلاً عن الفواجع التي حدثت أثناء سنوات النضال ضد الاستعمار . كما يلاحظ أنهم يزهدون كثيرًا في الحديث عن البطولات أو العذاب أو المعاناة .. والماضي . وكان كامل زهيري يقول لنا : أن من لم يشهد القرى الجزائرية .. لم يشهد الجزائر . ومن يريد أن يعرف بسكرة الجزائر عليه أن يذهب إلى مدينة سكرة ، عاصمة الجنوب التي تطل على آلاف الأميال الصحراوية ، كما أن من لم يشهد الجبال الشاهقة و«المدن التي تستند إلى السحاب» يخونه التوفيق في رحلته .

وهكذا عبر زهيري الجزائر من العاصمة إلى الغرب حتى حدود المغرب ثم إلى الجنوب حتى حدود الصحراء ثم إلى المشرق حتى حدود تونس .

كان يبحث عن إجابة على السؤال :

ما هو سر هذه المقاومة الطويلة ، وما هو سر هذه الثورة المستمرة ؟

وقد عرف .

إنها الروح الجماعية الفريدة .. والأخوة التي جاءت ، وكلها ثمرة طويلة لمهارة طالت

مائة عام وثلاثين .. فالحرب كانت في داخل كل جزائري وكانت حرب بين حضارتين .

قطرات من العطر



أسلوب الكاتب الكبير كامل زهيري مشوق وممتع .. إنه يحدثنا عن زيارته لبيت أمير الشعراء أحمد شوقي الذي يقع على شاطئ النيل في الجيزة ، وقد أطلق شوقي على البيت اسم «كرمة بن هانئ» وهو اسم شاعر الأندلس الرقيق .. فما الذي يلفت نظر كامل زهيري وهو يتأمل بيت أمير الشعراء؟

يسترعي انتباه زهيري أن شوقي إذا أطل من بيته ناحية الشرق يرى قلعة صلاح الدين ومحمد علي وإذا أطل ناحية الغرب .. فإنه يرى الأهرامات الثلاثة . كما لو كان شوقي قد اختار هذا الموقع بالذات ليجمع في وقت واحد ومكان واحد ، أهم معالم مصر ، وهي النيل والهرم والقلعة .

يرصد كامل زهيري ما يراه بعيون عاشق مصر ومعالمها .. وعاشق للتاريخ ، والأدب والفن .

زيارته لكرمة ابن هانئ تجعله يتذكر عميد الأدب العربي طه حسين ، وكيف أطلق اسمًا عربيًا قديمًا على بيته في الهرم ، وهو فيلا «رامتان» أو «الخيمتان» لأن الرامة هي الخيمة .

ويبحث كامل زهيري عن الكتب التي كان يقرؤها شوقي في غرفة نومه .. فهو يبحث عن تفاصيل حياة الشاعر العملاق التي لا نجدها في الكتب أو الصحف .. وما خفي من أسرار بيته .

ويكتشف زهيري أن الكتاب المفضل لدى شوقي هو «نفح الطيب» .. ومنه

استوحى «أميرة الأندلس» . ويجد في غرفة نومه ديوان ابن الرومي والشريف الرضي والبحتري ومختارات البارودي وديوان أنيس الجلساء في ديوان الخنساء وابن زيدون وشرح سقط الزند لأبي العلاء والأنوار الزاهية لأبي العتاهية .

اكتشافات كامل زهيري لا تنتهي .

فقد فوجئ ، وهو يقلب دواوين الشعر . بخط شوقي بالقلم الرصاص فإذا به قد كتب سينيته الرقيقة التي يعارض بها سينية البحتري على الصفحة الأولى من ديوان البحتري!

وهنا يصارحنا زهيري باعترافه الهام :

«كانت سنوات رئاستي لمجلة الهلال - من ١٩٦٤ إلى ١٩٦٩ - أمتع أيامي الصحفية .. حين أصبح قارئًا .. لا كاتبًا أو رئيس تحرير .. فقد كنت أرخى العنان ، سعيدًا، لكبار الكتاب ، ومنهم من كان أكبر مني قدرًا وعمرًا ، ومنهم من كان شابًا . وما زالت في روحي قطرات من عطرهم . ومن عطر السطور ما يبقى هدية من الكاتب إلى قارئه .. وقد بقي في روحي بعض العطر من سطور كتاب جميل للشاعر عبد الرحمن صدقي عن «بودلير» .

أصدر كامل زهيري أعدادًا خاصة من مجلة «الهلال» عن طه حسين ، وعباس العقاد ، وتوفيق الحكيم ، وشوقي .

إنها الرباعية الشهيرة .

وقيمة هذه الرباعية أنها لم تعتمد على المعلومات المعروفة أو الأرشيفية ، وإنما كان يبحث عن الجديد والطريف والإنسان . ونجده يستمع إلى حفيدات شوقي الثلاث ، بولا وخديجة وليلى لعله يعرف المزيد عن أمير الشعراء .

ذكريات كامل زهيري تمثل ذخيرة ثمينة لشباب هذه الأيام .. فكلماته .. قطرات من العطر .



* في زمانـنــا .. العلاقــات ســطحية وعــابرة .. وشواغل الدنيا تفضي إلى التباعد .. فإذا فقد المرء صديقًا حقيقيًا .. يشعر بفراغ مخيف .

أحمد عباس صالح: ذكريات .. غالية

رغم أنه لم تمض على غيابه سوى سنوات معدودة، إلا أنها تبدو كأنها دهور في حضوره، كنت أشعر بأني في مأمن .. وأكثر التصاقًا بالحياة .

عرفت الكاتب والمفكر الكبير أحمد عباس صالح ، قبل أربعين عامًا بمقر مجلة «الكاتب» التي كانت تصدرها وزارة الثقافة ويتولى رئاسة تحريرها .

من السهل أن تعرف كيف تقرأ أفكاره إذا طلب منك ، في أول لقاء ، أن تكتب عن شخصية تثير إعجابه : «أرنستو شي جيفارا» .. الرجل والأسطورة .

لم يقرأ الأوراق التي سلمتها له ، بعد أيام ، وإنما بعث بها فورًا إلى المطبعة .. وعندما نشر المقال قرأه «وكان طويلا» وكانت تلك القراءة هي بداية التعارف الحقيقي والصداقة الوثيقة التي امتدت عبر سنوات طويلة لتصبح أكثر عمقًا ورسوخًا .

■ ■ ■

كنا نجلس لساعات طويلة لوضع خطة كل عدد، مع الدكتور محمد أنيس ،

أستاذ التاريخ ، ويوسف إدريس والدكتور عبد المعبود الجبيلي وسامي داود وبهاء طاهر قبل أن ينضم إلينا الدكتور عبد العزيز الأهواني والدكتور عبد الكريم أحمد والدكتور عبد المحسن طه بدر ونعمان عاشور وكمال رفعت والدكتور شكري عياد ونبيل الهلالي وأديب ديمتري .

وقرر أحمد عباس صالح توزيع المسؤوليات ، فأسند لي مهمة «مدير التحرير» وإلى جلال السيد مسؤولية سكرتير التحرير . وفقدنا ـ في وقت مبكر ـ زميلاً عزيزًا وكاتبًا محللاً ممتازًا من أعمدة المجلة ، هو «عبد الجليل حسن» الذي غادر الوطن ليموت في بلد آخر بعد تجربة مريرة تعرض لها في مصر . وتولى الإشراف الفني على المجلة حسن سليمان ، وسعد عبد الوهاب .

ومن الكتاب المرموقين للمجلة .. الدكتور جمال حمدان والسيد ياسين والدكتور عبد العظيم أنيس والدكتور محمود متولي والدكتور عبد المنعم عبيد والدكتورة لطيفة الزيات والدكتور محمد أحمد خلف الله والدكتور محمد رواش الديب .. ومحمد العزب موسى والدكتورة فاطمة موسى وكثيرون لا تسعفني الذاكرة لرصد أسمائهم جميعًا .

كانت كتيبة ممتازة من المفكرين والكتاب والمبدعين والمحللين السياسيين .. التفوا حول الكاتب أحمد عباس صالح .

وقرر رئيس التحرير البحث عن أصحاب المواهب المتميزة والخلاقة وتقديمهم إلى القراء .. واتفقنا على أن توكل إلى يوسف إدريس مهمة اكتشاف الأدباء الجدد وفتح الطريق أمامهم ، وكان طاقم المجلة يتولى «غربلة» مجموعات القصص التي لا تحصى ، والتي تصل إلى هيئة تحريرها ، ليقدم ما يرشحه من إبداعات ملفتة للنظر إلى يوسف إدريس ليقع اختياره على أحسنها .. وعندئذ تقرر نشر إنتاج صاحب الموهبة .

ومن اكتشافات «مجلة الكاتب» الأديب الرائع «يحيى الطاهر عبد الله» (أتذكر

الآن قصة نشرت له عنوانها «الوشم» وكذلك الشاعر المتفوق أمل دنقل، الذي افتتح إبداعه بقصيدة «البكاء بين يدي زرقاء اليمامة» .. وغيرهما .

التحقيقات التي نشرتها «الكاتب» عن أداء مؤسسات الثقافة في بلادنا أحدثت دويًا ، وكشفت عن سموم كثيرة تفسد المناخ الثقافي .

وفي لقاءات عديدة مع الدكتور محمود الشنيطي والدكتورة سهير القلماوي ، اللذين كانا على التوالي ، ممثلين لوزارة الثقافة في تدبير الأوضاع المالية للمجلة . لمست تقديرًا عاليًا لدور مجموعة الكاتب برئاسة عباس صالح .

التفتيش في الضمائر

تعرض مثقفون مصريون لمحن وأهوال في فترات زمنية محددة .

وفي إحدى المرات ، عرضت الإذاعة رؤية درامية لكتاب وضعه الكاتب الصحفي الراحل عبد العزيز فهمي «الذي شغل فيما بعد موقع نائب رئيس تحرير أخبار اليوم» بعنوان «الاستعمار عدو الشعوب» .. وكان صاحب النص الدرامي هو أحمد عباس صالح ، ووجد الرجل نفسه وجهًا لوجه في جلسة تحقيق ومحاكمة يعقدها له جمال عبد الناصر «في بداية الثورة» ومعاونوه وجاء وقت حاول فيه أصحاب نفوذ إغلاق مجلة «الكاتب» لتحل محلها مجلة أخرى .. واستمرت العوائق والعراقيل إلى أن أطاحت لجنة النظام بالاتحاد الاشتراكي العربي بمدير وسكرتير تحرير المجلة .. قبل أن يتقرر وقفها نهائيًا .

استقلالية الفكر

عندما وقع الحدث الصاعق (هزيمة يونيو ١٩٦٧) ، تحولت مجلة «الكاتب» إلى فصيل من المقاتلين .

استطعنا أن نرسم إطارًا لتوجهاتنا وخطواتنا في استقلالية كاملة عن كل ما كان يتردد في وسائل الإعلام الرسمية .

اتفقنا على أن رفض الهزيمة يعني تعبئة المواطنين للمواجهة والتحدي والنزال ، ورفض الحل السلمي ، الذي لن يكون لصالح مصر عقب هزيمة بهذا الحجم الثقيل ، وفي ضوء موازين القوى التي فرضت نفسها عقب الكارثة ، وكذلك في ضوء الدعم الأمريكي للعدو .

إذن .. لا مفر من الدعوة لحرب تحرير وطنية شعبية ولاقتصاد حرب ، على أن يتواكب ذلك مع تقديم صورة حية لتجارب الشعوب الأخرى التي تعرضت لعدوان أجنبي واحتلت أجزاء من أراضيها ولكنها قاومت وانتصرت .

كانت المهمة الأولى هي رفع معنويات الناس للتأهب لجولة جديدة من القتال نثأر فيها لهزيمتنا ونسترد كرامتنا الوطنية .

كنا نتابع ، بألم ودهشة ، هجمة غريبة يشنها البعض لتجريد المواطن من ضميره الوطني ، حاول البعض التهوين من احتلال سيناء ، وحرص البعض الآخر على الترويج لفكرة أن المهم هو بقاء النظام «الثوري» وليس مهمًا أن نفقد «صحراء رملية!!» ، وقام البعض الآخر بتحذيرنا من أن اختراق الساتر الترابي ، الذي أقامه العدو ، على الضفة الشرقية للقناة ، يحتاج إلى قنبلة ذرية لاختراقه!! » .

في تلك الأيام ، كتب أحمد عباس صالح مقالاً افتتاحيًا في المجلة ما زالت حروفه محفورة في ذاكرتي يقول فيه : أنه إذا لم يحارب هذا الشعب لاقتلاع المحتلين من أرضه . فإنه سيتحول إلى شراذم ممزقة من مدمني المخدرات والكحوليات ، ولن يكون قادرًا على إعادة بناء الوطن وترميم كيانه .

***

الوصية الأخيرة

في آخر لقاء في منزله بقرية الصحفيين في الساحل الشمالي ظل يتحدث طويلاً عن الفقراء والمعوزين وأصحاب الدخول المتواضعة كان يخاطب ابنتي وصديقة لها . قال : إن هؤلاء يستحقون كل تعاطف وتقدير وحفاوة وتكريم .

كنت أتابع تعبيرات وجه ابنتي وصديقتها لأتلمس رد فعل كلماته ، كانتا تصغيان بإعجاب شديد وباهتمام بالغ بعد أن نجح بأسلوبه الشائق والأخاذ في جذب انتباههما لما يقول . كما لو كانت وصيته إلى الأجيال الجديدة .

وأتذكر كيف كان يحرص على الذهاب إلى قرية الصحفيين في عيد الأضحى لكي يوزع على عمال القرية لحوم الخراف .

هناك كان يتابع نمو كل شجرة وغصن وزهرة بشغف وحنان ويجلس سعيدًا بين الخمائل ويستنشق بكل خلية في صدره ، نسمات الهواء النقي ، ثم يقول لي :

ماذا يريد الإنسان من الدنيا أكثر من ذلك .. وأجمل .. ها هي الحديقة الخضراء .. والبحر والطبيعة الساحرة .

ثم ها هو القلم والأوراق والكومبيوتر والإنترنت وفرصة الكتابة في هدوء ، ثم إنني هنا في مكاني هذا ـ أعرف كل ما يجري في العالم عبر القنوات الفضائية . أليس العالم رائعًا ، والحياة متعة كبيرة أرجوك أن تشعر معي بقمة الحبور والانتشاء لمجرد أننا مازلنا نعيش ، وأنصحك بأن تتحرر من الأثقال والهموم وتستمتع بالأوقات الطيبة .. لم يبق لنا في الحياة سوى وقت قليل .. فلماذا نستسلم للمنغصات والكدر؟

ثبت أنه وقت قليل جدًا .

كما لو كان يشعر بقرب النهاية .. ولذلك قرر أن يتصالح مع نفسه ومع الآخرين ،

وأن يحتفظ بالأمل ، وأن يضفي على الوجود لونًا ورديًا .

وإذا نقلت إليه أخبارًا سيئة .. يصمت برهة ويقطب جبينه ثم يستدرك - كما لو كان قد أفاق بسرعة - ليحاول البحث عن شيء إيجابي ، غير مرئي ، يستدعي من خلاله جرعة من الأمل وشعاعًا من ضوء .

كلماته تحاول أن تتنفس .. وعندما تتحدث إليه وتستغرق في التأملات ، تشعر بأن التاريخ لم يكن في عطلة ، وأن عينيه تنقبان تحت السطح الراكد لكي تستخرج ذخائر وإمكانات محبوسة .

***

في زماننا .. العلاقات سطحية وعابرة ، وفي بعض الأحيان يغلب عليها طابع المصلحة . كما أن شواغل الدنيا وأعبائها تلعب دورًا في التباعد وضمور الأحاسيس .

لم يعد في الإمكان أن تجد صديقًا حقيقيًا أو صداقة نموذجية متينة .. فإذا فقد الإنسان صديقًا - بالمعنى الحقيقي والكامل لكلمة الصداقة - فإنه يجد نفسه بإزاء فراغ مخيف .. وتصبح الدنيا خواء ، وتفقد أشياء كثيرة الطعم والمذاق .

ولكن دعونا نجرب نصيحة أحمد عباس صالح .. التي أشك كثيرًا في أنها ستصلح للتطبيق .. بعد غيابه .

وتبقى ذكريات غالية وباقية .. معه .. لا يمحوها النسيان .

■ ■ ■

* يكفي أن تكسب صديقاً من طرازه لكي تتخفف من مضايقات الآخرين وخسة ودناءة البعض .



عبد الوارث الدسوقي : النبل والوفاء

منظومة أخلاقية تتحرك وتتعامل مع الناس والحياة على نحو يجعلك تشعر بأن العالم لا يزال بخير ، وأنه يستحق أن نعيش فيه ونتعايش معه وبأنك آمن من الشرور والسيئات .

أن تجتمع كل هذه الفضائل في إنسان واحد .. شيء نادر ، وأن تكون سعيد الحظ بأن تقترب منه فتحس بنعمة الحياة في ظل هذه الشجرة الوراقة التي تحمل كل الثمار الطيبة .

ما معنى الحياة .. إن لم يوجد فيها أمثال عبد الوارث الدسوقي .

عندما تواجه المتاعب تجد الرجل إلى جانبك دون انتظار وبلا تردد ، يشد أزرك في الأزمات ويرفع معنوياتك ويذكرك بالجوانب المشرقة في الوجود .

أتذكر أنني يومًا كنت ضحية لقضية ملفقة في عهد سابق . وكنت أظن أن زمن زوار الفجر قد ولَّى وانقضى . ولكنني فوجئت بطرقات قبيل الفجر على باب منزلي وتم تفتيش شقتي ووجدت نفسي داخل زنزانة لسبب لم أعرفه في سجن القلعة . إنها نفس الزنزانة التي كنت نزيلاً بها في عهد أسبق (عام ١٩٥٩) .

ولم أعرف بالتهمة الموجهة لي إلا عندما اقتادوني إلى النيابة ، وكانت مفاجأة غير سارة فقد وصل التلفيق إلى أدنى مستوى من العبث والركاكة . وتساءلت عن موقف أصدقائي ورد الفعل لديهم إزاء هذا التدني . في التعامل مع مهنة الصحافة والصحفيين .

لاحظ رئيس النيابة أنني أواجه التهمة بغضب واحتقار ، واشمئزاز من أساليب الخصوم السياسيين .

قال مبتسمًا وبلهجة هادئة :

«نفس المقعد الذي تجلس عليه الآن .. كان يجلس عليه بالأمس عبد الوارث الدسوقي .. إنني أعرفه لأنه صديق والدي الشيخ (...) ».

وأضاف رئيس النيابة قائلاً :

«كان عبد الوارث ينتفض وهو يدافع عنك بحرارة ويمتدح مواقفك ووطنيتك وأخلاقياتك ويستنكر التهمة الموجهة إليك . وقد خرج مطمئنًا تمامًا بعد أن تكلمت معه وأقنعته بأنه لا توجد تهمة من الأساس وأن هذا التقرير المكتوب ضدك لا يستند إلى أي حقائق وأنه أشبه ببلاغ كيدي لأسباب مفهومة» .

كانت زيارة عبد الوارث الدسوقي للنيابة آخر ما أتوقعه .

رجل في موقع حساس وهام مثله ـ نائب رئيس مجلس إدارة مؤسسة أخبار ليوم .. والمشرف على أهم صفحات الجريدة مثل صفحة الرأي ، وصفحة الدين يوم الجمعة .. ينتقل من مكتبه ويتوجه إلى النيابة وهو في حالة «ثورة» ، كما وصفه لي رئيس النيابة ، للدفاع عن صحفي يعرفه ويثق في شخصه ونزاهته الفكرية وسلامة مواقفه .. حتى لو اختلف معها .. يا للسمو الأخلاقي .

هزني تصرف عبد الوارث ولم يهمني ما يمكن أن يحدث بعد ذلك . ولم أشعر

بوطأة الأيام المعدودة التي قضيتها في السجن مع اثنين من أعضاء مجلس الشعب ، وهما أحمد طه وأحمد مجاهد .

يكفي أن هناك رجل من طراز عبد الوارث الدسوقي يتشبثون بالقيم الرفيعة والنبيلة ولا يحسبون حسابًا للمناصب الزائلة .

ويكفي أن تكسب صديقًا من نوع عبد الوارث لكي تتخفف من مضايقات الآخرين وخسة ودناءة البعض .

كان شجاعًا في كل المواقف .

أتذكر تلك الأزمة التي نشبت بين الرئيس السادات والبابا شنودة قبل أن تنتهي باحتجاز البابا في دير وادي النطرون وتحديد إقامته .

دخلت يومًا مكتب رئيس التحرير موسى صبري ووجدت عبد الوارث يصرخ في وجه صديقه رئيس التحرير قائلاً : «البابا شنودة ليس موظفًا في الحكومة حتى تتعاملون معه بهذه الطريقة» .

كان عبد الوارث نموذجًا فريدًا للمتدين الحقيقي الذي يجعلك تحب أن تكون متدينًا مثله .

إنه ذلك التدين الذي لا يقتصر على التمسك بالطقوس والقشور والشكليات وإنما التدين النابع من القلب . ومن طاقة روحية هائلة . وينعكس ذلك في طريقة تعامله مع الآخرين .

ومما يلفت النظر أن عبد الوارث كان يرفض وضع اسمه على الصفحات التي يشرف عليها أو يضع توقيعه على المقالات التي يكتبها ، إنه الجندي المجهول في كواليس الصحيفة .

كان جريئًا إلى حد يفوق التصور .

اقترب شهر رمضان في أحد الأعوام . وكانت إحدى الصحف في دولة عربية تلح عليه لكي يختار من يكتب سلسلة من الموضوعات عن علماء المسلمين في شكل مقالات يومية تمتد حتى نهاية الشهر الكريم .

واعتذر العلماء ورجال الدين الذين اتصل بهم عبد الوارث بحجة أن الوقت ضيق ولا يتسع للكتابة لأن الجريدة تأخرت في طرح الفكرة .

ووقع اختيار عبد الوارث الدسوقي على كاتب يساري في صحيفة الأخبار لكي يكتب هذه السلسلة .

فقد رأى عبد الوارث في هذا الكاتب قدرات علمية تؤهله لأداء هذه المهمة . وفي نفس الوقت ، أراد عبد الوارث أن يساعد هذا الكاتب لأنه فقير ويتلقى راتبًا ضئيلاً .ووافقت الصحيفة العربية على اقتراح عبد الوارث بأن يكون هذا الصحفي غير المعروف بالنسبة لها هو كاتب المقالات بشرط أن تكون المقالات باسم شخصية معروفة . أي أن تقبل الشخصية المعروفة التوقيع باسمها على مقالات لم تكتبها . ووافق الكاتب اليساري لأن كل ما يهمه هو الحصول على مكافأة عن هذه المقالات تساعده على تحمل أعباء الحياة .

واختار عبد الوارث شخصية عامة معروفة تشغل منصبًا مرموقًا واتفق مع صاحبها على أن يضع توقيعه على المقالات . وانتهى شهر رمضان . وجاء وقت إرسال المكافأة المالية من الجريدة مقابل المقالات . ووصل «الشيك» باسم الشخصية المعروفة. واستدعى عبد الوارث تلك الشخصية إلى مكتبه وقدم لصاحبها الشيك متوقعًا أن يصرفه ويعيد المبلغ إلى عبد الوارث ليسلمه إلى كاتب المقالات . ولكن الشخصية المعروفة وضعت الشيك على الفور في جيبها واعتبرت المكافأة من حقها! ووجد عبد الوارث نفسه في مأزق، فقد التزم أمام الكاتب

الحقيقي للمقالات بأنه سوف يتولى تسليمه المكافأة المالية التي ترسلها الجريدة . فما هو العمل ؟ قرر عبد الوارث أن يدفع قيمة المكافأة من جيبه الخاص إلى الكاتب المسكين الذي كان ينتظر هذه المكافأة على أحر من الجمر . وهذا ما حدث .

ورحل الكاتب اليساري عن عالمنا دون أن يعرف أنه تسلم هذه المكافأة من جيب عبد الوارث ، فقد افترض أن الصحيفة التي نشرت المقالات هي التي اعتمدت المكافأة وأرسلتها إلى صاحب المقالات .. الحقيقي (!) . وليس إلى الاسم «اللافتة» أو «الواجهة» . ولم يشأ عبد الوارث أن يحرج صاحب الشخصية المعروفة ، فقد كانت الدماثة جزءًا من تكوينه النفسي .

الصديق عبد الوارث يحترم الكفاءة والإبداع والذاكرة الوطنية والعقل الخلاق .

إنه فيض من العطاء والصفاء ..

يتميز بالحيوية ويتدفق بالنبل والوفاء .

هناك شخصيات تستعصي علي التصنيف . فأحيانًا تحسبه اشتراكيًا متطرفًا .. وفي أحيان أخرى تراه من الإسلاميين المتشددين . وفي مواقف محددة تجده ليبراليًا يسعى لفتح كل الأبواب لجميع الحريات . وفي كل الحالات .. تشعر بثقة ويقين أنه يقول الحق .

كان عبد الوارث الدسوقي يعيش حياة الزاهدين والنُسَّاك حتى تحسبه من المتصوفة القانتين المتفرغين للعبادة .

ويا .. عبد الوارث .. سنفتقد إطلالتك وهمتك وحكمتك .

رحلت عنا والغصّة تملأ قلوب إخوانك ومحبيك الجريحة .. سينادونك دون انتباه يومًا فلا تقلق .. فهذا صدى الحياة والمحبة والمناجاة تحن جميعًا لرؤياك ولروحك

المؤنسة .

تركت هذه الأرض الفانية ، وفيها من تعلقوا بك حيث كنت فيهم الصادق الواعي الأمين .

أما البذور التي غرستها والنفوس التي فارقتها ، فإنها ستحن دومًا لمخاطبتك ولرعايتك ولابتسامتك وتوجيهاتك الأبوية .. فاجعل من روحك الطاهرة طيفًا يحميها ويعطيها الأمان والسلام والإلهام .

فرسان قلائل مثلك.. كم نحن في أشد الحاجة إليهم الآن .. لانتشالنا من اليأس .. وإلى يد تمتد إلينا لتساعدنا في البحث عن مخرج .

كان عبد الوارث .. الفيلسوف والشيخ والمفكر وداعية التنوير .

وما يشغله هو كيف يمكن ترجمة الأفكار والعقائد والمذاهب والقيم على أرض الواقع المعاش لكي يتمكن البشر من العيش سويًا ، في مواجهة الأخطار والكوارث التي تكاد تهدد الأرض بمن عليها وما عليها .. وحتى تنتهي مشاهد حطام يتصارعون عليه وإلا لن يعود هناك ما يمكن أن يرثه العباد الصالحون .

■ ■ ■



* عندما تصبح الكلمة نوعًا من العلاقة الودية الحميمة بين الذين يقرؤون والذين يكتبون.. تجد صاحب هذا القلم .

رجاء النقاش:
دمعة.. رومانسية على الماضي

كان مجرد وجوده يعني استحالة تهميش الثقافة ، فهو من هؤلاء الذين يعتبرون الثقافة من أساسيات الحياة ومن الأولويات القصوى . ولذلك تميزت كتاباته بعمق وشفافية الرؤية إلى الإنسان والحياة .

ومن هنا.. كان رجاء النقاش صاحب قامة كبيرة في عالم النقد الأدبي. وكلما تناقشت معه أو قرأت له .. أشعر بأنه يتيح لنا إطلالة كاشفة على هؤلاء الذين يحفرون لأنفسهم مكانًا في خريطة الإبداع . ويلتقط الحكمة الضائعة في متاهات الزمن وفي مأزق التاريخ .

إنه يقرأ ما بين السطور ، بل.. ما وراء الحروف ، ويحاول إعادة البعض إلى الرشد ، ويدفع الخاملين إلى أن يشعروا بأفراح الآخرين وأتراحهم .

إنه الفن .. إنه الأدب.. وينبغي استخدام أدواتهما وسلطتهما في الاضطلاع بتلك المهمة العجيبة : التغلب على النقيصة البشرية .

كنا نتحدث ذات ليلة .. وفجأة تذكرت الأديب الروسي شولوخوف الذي كان يتمنى لو أن مؤلفاته تسهم في جعل الناس أفضل وأنقى روحيًا .

وها هو «رجاء» يدعونا إلى السعي لإقامة «المدينة الفاضلة» التي كان يحلم بها نجيب محفوظ كأحسن وسيلة لتكريم الأديب المصري العالمي الراحل . إنها «المدينة الفاضلة» التي كان يرنو إليها نجيب ، فهي التي تحرر الإنسان من السيطرة الطبقية ، وما يتبعها من امتيازات غير عادلة ، وهي التي تحطم أغلال الاستغلال بجميع أنواعه بحيث يتحدد موقع الفرد بمؤهلاته الطبيعية والمكتسبة ، وهي التي يكون دخل الفرد فيها كافيًا لتلبية احتياجاته الأساسية ، وهي التي يتمتع الفرد فيها بحرية الفكر والعقيدة في حماية قانون يخضع له الحاكم والمحكوم ، وتتحقق فيها الديمقراطية بأشمل معانيها وتقل فيها سلطة الحكومة المركزية بحيث تقتصر على الأمن والدفاع .

رجاء النقاش هو الكاتب الذي يعوض عن سكوت قديم ، فهو يسترجع الأزمنة التي تكاد تندثر تفاصيلها ، ويطرح أسئلة تأسيسية قد تثير الجدل ، ولكنها تناوئ الأفكار العتيقة البالية ويطلق أفكارًا ثاقبة من عقالها .

إنه يبحث عن كل من أخذوا على عاتقهم حمل مشروع نهضة عربية جادة وعميقة الجذور .. وكل صاحب اجتهادات مستنيرة ، ويفتش عن تواصل الحلقات في تراكيب الهوية المصرية .

ثمة جهد مفتوح على الذاكرة والاستكشاف .

كان رجاء يقول : إن شكسبير إذا أراد أن يكتب عن مشكلة القلق والتمزق الروحي لا يجد سوى الأمير «هاملت» ليعبر من خلاله عن هذه المشكلة ، أما في عصرنا الحالي .. فإنه باستطاعتنا أن نجد «هاملت» هذا موظفًا في الدرجة السابعة أو عاملاً أو محررًا في إحدى الصحف أو طبيبًا في قرية!

ولم يعد مقبولاً في هذا العصر – في رأي رجاء – أن ينفصل الفنان عما يدور حوله

من مشاكل وعما يتردد من أسئلة في حياة الناس وفي نفوسهم .

والحداثة عنده ليست حداثة تقليدية أو سطحية أو تبعية أو صدى لغزو ثقافي . إنها إعادة خلق تنتج عن عملية حوار بين الثقافات .

وفي عالم اليوم ، لم يعد الشاعر الإغريقي هوميروس هو الذي يذهب «مندوبًا» عن البشر إلى دنيا الأسرار والغموض ليعرف كل ما في الحياة من أشياء مجهولة ، ولكن أينشتين.. رجل العلم، ومن على شاكلته، هم الذين يدقون الآن أبواب المجهول ويبحثون عن السر .

و«رجاء» يؤكد على معاني الحرية والسماحة وسعة الأفق ، وتتملكه رغبة دائمة في أن يكون بعيدًا عن الزحام والضوضاء ، ولا يتحمل المزاحمة .

والكلمة عنده ينبغي أن تكون نوعًا من العلاقة الودية الحميمة بين الذين يقرؤون والذين يكتبون ، حتى لو كانت هناك اختلافات في الرؤية أو في الرأي .

إنه من أنصار الفكرة التي تنادي بأنه ما دامت النوايا حسنة .. فالاختلاف ممكن ومفيد، لأنه يؤدي في نهاية الأمر إلى معرفة أفضل ، وتقدير للأمور أكثر نضجًا وصحة .

وهو لا يمارس النقد بعقلية الرجم أو التبجيل والتعظيم للذات أو بإقصاء الآخر . فالأديب قادر على النفاذ ، وعلى ملامسة الحقيقة والذهاب إلى ما هو أبعد وأعمق .. المهم هو العقل والحرية والإنسان .

التطرف المجنون

بعد هزيمة ١٩٦٧، وجدت صحيفة «الأهرام» .. «صعوبة سياسية» في نشر عدد من القصص القصيرة لنجيب محفوظ، لأنها تحتوي على نقد واعتراض . وكان

«رجاء النقاش» يرى أنه من الضروري أن يكتب الجميع ما يحسون به . وطلب من نجيب محفوظ أن يعطيه القصص المرفوضة من الأهرام لينشرها في مجلة «الهلال» التي كان يرأس تحريرها.. ورغم تحذيرات البعض له من سوء المصير .. إلا أنه نشرها .. لتحدث دويًا بين القراء .

الصدق في التعبير ليس خطرًا على الناس في الأزمات الكبرى والأيام الحاسمة ، فيما يرى ناقدنا الكبير الراحل .

وعندما ترددت «الأهرام» في نشر مجموعة قصص «المرايا» لنجيب محفوظ أيضًا، قرر رجاء النقاش نشرها في المجلة التي كان يرأس تحريرها .

اتصل بي في سنواته الأخيرة.. وسألني عن كتابي «نوبار في مصر» الذي نشرته مؤسسة أخبار اليوم منذ عدة سنوات. وسألني عما إذا كانت المؤسسة قد أعادت طبع هذا الكتاب الذي يعتبره هامًا .

وعندما علم مني أن جميع نسخ الكتاب قد نفذت .. قرر إعادة طبعه ونشره من جديد. وفوجئت بطبعة جديدة أنيقة من الكتاب توزع في الأسواق .

رجاء النقاش .. طراز نادر من الناس .. اشتهر بالرقة والتعامل بروح المودة مع الآخرين . ولم يكف عن العطاء حتى يومه الأخير .

■ ■ ■

* يتميز برهافة الحس الوطني.. والبراعة في الكتابة بأسلوب أخاذ.



مصطفى بهجت بدوي: الصدق والنزاهة والموضوعية

لا مراء أن هناك أناسًا من الصفوف الأولى والثانية والثالثة ومن لاذوا بهم في كنف ثورة ٢٣ يوليو ثم في ظل انفتاح السبعينيات .. استغلوا النفوذ وكدسوا الثروات .. واقتنوا العقارات (من العدم) وعاشوا عيشة الملوك والأمراء، وتحولوا إلى «قطط سِمان» .. وفقًا للتعبير اليوغسلافي المستورد بمعرفة الدكتور رفعت المحجوب»، رئيس مجلس الشعب الراحل .

وإذا كان تعبير «أين كنا وكيف أصبحنا» قد اعتادت الثورة استخدامه لبيان الإيجابيات التي تحققت وهي صحيحة وكثيرة، فإن هذا التعبير نفسه يمكن استخدامه فيما يخص نفرًا غير قليل من المتسبين للثورة ممن أثروا ثراء فاحشًا : أين كانوا وكيف أصبحوا؟ ومن أين لهم هذا؟ والأمثلة للأسف الشديد أوسع من أن تُحصر .

هذا ما كتبه «مصطفى بهجت بدوي» وهو واحد من أشد المدافعين عن ثورة يوليو ١٩٥٢ بإخلاص ونزاهة، في كتابه «حكايات سبتمبر ٤٢ - على هامش عهود فاروق وعبد الناصر والسادات» .. وهي كلها حكايات من القلب .

ومصطفى بهجت بدوي الذي عمل بالمحاماة واشتغل بالسياسة والمسائل العامة ومارس الصحافة هاويًا ومحترفًا ، إداريًا ومحررًا ورئيس مجلس إدارة مؤسسة صحفية ورئيس تحرير جريدة يومية وكاتبًا متفرغًا وشاعرًا . وقبل ذلك كله ضابطًا في القوات المسلحة .. من القلائل الذين يتميزون بأكبر قدر من الموضوعية والتجرد عندما يمسك بالقلم ويروي لنا تجاربه والأحداث التي عاصرها ويحكي عن الشخصيات التي عرفها عن قرب وعملت معه أو عمل معها .

إنه شيء نادر في الكتب المصرية أن يصدر كتاب يتناول انطباعات ومتابعات المؤلف لأبناء دفعة معينة من الكلية ومسار كل منهم في مراحل الصعود والسقوط .

شريط ذكريات طويل ومتنوع وحكايات عن ثوار يوليو.. كل ذلك عبر أحداث استغرقت حوالي نصف قرن.. وبإيقاع سريع .. وتمتزج في صفحات الكتاب الذكريات مع اليوميات بطريقة تلقائية .

غير أن أهم سمات الكتاب هو الصدق في كل سطوره .. إنه يؤكد كل ما يستحق التأييد ويندد بكل ما يستحق التنديد بلا تعصب أو أفكار جامدة أو أفق ضيق.

ذلك أن القضية الأولى والمركزية بالنسبة لرجل من طراز «مصطفى بهجت بدوي» هي الوطن والشعب .. وأنت تشعر من خلال كل كلمة يكتبها بأن غرامه الأول والأخير.. هو هذا الوطن وشعبه المكدود .

وما أحلى أن تقرأ كتابًا ينجح صاحبه في أن يكسب ثقتك منذ السطور الأولى ويقنعك بأنه صديقك وبأن الصديق الحقيقي هو من صدقك وأفضى إليك بكل ما لديه ولم يبخل عليك بشيء .. ذلك أن كل ما يريده ويعرف أن القارئ يسعى وراءه.. هو الحقيقة .

وما أروع أن يكون الكاتب صادقًا ونزيهًا وموضوعيًا.. والمؤلف يعتبر أن حق

«المراجعة» مكفول ومطلوب .. فليس هناك ما يرغم الباحث عن الحقيقة على التشبث بوجهة نظره إلى ما لا نهاية إذا ما أثبتت الأيام أنها تحتاج إلى إعادة نظر .

وهكذا فإنه يرى أن لا أحد يملك أن يشطب ثورة ٢٣ يوليو بجرة قلم ، ولا أحد يستطيع أن يصدر حكمًا بأنها نجحت بامتياز .

وفي الحقيقة أن «مصطفى بهجت بدوي» الذي يتميز برهافة الحس الوطني وبراعة غير عادية في الكتابة وبأسلوب أخاذ .. هو الذي نجح بامتياز .

كان على سجيته تمامًا عندما ترأس دار التحرير ، ولم يتوقف ساعة واحدة عن متابعة كل من يكتب في الصحف المصرية وتقييم ما يكتبونه .

وذات يوم جاءني أصدقاء من صحيفة «الجمهورية» قالوا : أن مصطفى بهجت بدوي يريد أن يراك . إنه يقرأ كل ما تكتب ، واتفقنا على موعد . وفي ذلك اللقاء جرى نقاش في كل شيء حول الصحافة والسياسة .

واكتشفت أنني بإزاء شخصية وطنية تتفانى في الإخلاص لهذا البلد .

قال لي وهو يودعني :

«المعركة من أجل هذا الوطن وهذا الشعب .. طويلة وشاقة وتعترضها عقبات هائلة »

■ ■ ■



* في الصحافة.. عمل مع عمالقة ، ولكنه تعلم منهم أن لا يكون مثلهم.

عبد الملك خليل :
صديق .. في رحلة الحياة

سمعت ذات مرة من يقول :

« يستحيل أن تبقى كاملاً بعد رحيل الصديق » .

وهاأنذا أشعر بعد رحيل صديق العمر أن جزءًا مهمًا من تاريخي الشخصي قد اندثر .

ويبدو أن الموت يحاصرنا من زاوية .

أحيانًا .. يتسلل دون أن يصدر عنه فحيح . وفي أوقات أخرى يختار وسيلة الاقتناص ، وقد يفضل المباغتة والانقضاض .

وتجد نفسك بعدها في فراغ مخيف . وإذا حاولت أن تجرب الكلام .. فإنك لا تسمع سوى رجع الصدى . فقد مد الموت يده واختطف عزيزًا ، وغافلك لينتزع صديقًا ظل يشارك في رحلة الحياة لسنوات طويلة . كما لو كان هذا الموت مصمم على حرمانك من متع قليلة باقية ، هي الصداقة والصحبة والمؤانسة ورصيد رائع من الذكريات ، وكما لو كان يصر على تجريدك من نعمة التآلف مع الآخرين الذين وقع اختيارهم عليك ووقع اختيارك عليهم للسفر سويًا والتجوال والمسامرة والمحادثة والحوار وتقاسم في الأفراح والأحزان .

وعندما أتحدث عن « عبد الملك الخليل » ، فإنني أتحدث عن جيل عركته الحياة وقاسى وتعذب طويلاً .

أتحدث عن نموذج طيب لأصدقاء صهرتهم التجارب والمحن ، واجتازوا الأهوال ، فإذا بالصداقة تتألق وتقوى وتزداد متانة وصلابة .. وأتحدث عن خلان أوفياء .. يدركون ويقدرون .. في مواجهة خيبات وتعاسات تدخرها لنا .. الدنيا . أصدقاء يجمعهم توافق النظرة إلى الحياة ، ويعرفون أن الالتفات والتعاطف يحميان من البلادة وباطل الأباطيل .

وعندما يرحل مثل هذا الصديق .. تنطفئ نجمة في السماء .

وأتذكر الآن عبارة للفنان منصور الرحباني :

« أنني أحسد تلك الشجرة التي توجد أمام المنزل ، لأنها باقية .. وأنا راحل » .

إنه يرحل ومعه البقية الباقية من جيل لا يتكرر .

جيل اعتقد أن الكلمة الجميلة يمكن أن تغير العالم ، وأن التفاؤل يصلح ما فيه من خلل وعيوب وكوارث .

جيل ينفتح على مساحات وآفاق .. لا حدود لها .

كان لقاؤنا الأول في فرع دار الكتب المصرية على مقربة من شارع خلوصي بشبرا ، وبادر بطلب التعارف عندما لاحظ أنني أستعير كتابا في الفلسفة . واكتشفنا أن الشغف بالفلسفة ـ يجمع بيننا .

وقد انفتحت النوافذ المقفلة أمامنا على أزمنة وأحداث وأفكار ولاحت أمامنا عقول تخرج من العتمة إلى الضوء .. فإذا بنا نخرج معها .

عندما عرفته ، شعرت بأن هذا الشاب يملك ما يقوله ، وتساءلت : كيف لم أعرفه قبلاً ؟

في شخصيته تنفتح مسام تسمح لأشعة كثيرة بالتوغل إلى داخله ، منها شعاع التاريخ والموسيقى والشعر والرواية والمسرحية والغناء والفن التشكيلي . وكل ذلك في الوقت الذي يتطوع فيه للتدرب على السلاح في معسكر طويحر (بالشرقية) للقتال ضد العدوان الثلاثي عام ١٩٥٦ .

وبينما كان قلبه يلتصق بالهم العام .. وينحاز لروح الجماعة التي تسرى لتغير مجرى التاريخ .. فإن عينه على الموسيقي والشعر ، ويتمنى أن يحين الوقت لكي ترتقي السياسة إلى مرتبة الفن .

وفي الصحافة .. عمل مع العمالقة ، ولكنه تعلم منهم أن لا يكون مثلهم .

أتذكر فترة من حياتي كنا نلتقي في المقهى ، ويشترك في جلستنا كل من آدم حنين ، النحّات الشهير ، والرسام المتميز جورج البهجوري ، والفنان الكبير بهجت عثمان لإجراء حوارات عميقة حول كل شيء يخطر على بالنا .

كان عبد الملك خليل جزءا لا يتجزأ من قافلة شديدة النضج والحضور .

أتذكر أياما أمضيناها في باريس وهو يضع برنامجًا شاملاً لزيارات ومشاهدات وتنقلات ومقابلات ، بينما لا يملك في جيبه سوى ثلاثة فرنكات فرنسية !

وأتذكر جولاتنا في كوبا وفي براج .. وهو يتطلع إلى التعرف على كل جوانب الحياة هناك في أكثر وقت ممكن .

وأتذكر ترحيبه بكل مصري يزور موسكو خلال السنوات التي قضاها هناك مديرًا لمكتب « الأهرام » وكيف كان موضع احترام وتقدير كل سفراء مصر ، الذين لم يترددوا في التشاور معه بشأن قضايا ومواقف دقيقة وحساسة في العلاقات المصرية الروسية .

قال لي المناضل المصري الكبير فاروق القاضي ـ وكان مستشارًا سياسيًا لياسر عرفات لسنوات طويلة : إن عبد الملك خليل أبلغ عرفات ووفده الفلسطيني بخبر

قيام السادات بطرد الخبراء السوفييت من مصر قبل إعلانه. وهو ما لم يكن يعرفه الفلسطينيون .. وهو أمر كانت له أهمية بالغة قبل لقاء الوفد مع الرئيس السوفييتي ليونيد بريجنيف يحقق نجاحًا .

وأتذكر كيف سمع أن صديقًا لنا في باريس لا يجد في غرفته الوحيدة ما ينام فوقه لأنها خالية من الأثاث .. فحمل فوق سيارته « مرتبة سرير » من موسكو إلى باريس ليسعف صديقه .. بعد أن قطع كل تلك المسافة بالسيارة ! . لم يكن هناك من يقدر معنى الصداقة مثله .

كان عبد الملك خليل يتقن الروسية والإنجليزية والفرنسية ، إلى جانب اللغة العربية ، وكان قارئا ممتازا وواسع الاطلاع ، تحتوي مكتبته على أهم وأعظم الكتب بأربع لغات .

وربما كانت طيبته المفرطة وضعفه إزاء أصدقائه ، هما « كعب أخيل » بالنسبة له والوسيلة المضمونة لاصطياده ، فقد كان البعض يقتنصونه من فضائله ، فهو شفاف مثل الزهور ، ومعطاء مثل الأرض المصرية وله نكهة مميزة وتفرد استثنائي . وهو إنسان ودود ولماح .. تسكره الفكرة البكر والجملة النابضة بالمعنى المستتر ، والكلمة التي تختصر كتابا .

إنه عالي القامة ونبيل ومدجج بالمواهب .

كما أنه الضمير المتحرك الذي يستمد أخلاقياته من قواعد راسخة في حضارتنا العريقة .

وكان يحلو له كلما دار الحديث عن علاقة المثقف بالسلطة وتوهم بعض المثقفين إمكان سيطرتهم على الحاكم ، أن يردد حكاية الفيلسوف أفلاطون مع تلميذة حاكم ساراقوطمة ، الذي دعا أستاذه لزيارة مملكته ثم باع أستاذه هناك في سوق النخاسة !

مغامرة في موسكو

كان اتحاد الصحفيين السوفييت قد وجه دعوة لرئيس تحرير الأخبار حسين فهمي وكاتب هذه السطور وعبد الملك خليل . وسبقنا حسين فهمي إلى موسكو ، وكان لابد أن أصل إلى العاصمة التشيكية براج ، ومعي عبد الملك خليل ، عقب حضورنا المؤتمر الثقافي العالمي في العاصمة الكوبية هافانا .

ومن براج ، أبرق اتحاد الصحفيين العالمي إلى موسكو بموعد وصولنا تلبية للدعوة . كان ذلك في شتاء عام ١٩٦٨ .

عاصفة ثلجية كانت تهب على موسكو مع اقتراب الطائرة التي تقلنا .. فتقرر أن تهبط الطائرة هبوطًا اضطراريًا في مطار يبعد حوالي خمسين كيلومترًا عن المطار الأصلي الأقرب إلى العاصمة .

لم نجد أحدًا في انتظارنا . وأشار موظف الجوازات السوفييتي إلى تأشيرة دخول عبد الملك خليل في عصبية ، وهو يتكلم باللغة الروسية ، التي لا أفهمها (ولم يكن عبد الملك خليل قد تعلمها بعد) .

وأدركنا حجم الكارثة التي وقعت . لقد انتهى موعد تأشيرة دخول عبد الملك خليل ، وبذلك لا يستطيع دخول الاتحاد السوفييتي ، ويعتبر مجرد وصوله غير قانوني ويجب أن يعود على أول طائرة حيث كان قبل أن يستقل الطائرة !

كان مجموع ما في جيبي وجيب عبد الملك خليل لا يتجاوز عشرين دولارًا ، فما العمل؟ وإلى أين نذهب؟ وكيف نعود إلى أي مكان على الأرض ، وخاصة إلى الوطن؟

طلبنا من سلطات المطار الاتصال باتحاد الصحفيين السوفييت ـ الجهة صاحبة

الدعوة ـ ولكن .. عبثًا . فقد اتضح أن يوم وصولنا هو يوم الأحد ، وكل شيء مغلق في موسكو ولا أحد في الاتحاد يرد على التليفونات . كما أن البرقية التي تعلن عن موعد وصولنا .. لم تجد من يتسلمها ، لأنها وصلت يوم السبت ، وكل شيء مغلق في موسكو يوم السبت أيضًا . وهذا ما يفسر عدم وجود أي شخص في انتظارنا بالمطار ينقذنا من ورطة انتهاء موعد تأشيرة دخول عبد الملك ، وينقذنا من عدم توافر أي نقود تكفي لكي نستقل أي وسيلة مواصلات عبر هذه المسافة الطويلة إلى موسكو على افتراض تسوية مشكلة التأشيرة !

علاوة على كل ذلك .. فإننا بإزاء مشكلة إضافية هي أنك لا تستطيع أن تجد من تتحدث معه في المطار باللغتين الإنجليزية أو الفرنسية! إذن .. لا مجال لحوار أو تفاهم أو مخرج من هذا المأزق .

قلت لنفسي في تلك اللحظة : لو أن هناك من يريد غزو الاتحاد السوفييتي ، فإن أنسب وقت هو يومي السبت والأحد !

وجدت مقعدًا مريحًا أمام شاشة تليفزيون في ساحة مبنى المطار .. فجلست مستسلمًا في يأس لأشاهد مباراة رياضية! لم يكن هناك ما يمكن عمله ، وحاولت إقناع صديقي عبد الملك بأن يهدأ ويستريح ويعد نفسه لقضاء الليل في المطار إذا تركونا ولم يزجوا بنا في السجن ! والحقيقة أنهم تركونا . ولم يقل أحد لنا شيئًا عقب إبلاغنا بانتهاء موعد التأشيرة .

مضت ساعات ، والظلام يشتد خارج أبواب مبنى المطار ، والريح الثلجية تزمجر بعنف ، وأخذت اتسلى بمراقبة البشر وهم يتحركون هنا وهناك . ووقع بصري على شاب روسي يبدو مخمورًا وقد استغرق في مناقشة حامية مع إحدى الفتيات . ومع مرور الدقائق تحتد المناقشة وتصل إلى مستوى الصراخ .

تبادلت النظرات مع صديقي عبد الملك .

ملامح الشاب ، والنظارة الطبية التي يضعها على عينية توحي بأنه «مثقف» ، وبالتالي قد يعرف لغة أجنبية ، وهذا ما نريده حتى نجد من نطرح عليه مشكلتنا أو يتولى مهمة ترجمة ما نرغب في أن نقوله لسلطات المطار لكي تبحث لنا عن حل .

توجه عبد الملك خليل إلى الشاب والفتاة . وتأكد بالفعل أن الشاب يعرف اللغة الإنجليزية ، وأنه مدرس ، وأخذ يشرح لصديقي محور خلافاته مع الفتاة ، وكيف ترهقه بغيرتها الجنونية ، وخاصة بعد أن سمعت أنه خرج بالأمس مع فتاة أخرى . وتساءل الشاب : «ماذا كانت ستفعل بي هذه الفتاة لو كانت زوجتي؟! » .

وكان لابد أن يساهم صديقي في تسوية الخلاف بين الشاب والفتاة بعد أن وجد نفسه وسيطًا متطوعًا يتلقى الشكاوي من الطرفين!

وفي النهاية نجحت الوساطة ، وتمت تسوية النزاع ، وانصرفت الفتاة راضية (على الأقل .. إلى حين) . وهكذا حانت اللحظة التي يجد فيها الشاب ما يتسع من الوقت لكي يستمع إلى مشكلة هذين الصحفيين المصريين .

أصغى الشاب باهتمام ، كما لو كان في موقع المسئولية ، بينما لم يكن هناك على الإطلاق ما يشير إلى أن له موقعًا خارج إطار مهنة التدريس . وكان هو الذي اكتفى بما سمعه ، ولم يرد أن يسمع المزيد . وطلب منا أن نلزم أماكننا وننتظره .

ويبدو أن الجهد الذي بذله في الاستماع ومحاولة فهم فحوى مشكلتنا .. جعله يفيق قليلاً ، .. فها هو يتحرك في رشاقة ويبتعد ويختفي عن الأنظار دون أن نعرف المكان الذي يتجه إليه .

مضى وقت طويل ، ولم يظهر المدرس . وأقنعت نفسي بأن ذلك الشاب المخمور

نسي كل ما يتعلق بوجودنا بمجرد الابتعاد عن ساحة المطار . ثـم مـا الـذي يستطيع أن يفعله؟ إنه ليس من مسئولي هذا المطار أو من رجال الدولة ، وشكرًا لـه عـلى كـل حال لمجرد أنه أصغى إلينا .

لا أدري كم من الوقت مضى ، عندما ظهر المدرس فجأة .. ومعه رجل طويل القامة ، ضخم الجثة ، كثيف الشاربين ، متجهم الوجه ، يرتدي معطفًا ثقيلاً ويضع على رأسه «الشبكا» (القبعة الروسية) . كان يشبه في مظهره المخبرين السريين كما يظهرون في أفلام السينما المصرية القديمة .

قلت لعبد الملك خليل : ها نحن قد جلبنا على أنفسنا مصيبة كبرى . يبدو أن المدرس استدعى الشرطة للقبض علينا .

أشار المدرس بإصبعه من مسافة غير قريبة لكي نتحرك ونتجه إليه . فعل ذلك بطريقة آمرة . وأدار ظهره ، ومعه الرجل الضخم ، ثم أشار إلينا ، مرة أخرى ، لكي نتبعه . رأيناهما يخرجان من أحد الأبواب الجانبية . وخرجنا وراءهما . ووجدنا أنفسنا بعد أن سرنا قليلاً ، خارج مبنى المطار !

كان المدرس ورفيقه «الرهيب» يتقدمان بمسافة قصيرة ولم يكن هناك مجال لأي حديث أو أسئلة ، فالمدرس ـ كما يبدو ـ لا يرغب في الكلام . وشعرت بأنه يتصرف كما لو كان يريد أن ينتهي من مهمته بأسرع وقت .

خمس دقائق أخرى سيرًا على الأقدام .. ثم رأينا سيارة أوتوبيس كبيرة خالية مطفأة الأنوار . وهنا ، أشار المدرس بإصبعه لكي نركب الأوتوبيس . لم يكن هناك مجال للاعتراض أو الاحتجاج ، وخاصة أن «العملاق» يقف إلى جانبه ، ثم إننا في بلد أجنبي ، وأحدنا لا يحمل تأشيرة دخول صالحة ، ولا أحد يعرفنا ، ولا أحد ينتظرنا ، كما لو كنا قد هبطنا إلى موسكو من الفضاء الخارجي في تلك الليلة من

يناير ١٩٦٨ .

سارع الرجل الضخم إلى ركوب الأوتوبيس وجلس أمام عجلة القيادة ، وأدار المحرك ، وبدأت السيارة تتحرك .

ولدهشتي ، ظل المدرس واقفًا في مكانه في الطريق خارج الأوتوبيس . وبسرعة شديدة ، سألته : «ألن تركب معنا؟» . ولكنه صاح متهللاً ، وهو يلوح بيده ، قائلاً : «وداعًا» .

وانطلق الأوتوبيس وسط الظلمة الحالكة والجليد المتراكم إلى .. المجهول .

ما زال المرجح لدينا أن الأوتوبيس سيقلنا إلى أول مركز للشرطة .

وها هي الساعات تمضي في تثاقل والأوتوبيس يقطع المسافات ، والرجل ضخم الجثة يقود السيارة في صمت تام ، والمؤكد أنه لا يعرف حرفًا واحدًا من أي لغة غير الروسية ، وبالتالي لا مجال لأي حديث معه لكي نعرف مصيرنا .

ومرة أخرى ، قررت أن أترك مصيرنا للمقادير حيث يستحيل أن نلقى بأنفسنا من الأوتوبيس إلى الصحراء الجليدية التي لا يوجد فوقها أو حولها أي أثر للحياة .

إذن .. النوم هو المخرج الوحيد .

لم أعرف كم مضى من الوقت عندما أيقظني عبد الملك من النوم ، وأشار بيده إلى أضواء مدينة بدأت تلوح عبر النافذة . يبدو أننا قطعنا مسافة طويلة . وتطلعت من النافذة لكي أكتشف أننا في داخل مدينة بالفعل . وبعد فترة ، توقفت سيارة الأوتوبيس . ولأول مرة .. يستدير الرجل ضخم الجثة نحونا ، ويشير بيده إلى جهة ما في الشارع ، ورأيت من النافذة ما يشبه مدخل فندق .

قال عبد الملك: إنه الفندق المجاور للمطار الذي كان من المقرر أن نهبط فيه أصلاً .

أخيرًا.. سنجد مكانًا ننام فيه بعد هذه الرحلة المرهقة .

ولأول مرة تطلعت إلى عيني الرجل الضخم وملامحه عن كثب، واكتشفت في تلك الملامح نوعًا من الطفولة البريئة ، وشعرت بأن الرجل لو كان يعرف اللغة العربية لتمنى أن يقول لنا : «حمد الله على السلامة» . وأحسسنا في تلك اللحظة بمشاعر حانية رقيقة تنبثق من داخله .. كما لو كان طفلاً كبير الحجم .

لم يكن معنا ما نقدمه لنعبر عن امتناننا له .. سوى علبة «سيجار» كوبية . وأخذها شاكرًا .

في اليوم التالي نجحنا في الاتصال بمقر اتحاد الصحفيين السوفييت . وجاء مسئول كبير بالاتحاد إلى الفندق الذي نزلنا فيه .

ولن أنسى تعبيرات وجهه ، وهو فاغر فاه ويضرب كف بكف ، ويقول في دهشة بالغة :

كيف دخلتم إلى موسكو؟ من الذي سمح لكم؟ كيف.. وبدون تأشيرة؟ ليس هناك ما يثبت وصولكم إلى موسكو ودخولها؟

ولم يجد الرجل لدينا إجابات على أي سؤال من أسئلته .

وفي النهاية .. كان عليه أن يلزم الهدوء وأن يرافقنا إلى المطار لأننا كنا قد سلّمْنا حقائبنا لقسم الأمانات هناك حتى نتحرر منها ونستطيع ممارسة رياضة المشي داخل مبنى المطار!

واتخذ اتحاد الصحفيين السوفييت الإجراءات التي كان يجب اتخاذها تطبيقًا للقوانين ومراعاة للنظام والأمن ، أي وضع تأشيرات الدخول على جوازات السفر ، والتي تثبت أن الصحفيين المصريين كانت تنطبق عليهما القواعد اللازمة والشروط

الضرورية عند طرق أبواب دخول دولة عظمى!

وعندما أبدى رئيس اتحاد الصحفيين السوفييت استغرابه من دخولنا إلى موسكو بدون تأشيرة، وبدون أي ختم على جواز السفر يثبت دخولنا .. عاد إلى التساؤل : كيف؟ وقلت له : إننا دخلنا بطريقة «ماتياس راست!!» .

إنه الفتى الألماني الذي لم يكن قد بلغ العشرين من عمره في ذلك الوقت عندما استطاع أن يخترق بطائرته ذات المحرك الواحد كل وحدات حرس الحدود وسلاح الدفاع الجوي . ويتوغل لمسافة ٧٥٠ كيلو مترًا في عمق الأراضي السوفييتية بلا عائق أو اعتراض ، ثم يدور دورة حول ضريح «لينين» ، مؤسس الدولة السوفييتية ، قبل أن يهبط في الميدان الأحمر عند بوابة مكتب الرئيس السوفييتي في ذلك الوقت (ميخائيل جورباتشوف) ويوقع على «أوتوجرافات» المارة الذين أصابهم الذهول وهم يتابعون مشهدًا لم يسبق له مثيل عند سور الكرملين العتيد .

ويبدو أن رئيس اتحاد الصحفيين السوفييت أدرك مغزى إشارتي إلى «ماتياس راست» ، لأنه لزم الصمت التام بعد ذلك وتوقف عن تساؤلاته وانتقل إلى الحديث حول موضوعات أخرى .

تلك هي قصة أول زيارة لي لموسكو .

الآن يسافر عبد الملك خليل دون تذكرة إياب ، لأول مرة ، تاركًا أوراقه وكتبه وأصدقائه والورود التي زرعها في قرية الصحفيين في الساحل الشمالي .. وبينما لا يزال عقله متعطشا للمعرفة والشعر والموسيقى والأدب والتاريخ والفلسفة .

ومع ذلك ، فعندما نتلفت حولنا ونفتقده .. سنجده في كل تلك الينابيع التي جعلها تتدفق دون أن تجف أو تنضب .

من الذي يستطيع تحمل متاعب كل الحياة دون رفقة عبد الملك خليل ، ودون

الأسئلة والاعتراضات والهواجس والتوقعات وعلامات الاستفهام التي يطرحها دائماً ؟

هل قهره صمته في الشهور الأخيرة بعد اصابته بجلطة في المخ ولم يعد قادراً على الكتابة.

لقد كان لديه الكثير ليقوله استكمالاً لرحلته الطويلة مع الكلمة المضيئة التي امتدت لنصف قرن يحفل بالمآسي والأزمات والانكسارات والانتصارات .

وكم كان عنده من الأحلام والآمال التي لم يتسع العمر لتحقيقها . وقد بقي مخلصا لخياراته . وربما يمكن اعتباره من الشهداء المؤجلين . ولذلك يغيب ، ولكنه لا يرحل عن الأذهان .

وأكاد أتصوره الآن يستعرض ما جرى ويستشرف ما سوف يجرى ، ويودع صفحات دفاتره رؤيته وتوقعاته .. بينما الابتسامة فوق شفتيه كأنها فراشة ترفرف في الضوء .

■ ■ ■



* عرفته كل ساحات المعارك على امتداد الوطن العربي، فهو في كل مكان تموج فيه تيارات العصيان والثورة.

سعد زغلول فؤاد :
أخطر رجل في مصر!

«لم أنس عم حسن بائع السميط، وهو يسقط على الرصيف المقابل لمسكني وهو ينزف دمًا .. ويهتف لمصر ولرمز المقاومة مصطفى النحاس».

هكذا يكتب الكاتب الصحفي والفدائي المصري الراحل «سعد زغلول فؤاد» في مذكراته.

كان في السادسة من عمره، في ذلك الوقت، عندما شاهد من شرفة منزله في «بني سويف» الجرحى وهم ينقلون إلى المستشفى الأميري على عربات اليد الخاصة بالباعة الجائلين.

ولم يكد يلتحق بالمدرسة الثانوية حتى تزعم زملاءه الطلاب لتنظيم المظاهرات والاضطرابات ضد الاحتلال الإنجليزي والملك وحكومات السراي .. وألقي القبض عليه ودخل السجن لأول مرة في عام ١٩٤٢ وهو يحمل معه آلة الأوكورديون الموسيقية التي كان يهوى العزف عليها! وعندما واصل نشاطه الوطني في كلية الحقوق بجامعة القاهرة تقرر فصله لأنه هتف «تحيا الثورة» والتحق بالجامعة الأمريكية حيث كان يضع القنابل في خزانة ملابسه الرياضية للقيام بعمليات فدائية ضد المحتلين الإنجليز.

ولعب سعد زغلول فؤاد دورًا مهمًا في مقاطعة احتفال الجامعة المصرية بحضور الملك لوضع حجر الأساس للمدينة الجامعية . وعندما حضر الملك ، لم يجد سوى عدد محدود من الطلاب ، فسأل النقراشي باشا رئيس الوزراء عن الحضور من الطلبة فصمت .. ولكن مكرم عبيد باشا وزير المالية وقتئذ أجابه قائلاً : «الطلاب في المستشفيات والسجون .. يا مولاي!» في إشارة إلى أساليب العنف التي استخدمتها قوات الأمن ضدهم .

وعندما أخذ الإنجليز يطلقون الرصاص على المظاهرات الوطنية ، كما حدث في مظاهرة ٢١ فبراير سنة ١٩٤٦ انخرط سعد في الأعمال الفدائية ضد جنود الاحتلال سواء في القاهرة «قبل خروج المحتلين منها» أو في منطقة قناة السويس التي انسحبت إليها قوات الاحتلال .

ومن الأحداث الشهيرة.. قيام سعد زغلول باختطاف الضابط الإنجليزي أنتوني ريجدن مما أحدث ضجة كبرى في بريطانيا .

وعندما ضاق سعد بالملاحقات الأمنية ، تحدث مع طبيب جمال عبد الناصر لكي يبلغ الرئيس بأن يأمر بالكف عن هذه الملاحقات وكان سعد على صلة وثيقة بهذا الطبيب .

ولكن عبد الناصر قال لطبيبه: أن سعد زغلول فؤاد أخطر رجل في مصر .

كانت المهام الصحفية لسعد تتحول بسرعة إلى عمليات فدائية سواء داخل مصر أو في عدة دول عربية .

كل من شارك في الحركة الوطنية منذ النصف الثاني من الأربعينيات في القرن الماضي ، سمع اسمه في المنتديات والمقاهي والاجتماعات العلنية والسرية وفي أوساط الطلاب والمثقفين والنقابيين .

سمعت باسمه قبل أن ألتقي به .

كان ذلك في الخمسينيات من القرن الماضي .

وفي إحدى المرات همس الزعيم الطلابي بكلية الحقوق عادل فهمي في أذني : «إنه زميلي في الكلية ونحن نستذكر المحاضرات معًا وأساعده أحيانًا على أن يتوارى بعيدًا عن عيون البوليس السياسي» . ووعدني بأن يرتب لقاء يجمعنا .

كانت الأحداث تتوالى بسرعة وسعد زغلول فؤاد يقضي في معتقلات مصر ودول عربية متعددة فترات طويلة من حياته . وقد قاتل في عدة جبهات سواء في فلسطين أو الجزائر أو المغرب أو الأردن أو لبنان .

يقول في مذكراته : «ظللت قرابة العام مع الثوار الجزائريين أشاركهم أعمالهم البطولية ، وأنقل لهم السلاح الذي كان يصل إليهم في مواقعهم في الجبال » .

كما قام بتنفيذ عمليات ضد أهداف بريطانية داخل ليبيا ، في العهد الملكي أثناء العدوان الثلاثي على مصر عام ١٩٥٦ ، بالتعاون مع ثوار ليبيين .

ومن أشهر حكايات سعد زغلول فؤاد الصحفية ، أنه انتحل ذات مرة ، شخصية الصحفي الأمريكي «سبنسر ديريل» المحرر بصحيفة «اكسبريس ديلي نيوز» وهي صحيفة وهمية اخترعها سعد لكي يكشف ويضبط ما أسماه بـ« الطابور الخامس» في حالة تلبس .

كان لون بشرة سعد يميل إلى الإحمرار ، ولون شعره كستنائي ، ويعرف كيف يتحدث الإنجليزية باللكنة الأمريكية، مما ساعده على إتقان دوره .

كان الوقت هو ذروة غليان الحركة الوطنية في مصر ، وأراد سعد أن يفضح مواقف بعض زعماء أحزاب الأقلية من أعوان الملك ، الذين تحدثوا معه باعتباره الصحفي الأمريكي «ديريل» الذي سينقل آراءهم إلى أصحاب القرار في لندن

وواشنطن حتى يتأكدوا من ولائهم .

وكان منهم من طالب بزيادة عدد القوات الإنجليزية في مصر إلى عشرة أضعاف! ومنهم من تطوع بالإعلان عن مشروعه لمكافحة الشيوعية التي هي عدوة أمريكا والغرب! ومنهم من طالب بعودة القوات البريطانية إلى احتلال مصر في حالة اندلاع حرب عالمية ثالثة مشيرًا إلى أن هذه القوات ستكون موضع ترحاب من الجميع !

ونشر سعد زغلول فؤاد مقابلاته مع هؤلاء الساسة في صحيفة «الجمهور المصري» وصورهم وهم يتحدثون معه فكانت بمثابة قنبلة مدوية في الشارع المصري، ولزم أولئك الساسة الصمت المطبق ، ولم يجرؤ واحد منهم على تكذيبه .

فقد كشف سعد القناع عن حقيقة مواقفهم الموالية للاحتلال .

وفي أيامه الأخيرة كنا نجلس على مقهى «ريش» نتبادل الذكريات وكان ودودًا وحارًا في مشاعره وتهتز كل خلجاتك من الروح الحميمية التي تطغى على ملامحه وكل حرف من كلماته .

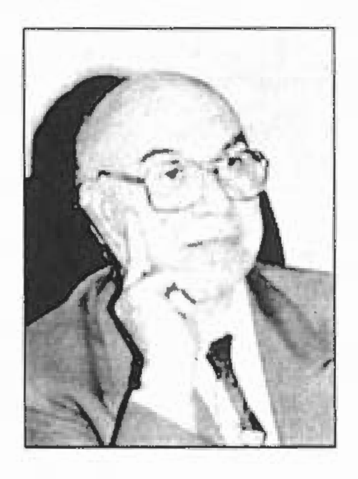
ولشد ما آلمني أن أسمعه يتحدث ذات يوم عن العمل السياسي في البلاد العربية وكيف يفتك بالمعارضة بلا رحمة .. وكيف أن هناك منافقون يعملون على تعكير الأجواء إذا تحسنت؟

اسم سعد زغلول فؤاد يرمز للعمل الفدائي ، ولكل نشاط يقتحم المحظورات ويتحدى أكبر الرؤوس .

عرفته كل ساحات المعارك على امتداد العالم العربي ، فهو في كل مكان تموج فيه تيارات العصيان والثورة . إنه «جيفارا» المصري صاحب قضية ورسالة ، وهب حياته للقضايا الكبرى التي تتعلق بالمصالح القومية العليا لأمته .

وإذا كانت حركة سعد زغلول فؤاد قد هدأت في السنوات الأخيرة، بسبب الأمراض الناتجة عن عمليات تعذيب سابقة تعرض لها، فإن عقله لم يهدأ وروحه الثائرة لم تخمد . فهو من معدن خاص ومن طينة غير عادية .. واسمه كفيل بإعادة الثقة إلى النفوس بالقدرة على الانتصار وإلحاق الهزيمة بكل أعداء الحرية والعدل الاجتماعي .

■ ■ ■



* كم كنا في حاجة إلى هذا الكاتب المفكر الذي استوعب تمامًا التاريخ والتراث .. ودافع عن الحقيقة .

جمال بدوي: مدافع عن الذاكرة التاريخية

أشعر بأن الفكر المصري فقد واحدًا من الكتاب المدافعين بقوة وإخلاص ومثابرة عن الوحدة الوطنية في بلادنا .

إنه الكاتب الكبير الصديق جمال بدوي.

تلك هي التربية التي تلقاها منذ طفولته ، والمناخ الذي نشأ فيه ، وذلك هو مجتمعنا .. في حقيقته وفي أصله وفي فطرته .. قبل أن تهب علينا تيارات غريبة وافدة .

يقول جمال بدوي : «حفظت أوليات سورة القرآن الكريم في بيت عم صليب . وكان عم صليب من أعيان الأقباط في بسيون . ولم يجد حرجًا في أن يؤجر بيته لجمعية المحافظة على القرآن الكريم . وكانت فصول المدرسة لا تخلو من أسماء : مرقس وجرجس ومسيحة وسمعان .

■ ■ ■

«كنا نجلس معًا فوق دكك خشبية متهالكة نحفظ القرآن ونتعلم القراءة والكتابة والحساب ، ونتلقى من أفواه مشايخنا مبادئ الحب والإخاء ، ونتفاعل في بوتقة

الامتزاج الحضاري الذي ورثناه عن أجدادنا منذ آلاف السنين» . ويستكمل الكاتب الصورة .. فنعيش معه أجواء البيت المصري كما نعرفه وكما عشناه جميعًا ، يقول :

«كان قسيس الكنيسة – أبونا متى – يسكن في بيتنا . ونشأت بيني وبينه ألفة عقلية ، رغم الفارق الكبير في السن ، فكنت أجلس معه بالساعات نتبادل الحديث والقصص والنوادر التاريخية . كما نشأت بين أمي وزوجته عشرة قوية .. فكانتا تقضيان سحابة النهار في المشاركة في المهام المنزلية التي تتطلب تعاونًا عائليًا ، وفي الأعياد والمواسم تتبادلان أطباق الحلوى والكعك و«عاشورة» .

ويصف لنا جمال بدوي كيف كانت والدته في غاية الضيق عندما رحلت أسرة «أبونا متى» إلى بيت آخر ، ثم حلت محلها أسرة من القاهرة تضم مدرسًا مسيحيًا حديث الزواج ، وكانت زوجته «ماري» سيدة قاهرية صميمة ليس لها سابق خبرة بالحياة في الريف ، ولكن والدته سرعان ما نجحت في إزالة الإحساس بالغربة عند القاهرية المستوحشة فاندمجت في أسرتهم لدرجة أنها لم تكن تغادر شقة عائلته إلا عند النوم . وكانت «ماري» فاضلة محبة للخير ، فجمعت حولها رهطًا من أطفال الأقباط لتعليمهم الدين وتحفيظهم الترانيم الكنسية . وكانت أصوات الترانيم تتردد في الشارع الكبير . ولم تر والدته أن بيت الأسرة سيتحول إلى كنيسة ، وإنما قالت: إن ما تفعله «ماري» هو تقديم دروسْ في الدين والفضيلة . وعندما رحلت ماري وزوجها ، نظرًا لقرار نقلهما إلى بلدة أخرى ، «شعرنا كأن شيئًا عزيزًا قد انتزع منا . ولما حان وقت سفرهما غادرت أمي البيت حتى لا تشهد لحظة رحيلهما ، وبعدها أقسمت ألا تؤجر الشقة لمغترب حتى تتجنب ألم الرحيل والفراق بعد متعة الألفة والامتزاج .. » .

وهنا يطرح جمال بدوي التساؤل الذي يشاركه فيه الكثيرون :

«هل كان مسلكنا مع هؤلاء الأقباط ، ومسلك هؤلاء الأقباط معنا شيئًا غريبًا فريدًا يثير الدهشة ويستحق التسجيل؟؟» .

ويجيب على هذا التساؤل بقوله : «لا أظن .. بل هي الصورة الطبيعية والمسلك المألوف عند المصريين منذ عاشوا على ضفاف النيل ، يأكلون من وعاء واحد ، ويتكلمون لغة واحدة ويمارسون عادات وتقاليد غاية في التطابق ، حتى ليصعب على الغريب أن يميز المسلم من المسيحي إلا حين يذهب أولهما إلى المسجد ، وثانيهما إلى الكنيسة.. » .

تلك هي لغة الإبن البار لهذا الوطن ، والذي أصبحت مكوناته وموروثاته جزءًا لا يتجزأ من روحه ووجدانه وفكره ومشاعره وسلوكه .

إنه الامتزاج الحضاري بين المسلمين والأقباط في مصر ، كما يقول جمال بدوي .. فقد كان كل ذلك مما أدى إلى تكوين المناخ التاريخي الحضاري والاجتماعي والثقافي لتبلور المفهوم القومي للجماعة السياسية المصرية .

وجمال بدوي شديد الإعجاب بالإمام محمد عبده الذي كان يؤكد على أن الدين الإسلامي الحقيقي ليس عدو الألفة ولا يحارب المحبة ولا يحرم المسلمين من الانتفاع بعمل من يشاركهم في المصلحة ، وإن اختلف عنهم في الدين ، كما كان يذكر أن العارف بحقيقة الإسلام أبعد ما يكون عن التعصب الجاهلي وأقرب إلى الألفة مع أبناء الملل المختلفة ، ولكن أعداء الدين أفسدوا قلوب أهاليه «ولا قلوب أقرب إلى الإصلاح من قلوب أهل مصر» .

عندما وقعت بعض أحداث الفتنة الطائفية في مصر ، أصدر جمال بدوي كتابه الهام : «الفتنة الطائفية في مصر ، جذورها وأسبابها» . وما زالت سطوره تدوي فيما يشبه صرخات التحذير :

«ما الذي جرى يا قوم؟ ومن المسؤول عن هذه الموجات العاتية التي تهب على بلادنا بين الحين والحين ، لتنشر السواد والظلمة والفساد في قلوب أهل مصر وتعكر على المصريين صفاء قلوبهم ونقاء ضميرهم وسلامة نفوسهم؟ هل نتقدم إلى الأمام .. أم نرجع إلى الوراء؟ لقد كان آباؤنا أكثر وعيًا وأعمق فكرًا .. وأرق حسًا .. عندما أدركوا قيمة الوحدة الوطنية .. فتشابكت أيديهم .. هل أصبحنا أقل منهم وعيًا عندما سمحنا للأصابع الخفية بأن تعبث في الظلام وتحيل بلدنا إلى حريق مشتعل؟ أي دين يرضى بالفرقة والانقسام والدمار والانتحار؟ وأي دين يرضى لأتباعه أن يكونوا وقودًا لهذه الحرب الخبيثة؟

لقد خسرنا مقاتلاً شجاعًا في الصفوف الأولى في معركة الدفاع عن الوحدة الوطنية والتراث المجيد والتاريخ الوطني للشعب المصري .

قال عن نفسه أنه كاتب يريد إزعاج قرائه!

وهذا صحيح .. لأن الصديق جمال بدوي لم يكن يكتب «بهدف تسلية القارئ أو الترويح عنه» ، فهو لم يتخيل نفسه شاعرًا يعزف على الربابة ويحكي لرواد المقاهي أمجاد أبي زيد الهلالي ومغامرات الزناتي خليفة ، ولكنه يزعج القارئ حتى يعرف نفسه . ولذلك وقف جمال بدوي في الصف الأول من الكتاب الذين يستعيدون الذاكرة التاريخية لمصر ويسترجعون شخصيتها المفقودة . وها هو يجدد الوعي بهذا التاريخ وبتلك الشخصية . كان مقتنعًا بأن المحتلين والطغاة بذلوا أقصى جهودهم ، ليس فقط لاستنزاف موارد وطاقات هذا الشعب وإذلاله ، وإنما أيضًا .. لطمس ذاكرته وهدم شخصيته .

كان يحاول البحث عن خيط عام يربط بين مراحل التاريخ المصري ، ويبرهن على أنه تاريخ شعب واحد .. فهناك رابطة بين العصور المصرية وتاريخ المصريين مستمر بلا

انقطاع . وكل رحلة في هذا التاريخ لها جذورها في المراحل السابقة ولها تأثيراتها على المراحل التالية .

وتاريخ الأمم التي تتقدم هو التاريخ المتصل الحلقات . والتجديد الحضاري لا يتحقق بقطع الجذور عن التراث القومي والحضاري والروحي للشعب .

يقول جمال بدوي : «لقد عرفت نفسي واحدًا من أبناء هذا الشعب الطيب الصبور ، حمل على صدره أحجار الهرم وارتفع بها مدماكًا فوق مدماك ، وحمل على كتفه القوس والسهم والسيف والبندقية ، وسار خلف تحتمس ورمسيس وصلاح الدين وقطز وبيبرس ومحمد علي ، وأمسك الفأس ليشق ترع المحمودية والإبراهيمية والإسماعيلية ليعم الرخاء والنماء أرض مصر ، ثم حفر قناة السويس ليربط الغرب بالشرق .. » .

متعة الأسلوب الشيق

كان يؤلمه أن ترزح مصر تحت حكم الأجانب واحد وعشرين قرنًا . وفي نفس الوقت ، يرفض الجحود إزاء كل ما هو وطني أو مصري ويستنكر الانبهار بالغرب .

إنه يتقصى ويبحث عن أي معلومات أو وقائع تسد الثغرات في صفحات التاريخ ، ويحاول أن يستجلي المساحات المعتمة أو الغامضة لكي يسلط الضوء على مشاهد حية من تاريخ مصر . ويشرح لنا جمال بدوي الدافع وراء تأليف كتابه «مصر من نافذة التاريخ (كان وأخواتها)» :

«لم يكن همي عند كتابة هذه المشاهد تسجيل أمجاد الملوك والخلفاء والولاة الذين حكموا مصر ، فكتب التاريخ تفيض - والحمد لله - بهذه المعلومات ، ولكن كان همي هو البحث عن أثر هذه الأحداث القديمة في المصريين المحدثين لإيماني بأن تاريخ مصر حلقات متصلة متماسكة ، وأن أحداث اليوم هي بيات الأمس ، ولإقناعي بأن

أحداث التاريخ تجري بقوة دفع مطرد.. » .

وقد قرأ فؤاد سراج الدين ، زعيم الوفد ، كتاب «مصر من نافذة التاريخ» مرتين ، المرة الأولى على حلقات أسبوعية في باب «كان وأخواتها» في صحيفة «الوفد» على مدى خمسة وسبعين أسبوعيًا متتاليًا ، والمرة الثانية بعد أن جمعت هذه الحلقات في ملازم وأعدت للطبع . ويقول سراج الدين : «كانت متعتي بالقراءة الثانية لا تقل عن متعتي الأولى بها ، وذلك لطرافة الموضوعات التي انتقاها المؤلف من تاريخ مصر الحديث ، بدءًا من محمد علي إلى عهد الثورة ، وكذلك للأسلوب الشيق الذي عرف به جمال بدوي» .

ويضيف سراج الدين أن المؤلف عالج الموضوعات التي تناولها في كتابه من زاوية جديدة لم تعرفها الصحف من قبل ، ونجح تمامًا في أن يتلافى الجمود الذي يصاحب دائمًا الموضوعات التاريخية . واعتبر سراج الدين أن هذا الكتاب قد أدى خدمة جليلة لشباب هذا الجيل ، إذ عرّفه بالكثير من تاريخ بلاده وسير زعمائه ، الأمر الذي تعمد المسئولون تجهيله في معاهد العلم لأسباب سياسية معروفة ، كما أن المؤلف كان موفقًا في إعادة الحياة إلى هذه الأحداث التي مضى عليها عشرات السنين .. بعد أن أزال عنها جمال بدوي غبار الجحود والتجهيل .

القارئ .. شريك :

ويرفض هذا المؤرخ الطموح ، وهو يقتحم صفحات التاريخ ، مقولة أن التاريخ يعيد نفسه ، فالزمان ليس ثابتًا لا يتحرك ، كما أن المصريين ليسوا متجمدين بل يقاومون عناصر الفناء . ومن هنا نشأت خصيصة التواصل التاريخي . يقول جمال بدوي :

«حافظ المصريون على تماسكهم وترابطهم ووحدتهم الاجتماعية والسياسية ،

فالعقيدة قد تتغير ، ويتبدل الدين ، ويتحول اللسان ، ولكي يبقى المصريون محافظين على نقاء سريرتهم ومعدنهم وعاداتهم وتقاليدهم » . ويؤكد بدوي أنه يصعب الفصل بين المشاهد والأحداث المتشابهة من تاريخ مصر ، حتى لو باعدت بينها آلاف السنين » .

ويدعو هذا العاشق للتاريخ .. القارئ إلى أن يكمل بنفسه بقية المشوار وينقب في بطون الكتب عن أصول هذه المشاهد الحية من التاريخ وجذورها المدفونة في تربة مصر منذ فجر الإنسانية حتى تكتمل أمامه أجزاء الصورة وتتصل حلقات السلسلة .. ويعرف المصري نفسه .

إذن.. فهو يريد أن يقوم بدور المحفّز والمشجع للقارئ حتى يسعى لطلب المزيد من المعرفة . إنه يقدم له «مشهيات» ويثير فضوله لكي يستحثه على التوغل في صفحات التاريخ .

وربما كان اهتمام جمال بدوي بطرح أسئلة هامة .. من بين الأدوات التي يستخدمها لكي يجتذب القارئ ويشركه معه في التأمل والتفكير والبحث والاستقصاء والدراسة .

مثلاً .. نلاحظ أن بدوي يبحث عن إجابة على السؤال :

كيف استطاع أفراد مغامرون جاؤوا من بلاد أخرى أن يحكموا بلدًا قديمًا وعريقًا كمصر دون أن يكون لأهلها رأي في هذا الحكم؟ أو.. كيف استطاعت جارية حسناء وصعلوكة متشردة وزهرة وحشية ، مثل «شجرة الدر» أن تبلغ القمة وتملك العرش بإرادتها الحديدية؟ وهل فقد المصريون القدرة على السخط والتمرد منذ حكمهم الغرباء قبل ٢٥٠٠ سنة ، فلم يشعروا بالدهشة إذ تحكمهم جارية مجهولة الهوية؟!

ويتساءل جمال بدوي - ويشركنا معه في التساؤل - عن السبب في أن المصريين لم ينصِّبوا «عمر مكرم» الزعيم الصعيدي الأسيوطي الأزهري حاكمًا عليهم بدلاً من محمد علي؟

حقًا .. لماذا لم يفكر المصريون في ذلك؟ ويترك لنا بدوي علامة استفهام كبيرة تجاه هذا الحدث ، بعد أن يطرح اجتهاداته الشخصية ، فهو يفتش في كتب المؤرخين عن تفسير .. فلا يجد .

رحلة عبر القرون

يدعونا جمال بدوي إلى رحلة في أعماق التاريخ . ونلتقي مع عبد الرحمن كتخدا ، الذي يرفض الخزعبلات والخرافات ، ومع المؤرخ الشعبي عبد الرحمن الجبرتي الذي يسجل ما يراه في أمانة ودقة دون ابتغاء مرضاة السلطة .. الجبرتي الحالم دائمًا بأطياف العدل والكاره أبدًا لكابوس الظلم ، ومع نابغة الطب المصري الدكتور محمد علي البقلي باشا ، أمهر الجراحين ، الذي قتله جندي حبشي ، وسليمان باشا الفرنساوي الذي بنى أول جيش مصري صميم ، والشيخ العدوي الذي لم يكرر الانحناء أمام السلطان التركي عبد العزيز ، خاقان البرين وملك البحرين وخادم الحرمين الشريفين ، وانطلق لسانه يخاطب السلطان فيما يجب عليه نحو رعاياه ، وعرفته السجون بعد فشل الثورة العرابية ، .. ومع «ميرابو مصر» ، وهو النائب «عبد السلام المويلحي » في «مجلس شورى النواب» ، الذي صاح في وجه رياض باشا «ناظر الداخلية» ، ٢٧ مارس عام ١٨٧٩ معلنًا رفضه قرار فض الدورة البرلمانية قبل موعدها قائلاً له :

«كيف ينفض المجلس؟ إن الأهالي قد أنابوا عن أنفسهم نوابًا للمحاماة عن حقوقهم ، فمن الواجب أن يعرض جميع ما يتعلق بالأهالي على نوابهم لينظروا فيه

ويتدبروه. من المستحيل أن ينفض المجلس . إننا هنا سلطة الأمة ، ولن نخرج من هنا إلا بقوة الحراب» . وكان «ميرابو» قد أطلق قبل ٩٠ عامًا ، في موقف مشابه ، (عندما اقتحم جنود ملك فرنسا مجلس طبقات الأمة) صيحته الشهيرة : «إننا هنا بإرادة الشعب ولن نخرج إلا على أسنّة الرماح» . وكانت تلك العبارة قد مهدت للثورة الفرنسية الكبرى .

ونصحب جمال بدوي في لقاء تعارف مع «أبو الدستور»، محمد شريف باشا ، الذي ارتبط اسمه بالدستور والحياة النيابية وبكراهية الاستبداد ، وإصراره على حق المصريين في ممارسة الأساليب الحديثة لشؤون الحكم . وكان من ثمرات كفاحه تدوين أول دستور على أحدث المبادئ العصرية عام ١٨٧٩ ، وطلب من مجلس شورى النواب إقراره قبل عرضه على الخديوي إسماعيل حتى لا يبدو وكأنه منحة من «ولي النعم» .

مواقف مشرفة

ويتوقف جمال بدوي عند شخصية البطريرك كيرلس الخامس ، أطول آباء الكنيسة المصرية عمرًا (تولى قيادة الكنيسة في عصر الخديوي إسماعيل ومات في ١٧ أغسطس ١٩٢٧ ، قبل أسبوع من وفاة سعد زغلول) . ويقول بدوي: أن هذا البطريرك كان شخصية فريدة ، فقد شارك في كل الأحداث التي تعرضت لها مصر وساند الثورة العرابية حتى النهاية ، وكان في مقدمة من وقعوا عريضة خلع الخديوي توفيق ، الذي استعان بالإنجليز لضرب الثورة ، ورفض وضع الكنيسة تحت الحماية البريطانية ، كما رفض عروض اللورد كرومر - المندوب السامي البريطاني - لمنح المدارس القبطية معونات مالية ، ووقف إلى جانب ثورة ١٩١٩ .

ونلتقي مع جمال بدوي بشخصيات تركت بصمات لا تمحى في صفحات التاريخ ،

مثل: رفاعة الطهطاوي وعبد الرحمن الكواكبي كما نلتقي بأسماء لا يعرفها الكثيرون لأبطال مجهولين .. دفعوا حياتهم ثمنًا لمواقف مشرفة ، مثل الضابط الشاب اليوزباشي «يوسف أبو دية» ، الذي أعدمه الخونة الساقطين من ذوي الذمم الخربة ممن تآمروا ضد ثورة عرابي ، لأنه كان يحاول وقف الاعتداءات على الأجانب في طنطا ، وهي الاعتداءات التي نظمها هؤلاء الخونة لتقديم مبررات إضافية لاحتلال مصر أثناء ضرب الإسكندرية في يوليو ١٨٨٢ .

ومن أهم الوقائع التي يعرضها جمال بدوي ، واقعة «سينوت حنا» ، الوفدي العظيم الذي افتدى الزعيم مصطفى النحاس بحياته ، فقد لمح جنديًا يسدد حربة إلى صدر النحاس أثناء موكبه في مدينة المنصورة ، فما كان من سينوت حنا إلا أن حمى الزعيم بجسده . وانغرست الحربة في كتف سينوت حنا وانكسر نصلها في لحمه . وكانت الحربة مسمومة . وفاضت روح هذا الشهيد الذي تلقى الطعنة القاتلة ليحمي النحاس .

صلابة النحاس

كنت ذات يوم أقلب في ملف مصطفى النحاس في أرشيف دار أخبار اليوم ، وتوقفت أمام صورة للنحاس وهو نائم فوق «دكة» خشبية على رصيف محطة بني سويف .

تصادف أن جمال بدوي وقع بصره على نفس الصورة في الأرشيف .

ويستهل جمال بدوي عرضه لهذه الواقعة المثيرة بقوله : إن أرشيف الصحف القومية يحتوي على صورة شهيرة للنحاس وهو ينام فوق هذه «الدكة» وهذا صحيح .

إنه يروي هذا الحدث للأجيال الجديدة لكي تعرف حجم التضحيات التي بذلها زعماء الوطنية المصرية .

كان النحاس قد اختار مدينة بني سويف عام ١٩٣١ لتكون أول محطة في جولة طويلة

شاقة ليحث الجماهير على مقاطعة الانتخابات بعد أن ألغي الطاغية إسماعيل صدقي الدستور .. وما أن هبط النحاس ورفاقه محطة بني سويف حتى وجدوها أشبه بثكنة عسكرية ، وإذا بقوات مدججة بالسلاح تحيط بهم وتحول بينهم وبين الحركة ، بينما كانت الجماهير تزحف نحو المحطة بعد أن علمت بوجود النحاس . وحالت المصفحات دون وصول الجماهير إلى مبنى المحطة ، كما لم يستطع الزعيم ورفاقه الخروج من المحطة ، ومرت ١٢ ساعة على هذا الحال . واضطر النحاس ورفاقه إلى النوم على «الدكك» المتناثرة فوق الرصيف حتى إذا لاح القطار المتجه إلى القاهرة ، تقدمت فرقة من الجيش وحملت النحاس ورفاقه قسرًا ووضعتهم داخل القطار ليعود بهم إلى القاهرة .

ظل جمال بدوي يبحث طوال حياته عن الذين ارتقوا بنفوسهم في «معارج الروح» ، و.. عن نبل الصفات ومكارم الأخلاق ، وعن ذوي العظمة الحقيقية وأصحاب البطولات الصادقة .

وتركنا وهو ما زال يبحث وينقب في تاريخ هذا الوطن ليستخرج منه الكنوز والدروس ويلقي الضوء على الجنود المجهولين ويفضح شذاذ الآفاق .

وكان جمال بدوي من أقوى المدافعين عن النسيج الواحد ، وكلماته بمثابة طلقة قوية في وجه كل أعداء هذا البلد ، ودعاة التفرقة وأعداء التسامح الديني .

وكما لو كان عام ٢٠٠٧ قد رفض أن يطوي صفحات قبل أن ينتزع منا زميلاً وصديقًا عزيزًا ، ويحرمنا من استكمال رحلتنا الشائقة معه والاستمتاع بصحبته .. وحواراته .

كما لو كان عام ٢٠٠٧ قد استأصل من جوانحنا أي خاطر يدفعنا إلى التلويح بأيدينا مودعين ، وكما لو كان قد قتل لدينا الرغبة في طرح الأمنيات أو حتى مجرد التطلع إلى عام جديد أفضل من سابقه .



* جاء من القرية قبل أن يستقر في القاهرة. كان يشعر وسط النشاط الفني والثقافي المتنوع في برلين أنه مثل أرنب بري صحراوي جائع. وبعد غيابه .. لا نعرف من أين نستمد جرعات التفاؤل.

فتحي عبد الفتاح: فارس من جيلنا

ظل يعمل بالصحافة منذ عام ١٩٥٦ وعندما أوفدته الزميلة «الجمهورية» في منتصف السبعينات ليتولى مسؤولية مكتب برلين كان الوجه المشرف لصحافة مصر.

إنه الدكتور فتحي عبد الفتاح رئيس تحرير مجلة «المحيط الثقافي» التي تصدرها وزارة الثقافة وعضو مجلس إدارة مؤسسة دار التحرير سابقا.

بصفته عضوًا في اتحاد الصحفيين الأجانب في برلين الغربية ومراسلاً في برلين الشرقية أي في مركز الأحداث وعلى حدود التماس بين الدولتين الألمانيتين وبين المعسكرين الشرقي والغربي).

كان واحدًا من المراسلين القلائل المعتمدين في ضفتي برلين والوحيد من دول العالم الثالث الذي أتيحت له هذه الفرصة فهو أول صحفي غير أوروبي يحقق هذا التزاوج الصحي والفني في عمله وحركته.

كان فتحي عبد الفتاح من الدارسين والباحثين المتميزين في صحافتنا للمشكلة الزراعية وقضايا القرية المصرية والفلاح المصري.

وجاءت مرحلة برلين لكي يكون لها تأثير واضح في حياته لأنها لعبت دورًا في تعميق استعداده الدائم للتفتح على أي أفكار جديدة والحوار معها خارج الأطر التقليدية وبعيدًا عن الجمود والمقولات السلفية .

إنه يلتقي في الصباح مع « هرمان كانت » رئيس اتحاد الكتاب واحد أهم كتاب القصة في ألمانيا الشرقية وفي المساء تجده في ندوة بجامعة برلين الغربية يشارك فيها ألمع كتاب وأدباء ألمانيا الغربية « جونتر جراس » أو يلتقي بالرفيق « لامبرز » عضو المكتب السياسي للحزب الاشتراكي الألماني الموحد (الحزب الحاكم في ألمانيا الشرقية في ذلك الوقت) وفي نفس اليوم يكون على موعد في برلين الغربية مع « فرانز جوزيف شتراس » رئيس الحزب المسيحي الاجتماعي ورئيس وزراء بافاريا لكي يلتقي بعدها مع فيلي برانت رئيس الحزب الاشتراكي الديمقراطي ومستشار ألمانيا الغربية الأسبق .

كل صحفي مصري لابد أن يفخر بأن يكون فتحي عبد الفتاح منتميًا إلى هذه المهنة وبأن يكون ممثلاً للصحافة المصرية .. خارج مصر .

وعندما وقعت أحداث هامة أو جسيمة في مصر ..

يكتب فتحي عبد الفتاح في مذكراته ليقول :

أتمنى أن يكون لي جناحان .. فأطير بهما إلى القاهرة .. قافزًا فوق مرارة الواقع وعدم القدرة . أنني أتابع ما يجري على أرض قاهرتي الحبيبة تتقاذفني موجات مكثفة لانفعالات أسيرة .. » .

هذا الصحفي القادم من القرية قبل أن يستقر في القاهرة كان يشعر وسط النشاط الفني والثقافي المتنوع في برلين أنه مثل أرنب بري صحراوي جائع يجد نفسه فجأة وسط مساحات لانهائية من المروج الخضراء .

ويعرض عليه صاحب دار عربية للطباعة والنشر مكافأة مالية شهرية لكي يكتب عن « الأوضاع في مصر » ولكن فتحي عبد الفتاح يرفض العرض لأنه يوجد في خارج مصر ولا يصح أن يكتب عن واقع لا يعيشه ليل نهار .

كانت له معاييره الدقيقة في تحديد ما يصح ومالا يصح من مواقف سواء خارج مصر أو في داخلها .

ومن هنا أعلن الحرب على هؤلاء الذين يهاجمون مصر من مقاعد المقاهي في المدن الأوروبية وعلى هؤلاء الذين يكتبون عنها وهم معزولون عنها كما أعلن الحرب على الذين اعتبروا الفكر الاشتراكي طفلاً صغيرًا يجب فرض الحماية عليه تحت دعوى الخوف من أن تعصف به نزلات البرد ! واعتبر أن هؤلاء لا يثقون بالمواطن الذي هو الأصل والأساس الذي أقيمت من أجله أنظمة الحكم التي تطلق على نفسها صفة الاشتراكية .

ووقف فتحي عبد الفتاح ضد أصحاب المناهج المصطنعة الذين يرددون شعارات بلا تعمق أو فهم ناضج ودعا إلى طرح كل الحقائق وترك الفرصة للنقد العلني واختلاف الآراء .

ولم يكن هناك في برلين الشرقية من هو على استعداد للاستماع إلى نصائح «قروي» قادم من مصر وصحفي متحمس .. وسقط نظام الحكم في ألمانيا الشرقية وسقط معه من نصبوا أنفسهم أوصياء على الناس وعلى التاريخ .

وعندما فقدت الصحافة فتحي عبد الفتاح بعد نصف قرن من العمل في هذه المهنة لم يكن يملك نفقات علاجه وفي أيامه الأخيرة تعرض لاحتمال أن تلقي به المستشفى على قارعة الطريق .

ومازلت أسمع ضحكاته كلما التقيت به وقلت له مداعبًا : ها قد جاء ممثل القرية

في الصحافة المصرية » !

في اللحظات العصيبة عندما تزحف الكآبة على نفوسنا .. كنا نقرر - نحن أصدقاؤه - أن نلتقي به حتى نحصل على جرعة من التفاؤل تساعدنا على تحمل أعباء الأزمات والمحن وفترات الضيق .

فقد كان الدكتور فتحي عبد الفتاح - يحب الحياة ويلونها بطاقة أمل لا تنفد .

وكان طوال حياته قادرًا على « خلق ابتسامة داخلية مفعمة بالأمل » تعبر بنا أيام القلق والتشاؤم وتعالج الضعف الإنساني لدى الكثيرين .

وكلما خنقوا ابتسامة أو تمكنوا من إطفائها .. يبادر بفتح طاقة أمل جديدة تلقي بظلالها الوارفة بردًا وسلامًا على كل من حوله .

ترى .. من أين نستمد التفاؤل الآن بعد رحيله .

كان فتحي عبد الفتاح يردد عبارة الأديب الألماني « جونتر جراس» في روايته (طبل الصفيح) : هذا زمن لا تبكي فيه العيون .

ورغم ما فيه من معاناة وحزن ، فإن الأجيال القادمة سوف تسميه الزمن الذي لا تدمع فيه العيون » ..

.. ولكن .. كيف ، أيها الصديق ، نمنع الدموع في عيوننا الآن .. ونحن نودعك ؟

إنه يتمثل مقولة المهاتما غاندي :

« أفتح نوافذي لتهب الرياح ناحيتي من كل جانب وأستنشقها ، ولكنها أبدًا لم تستطع أن تقتلع جذوري » .

.. صحيح . لم تفلح كل العواصف والأنواء والأعاصير في اقتلاع فتحي عبد الفتاح من جذوره في القرية المصرية والتربة المصرية .

إنه يبحث عن اللآلئ ولذلك وجد نفسه يغوص في الأعماق .. أعماق الفلاح المصري .

ولم يكن يشعر بالعجز والإحباط .. إلا إذا وقعت أحداث هامة في مصر بينما هو بعيد عنها .

ولذلك كان يقول دائمًا : « الغربة .. آه من الغربة . إنها أخطر بكثير من السجن . كلاهما يفرض العزلة وينأى بنا عن الواقع » .

بصرك أو عقيدتك:

الرحلة من سجن « المحاريق » في الواحات الخارجة إلى القاهرة تستغرق أكثر من خمسة عشر ساعة .. وقد قطع فتحي عبد الفتاح هذه الرحلة عدة مرات ذهابًا وإيابًا .

والسبب : إما أن يذعن لطلب مباحث أمن الدولة بأن يستنكر مبادئه ويخون عقيدته .. أو يفقد بصره ! كان قد أصيب بجلوكوما حادة في عينه اليسرى مما يتطلب جراحة سريعة . وبدأت المساومات : تستطيع أن تخرج الآن من المستشفى إلى بيتك ! اخرج بجلدك وشوف عينيك ومستقبلك . مفيش حاجة تستاهل » !

وعندما رفض فتحي عبد الفتاح أن يجرد نفسه من ضميره ، أرسلوا إليه طبيبًا مأجورًا ليقرر أن عينه سليمة ، ثم يقرر نفس الطبيب بعد ذلك أن عينه ميؤوس منها ، وإن العلاج الوحيد هو استئصال العين المصابة !

شهور طويلة من المعاناة والعذاب .

شهور من الصمود والرفض للمساومات المبتذلة .

يرفض فتحي السقوط .. ويعود إلى الواحات أكثر من مرة : إما أن يقبل

استئصال عينه ليكون مثلاً وعبرة لمن يرفض الركوع أو يدفع الثمن المطلوب أو يحصل على حريته وينقذ بصره !

وفي الواحات ، أضرب أربعة من الزملاء عن الطعام حتى يتم علاج فتحي عبد الفتاح، كان الأربعة هم الدكتور إسماعيل صبري عبد الله ونبيل الهلالي وعبد المنعم شتلة وحلمي ياسين .

ونجحت القيادة السياسية لسجن المحاريق ، بأساليب الضغط المختلفة ، في إرغام الإدارة على ترحيله إلى القاهرة للمرة الثالثة لإجراء الجراحة اللازمة له . وفشلت المباحث في أن تتقاضى ثمن العلاج في شكل توقيع من فتحي عبد الفتاح على استنكار المبادئ التي يؤمن بها .

وثيقة سياسية:

والفصل الرابع من كتاب المناضل والكاتب الصحفي الراحل طاهر عبد الحكيم يحمل عنوان « بصرك أو عقيدتك » ، وهو عبارة عن مذكرات كتبها فتحي داخل المعتقل .

ويسجل « فتحي » تفاصيل هذه التجربة في كتابه الهام « شيوعيون وناصريون » ، وهو وثيقة سياسية نادرة ، وأحد المراجع الضرورية في تقييم المرحلة الناصرية ، سواء في الدراسات الجامعية لنيل شهادات الماجستير والدكتوراه أو في المناقشات السياسية أو في المحاكم . واعتبر البعض هذا الكتاب « رواية تاريخية بشكل فني وأحداثًا واقعية امتزج فيها البعد الذاتي بالبعد الموضوعي» .

الكاتب والأديب المصري العالمي نجيب محفوظ رأي في كتاب « شيوعيون وناصريون » تجسيدًا لجنس خاص من أجناس الإبداع الأدبي والفني يقف على قدم المساواة مع أعمال شبيهة صدرت في الغرب إن لم يفقها ، مثل « عريان بين الذئاب »

للكاتب الألماني « برونو إبيتز » .

الصدق المدهش

وفي حديث الذكريات ، الذي نشر منذ عدة أعوام ، يقول نجيب محفوظ : أن كتاب « شيوعيون وناصريون» تميز بدرجة عالية من الصدق والشفافية ، وكُتب بأسلوب جذاب . ويقول نجيب محفوظ : أنه بعد أن قرأ الكتاب أحس أنه أخطأ حين كتب روايته « الكرنك » التي تناولت المعتقلات في العهد الناصري ، فهو لم يجرب السجون بينما استطاع من دخل التجربة أن يعبر عنها في صدق مدهش .

كثيرون علقوا على كتاب « شيوعيون وناصريون » بإعجاب ، منهم عبد الرحمن الشرقاوي والدكتور على الراعي وكامل زهيري والدكتور عبد العظيم رمضان ومحسن محمد ومحمود عبد المنعم مراد ومصطفى أمين .

وقد صدرت الطبعة الأولى للكتاب ـ عن دار روز اليوسف ـ في الشتاء ١٩٧٦ . وصدرت ثلاث طبعات متتالية من نفس الكتاب في أقل من شهر .

كان « شيوعيون وناصريون» ـ كما يقول فتحي عبد الفتاح ـ تجربة عميقة عاشها ، وحاول أن يقدمها للقارئ بنفس درجة الصدق والمعاناة التي خاض بها التجربة .

مع خالد محيى الدين

شارك فتحي في مظاهرات مارس ١٩٥٤ التي خرجت تهتف للديمقراطية والدستور .

وعندما كان طالبا في كلية الآداب ـ قسم اللغة الإنجليزية ـ أصبح واحدا من الذين اختارهم الدكتور لويس عوض ليشربوا الشاي في منزله عصر يوم الخميس من كل أسبوع ليستمعوا إلى أحاديثه ، وهو يتطرق إلى مسرح الكوميدي فرانسيز

ومسرحيات راسين وموليير وموسيقى تشايكوفسكي والرسم التشكيلي الحديث عند سلفادور دالي وبيكاسو . ولكن فتحي عبد الفتاح يحدثه عن مشكلة الفقر والتفاوت الطبقي والاجتماعي وأحوال القرية والفلاح المصري البائس . ويتوجه الطالب فتحي إلى منزل الدكتور محمد مندور ليستمع إلى أفكاره الجريئة ويتعرف على ثقافته الغزيرة .

وينضم فتحي عبد الفتاح إلى كوكبة صحيفة « المساء » - عام ١٩٥٦ - برئاسة خالد محيى الدين ، ضمن مجموعة من الشبان الذين يحلمون بالغد .

وفي قرية الطويحر - بين الإسماعيلية وبور سعيد - وقف شاب في العشرين من العمر ، في صفوف القتال الأولى متطوعا في صفوف المقاومة الشعبية متأهبا للعمل الفدائي في مواجهة القوات الأجنبية التي تحتل بور سعيد .

وكان الشاب فتحي عبد الفتاح ضمن مجموعة الشبان والشابات العاملين تحت قيادة خالد محيى الدين يتلقون التدريب العسكري في تلك القرية ويضعون الخطط للتسلل خلف خطوط العدو . كانوا يغنون في فرح ويضحكون .. وقيمة الوطن والتضحية عندهم أغلى بكثير من كل قيمة أخرى .

ومن أروع ما كتب فتحي في صحيفة « المساء » .. دفاعه عن ضرورة ارتباط الوحدة العربية بالديمقراطية حتى لا تتعرض هذه الوحدة لنكسة خطيرة ، وهو ما حدث بعد ذلك بالنسبة لتجربة الوحدة المصرية - السورية .

أمنية للأبناء والبنات

وتوقف القلم عن الكتابة عندما فتحت المعتقلات أبوابها واستمرت أيام المعتقل الطويل والكئيب لأكثر من خمس سنوات ، ابتداء من شتاء عام ١٩٥٩ حتى إبريل ١٩٦٤ .

وعرف فتحي في معتقلات القلعة واوردي ليمان أبو زعبل والواحات والحربي وسجن أسيوط وسجن مصر .. ماذا تعني الزنازين الرهيبة والتعذيب البدني والنفسي .

يقول في خاتمة كتابه « شيوعيون وناصريون » :

« قضية أطمح أن يكون كل أبناء وبنات مصر مشاركين فيها شهودا ومحلفين وقضاة .. وأن يكون حكمهم :« أن لا يتعرض أي مصري أو مصرية لأي نوع من أنواع القهر البدني والنفسي لأنهم يحملون رأيا يختلف مع الآخرين . تلك هي قضيتي ، وأعتقد أنها قضية الجميع .. » .

العودة إلى الجذور

قضية أخري حيوية كرس فتحي عبد الفتاح حياته من أجلها :

القرية المصرية والفلاح المصري .

فالفلاحون المصريون ـ في رأيه ـ هم أصحاب تراث إنساني كبير أشرق نوره في مصر منذ زمن طويل .

والفلاح المصري هو أول من ثار على الظلم والطغيان ووقف في وجه الحكام الفاسدين ، ونادي بالشعارات ، مثل : « المساواة» و « خير الأرض لمن يتعب فيها » .

دراسات قيمة في الملكية الزراعية وعلاقات الإنتاج ونتائج الإصلاح الزراعي والعقبات التي تواجه انطلاق الثورة الزراعية ونوعية التغيرات التي حدثت في الهيكل الطبقي والاجتماعي في الريف والعلاقة بين السلطة والقرية .

وتشمل هذه الدراسات قضايا بالغة الأهمية تتعلق بتوزيع الملكية والاستثمار الصغير ، والوقف ، والتعاون الزراعي ، والائتمان والتسويق والإنتاج والدخل ،

والإدارة المحلية ، والهجرة من الريف إلى المدينة ، والمركزية البيروقراطية ، وتصنيع الريف والبطالة .. إلخ ونشر كتاب « القرية المصرية » ثم كتاب « القرية المعاصرة » وكتاب «الثقافة والقرية » .

وكان موضوع رسالة الدكتوراه التي حصل عليها فتحي عبد الفتاح من جامعة ليبزج في ألمانيا هو « الناصرية » تجربة الثورة من أعلي - والمسألة الزراعية » ويشرح فيها الأسباب الموضوعية والذاتية التي أدت إلى تحجيم التطورات والإنجازات عقب إسقاط الملكية في مصر .

وقد علق البروفيسور أرمين بيرز ، أستاذ قسم دراسات الشرق الأوسط في جامعة ليبزج ، المشرف على الرسالة ، بقوله : إنها « تقدم إسهامًا متميزًا في الدراسات العلمية حول قضايا التطور بالنسبة لحركات التحرر ودول العالم الثالث . وقد أثبت الباحث جدارته وكفاءته العلمية في هذا العمل » .

الحرب على جبهتين

ثمة موقف متميز لفتحي عبد الفتاح .

فعندما عارض كامب ديفيد ونظام السادات ، اختلف في نفس الوقت مع الأنظمة العربية الموجودة على الساحة .

كان يحارب على جبهتين : جبهة كامب ديفيد ، وجبهة بعض الأنظمة العربية التي تسابق كل منها في العمل على وراثة الدور المصري . وتصدى فتحي لأقلام صفراء تساندها ثروات بترولية هائلة تشوه وتحد من قدر كل ما هو مصري .

وعارض فتحي أي أشكال تنظيمية لمؤسسات أو اتحادات أو منظمات في الخارج تحل محل المؤسسات المصرية وتكون بديلة لها .

وظل يبحث عن إرهاصات للتغيير ويرفض الاستماع إلى موشحات تقليدية

لا يشغل أصحابها بالهم سوى بتسجيل مواقف والتأكيد على مقولات استنفد الكثير منها أغراضه في عالم زاخر بالحركة والتغيرات غير المسبوقة . إنه يبحث عن الضمانات الأوسع لحرية الخلق والإبداع والابتكار أو عن ما كان يسميه « حرية بلا ضفاف وبلا حدود قاهرة أو كاتمة ».

ضد الجمود

قطعت صحيفة « الجمهورية » راتبه التي كانت تحوله له كمراسل للصحيفة في برلين ، تنفيذًا لتعليمات السادات بشأن الصحفيين والكتاب العاملين في الخارج .

ولم يكن فتحي عبد الفتاح في أي يوم من الأيام ممن يوفرون القرش الأبيض لليوم الأسود ، فهو يعيش حياته بنهم شديد للمعرفة وفقر شديد في المدخرات .

وفي كتابه « الخروج .. الغربة وعصر الانفتاح » يروي لنا حواراته مع عمالقة مثل « برونو ابيتز » ، الكاتب الألماني الشهير الذي يرفض القيود والمونولوج الثابت والجامد في الصحافة والإعلام - في ألمانيا الشرقية - حتى لو كان هذا المونولوج ممتلئًا بالحقيقة ، وينقل لنا شكوى أحد ألمع الكتاب الألمان (ستيفان هايم) من أصحاب العقول الجامدة وقوله إنه لن يترك الاشتراكية رغم محاولات البعض ممن لا يفهمون الاشتراكية على حقيقتها !

الثقافة والسياسة

وفي ساحات النزال الفكري ، كان فتحي عبد الفتاح يواجه نوعية من الناس من تلك التي يكون إيمانها بالاشتراكية أقل بكثير من تمسكها بالسلطة وتسلطها وامتيازاتها ! ويقتنع فتحي بأن انضمام هؤلاء إلى الحزب الاشتراكي الألماني مثلاً يرجع إلى سبب وحيد : إنه في السلطة ، وهم على استعداد للانضمام إلى أي حزب أو جماعة (بغض النظر عن الشعارات والأهداف) تكون في يدها مقاليد الأمور .

هكذا وضع فتحي عبد الفتاح يده على الأسباب العميقة للخلل الكامن في الأنظمة الاشتراكية الأوروبية كما لو كان يتنبأ بسقوطها ويشرح لنا ـ سلفًا ـ العوامل التي أدت إلى هذا السقوط .

ولا غرابة في ذلك ، فهو كما كان يقول عن نفسه :

« أنا أنتمي إلى جيل مارس الثقافة من خلال السياسة ومارس السياسة من خلال الإبداعات الثقافية » .

وأي فارس من هذا الجيل يغادر موقعه لابد أن يترك وراءه فراغًا مخيفًا .

■ ■ ■



* لم فيليب جلاب ملكًا لحزب من الأحزاب وإنما مِلكًا لكل أحزاب مصر .

فيليب جلاب : يساري .. مصري

هذا الحزن على رحيل الكاتب الصحفي الصديق «فيليب جلاب» رئيس تحرير «الأهالي» السابق لدى أصدقائه وزملائه ومعارفه وقراءه .. لا يرجع فقط إلى أنه غادرنا منسلاً في هدوء شديد وفي غفلة منا فترك في قلوبنا الأسى ، وإنما يرجع أيضًا إلى أن فيليب جلاب يرتبط بأساليب ومناهج في التفكير والعمل جديرة بأن تجد من يتأملها ويتمثلها .. ويعرف قيمتها ويمارسها .

أساليب تتصل بالحنو الإنساني .. وقد عرفت هذه الأساليب عن قرب منذ اللحظة التي اقترح فيها فيليب جلاب أن نغني بصوت عالٍ ونحن في داخل عربة السجن التي تنقلنا من معتقل القلعة إلى معتقل الفيوم في أحد أيام شهر يونيو عام ١٩٥٩ وهذا ما فعلناه .. وأشركنا معنا مجموعة من المعتقلين السياسيين التي تجلس معنا في العربة مقيدة بالأغلال ، وتحولت الرحلة الكئيبة الحزينة إلى مهرجان يعبر عن الفرح بالحياة في أحلك الظروف؟

■ ■ ■

ووسط مناخ الإرهاب والتنكيل داخل معتقل الفيوم ومعتقل الواحات كان فيليب جلاب يتحدث معي عن الحب والتجارب التي يخفق لها القلب والمشاعر

الدافقة التي تهز الوجدان وشعرت بأنه يعشق الحب، وبأن عواطفه جامحة ويتطلع إلى تجربة إنسانية هائلة تهز أعماقه.

وتحولت الأيام القاسية إلى ضحكة ساخرة مستمرة تهزأ من المعاناة ومن المحنة والألم وتجعل من الجلادين شخصيات كاريكاتيرية تدعو إلى الشفقة والرثاء..

لم تكن الأيام الصعبة لتؤثر في معنوياته أو تجعله ينظر إلى العالم نظرة سوداء متشائمة..

روح التفاؤل للمستقبل والتحدي للمتاعب هي التي تسيطر عليه في كل وقت ومهما كانت الأحوال.. فهناك الثقة الدائمة في التغيير إلى الأحسن.

مثل غيره في كل مكان.. ممن اختاروا لأنفسهم رؤية مستقلة وطريقة متجددة في النظر إلى العالم والحياة.. فقد تعرض لمضايقات عديدة، فقد أمضى في المعتقلات خمس سنوات (من ١٩٥٩ حتى ١٩٦٤).. بل إن هذا الكاتب الرقيق كان من بين المتهمين بالتحريض على الأحداث ١٨ و ١٩ يناير عام ١٩٧٧.

***

ووسط زحام العمل.. كان يلتفت بإصرار إلى قضايا الفكر والتاريخ.

كنت مريضًا.. عندما جاءني إلى البيت وبصحبته الكاتب الكبير محمد عودة والصحفي الصديق «رياض سيف النصر» ليطمئن على صحتي.. وقال قبل أن يتركني: أن «مذكرات نوبار باشا» التي يتركها معي.. تحتاج مني إلى أكبر قدر من الاهتمام وإنني يجب أن أنتهز فرصة مرضي لكي أقرأها في الفراش وأعدها للنشر. كان يعتبر أن الجميع شركاؤه في عمله.. وأن «السفينة» لا تتقدم إلا بجهد جماعي يشمل أكبر عدد من الكتاب وأصحاب الأقلام من كل الاتجاهات الوطنية.

***

هذا الحزن على رحيل فيليب جلاب يرتبط أيضًا بأسباب سياسية .

فقد كان يمثل وجهًا حضاريًا متميزًا لليسار المصري لأنه لم يكن ينظر إلى اليسار بالمعنى الضيق أي على أنه حلقة محدودة من المثقفين الذين يثرثرون بكلمات غاضبة وعبارات طنانة ، ويرددون النصوص والفقرات من كتب لم يحسنوا فهمها ثم لا يشعر بهم أحد من الناس بعد أن انقطعت الصلة بينهم وبين الواقع الذي يعيشونه .

كان فيليب ينظر إلى اليسار بالمعنى الواسع والعريض فاليسار هو الموقف الوطني الديمقراطي الذي يتطلع إلى شكل متفق عليه من أشكال العدل الاجتماعي .

وهكذا يندرج في إطار هذا اليسار كل إنسان يحب بلاده ويدافع عن استقلالها ويتمسك بسيادتها وحريتها في اتخاذ قرارها المستقل ، وكل مواطن يريد التقدم لوطنه ويقف إلى جانب العدالة ويناصر الفقراء الذين يتحملون الشقاء في الدفاع عن مصالحهم ولقمة عيشهم .

***

ويندرج في إطار هذا اليسار أيضًا كل مواطن يقف إلى جانب الديمقراطية في مواجهة الأساليب التعسفية والديكتاتورية .

وكان هناك من يتهم أمثال فيليب جلاب بأنه كان يشغل مواقع في «السلطة» أو مراكز نفوذ في وقت من الأوقات (أيام عبد الناصر) بينما هم (الذين يوجهون الاتهام) كانوا يدافعون عن الديمقراطية ؟؟ والحقيقة أن فيليب جلاب كان من بين الذين دفعوا الثمن الغالي لمناصرة الديمقراطية في وقت كان من يوجهون فيه هذا الاتهام يصفقون للحكم الفردي وفتح المعتقلات .

المهم أن كل هؤلاء الوطنيين الديمقراطيين ودعاة العدل الاجتماعي ينتمون إلى المعسكر الكبير الذي جاهد فيليب جلاب لكسبه إلى صفه.. فهم الأغلبية الساحقة

من أبناء هذا البلد .

ولذلك كان ما يشغله في كتاباته هو أسعار الضروريات وقد تحدث في إحدى المرات عن أمله في الإبقاء على أسعار الفول والعدس باعتبارهما المواد الغذائية الشعبية الأساسية التي يضطر الفقراء إلى اللجوء إليها عندما ترتفع أسعار السلع الغذائية الأخرى .

أما أبواب الاجتهادات النظرية والإبداع الفكري والخروج على كل النصوص فإنها مفتوحة على مصراعيها والمهم هو احترام العقل وكان أكثر ما يستفزه هو الحديث بلا معنى وبلا منطق وبلا عقلانية .

وكان يؤمن بأن مهمة اليسار الكبرى هي البحث عن الحقيقة ، أما القوالب والأفكار الجامدة والوصفات الجاهزة فإنها لا تقود إلا إلى أرض جدباء ، فهي تعطل الحركة وتسد الأبواب وتفسد البداهة والفطرة والانطلاق .

***

وكان لغة فيليب جلاب في الكتابة سهلة وبسيطة ومشوقة وهي لغة تخاطب مجموع الناس وليست موجهة إلى المثقفين فقط .

إنها لغة الإقناع، لأنه لا يكتفي بأن يكون هو نفسه مقتنعًا بالرأي أو الموقف ، وإنما يجب أن يبذل قصارى جهده لكسب عقول الآخرين والتوغل في أعماق نفوسهم .. فهو لا يسعى إلى التصادم مع جماعات أو أحزاب معينة وإلقاء الأحجار الثقيلة على رؤوس أعضائها أو استفزازهم لكي يردوا عليه ، وإنما يريد أن يجتذب الجميع إلى صفه في أدب متواضع ولو استطاع ذلك فإنها قمة النجاح بالنسبة له .

ولم يعد هناك مكان ـ بمنطق فيليب جلاب ـ لهؤلاء الذين يتعالون على الناس ويدعون أنهم يحتكرون الحكمة والحقيقة ويتصورون ـ وهمًا ـ أنهم القادة في زمن

يرفض احتكار أي حزب للسلطة .

ونتيجة لهذا الأسلوب الذي اتبعه الكاتب الصحفي فيليب جلاب أن الرجل أصبح سياسيًا من الطراز الأول لأنه يوسع دائمًا دائرة الأصدقاء ويضيق دائرة الخصوم وتلتقي عند موقفه وتوجهاته الأساسية كل الشخصيات والأحزاب .

فقد كان يبحث عن نقاط التقاء مع كل من يتصدى للعمل السياسي ويؤكد عليها ويطرح جانبًا نقاط الخلاف. إنه يريد إقامة التحالفات مع كل من تتفتح إمكانات الالتقاء معه ، فهو لا يقف عند هذا الحد بل يجاهد من أجل تعميق نقاط الالتقاء من خلال المناقشة والحوار .

إنه يريد أن يكون اليسار شعبيًا يعرفه ويحبه ويحترمه أغلب الناس ، وكان يكره الانعزال عن مجرى الأحداث ودخول الكهف بأي حجة مهما بدت براقة وبأي ذريعة مهما كانت مغرية ، فهو يرفض أن يغلق على نفسه النوافذ ويحجب الشمس والهواء ثم يقنع نفسه بأنه بلغ شاطئ المعرفة واليقين .. فاليساري ، ومن وجهة نظره ، يجب أن يكون في معترك الأحداث وفي قلبها وأن يتحدث بلغة المواطن العادي وليس برطانة رجال الكهنوت الذين يعتبرون الحقيقة سرًا من الأسرار .. وهو يحب أن يتمتع بعواطف الناس ومساندتهم ولديه حساسية خاصة تجاه من ينتقدونه فهو يريد أن يكون محبوبًا من الجميع ويشعر بضيق إذا عرف أن هناك من يأخذ عليه شيئًا ويسعى على الفور إلى التعرف على هذه المآخذ وإزالة الفهم بشأنها .

إنه يملك هذا القدر الرائع من المرونة الخصبة وبعد النظر والتطلع إلى آفاق أشمل وتجاوز الصغائر وتخطى التفاهات ووضع المصالح القومية العليا فوق كل اعتبار وافتراض أن الناس طيبون وليسوا أشرارًا ملاعبين ، وأنه حتى الخصوم السياسيين ليسوا بالضرورة أعداءًا متآمرين .

كان ذلك هو حجر الزاوية في فكره من هنا كانت عبارة « صفوت الشريف » وزير الإعلام في ذلك الوقت ، ورئيس مجلس الشورى والمجلس الأعلى للصحافة الآن ، في رثاء فليب جلاب معبرة وأمينة وصادقة . قال : « لم يكن فليب جلاب ملكًا لحزب من الأحزاب بل لكل أحزاب مصر » .

■ ■ ■



* سيترك رحيله خواءً هائلاً في حياة كل أصدقائه الذين كانوا يتشوقون دائمًا لملاقاته والاستمتاع بصحبته .

رفعت كمال : مؤسس الصحافة الطبية

الغياب الصاعق للصديق والزميل الدكتور رفعت كمال .. جاء في وقت تشتد فيه الحاجة إلى صداقته وأحاديثه وجلساته الممتعة .

والمأساة هي أن الأصدقاء يرحلون ويتركون لنا كل ما يشعرنا بأنهم جزء من حياتنا .. وبأنهم مازالوا موجودين.. في كياننا .

أتذكر الآن كلمات الكاتب والناقد اللبناني بول شاؤول عندما قال : إننا كلما تقدمنا في السن .. يصبح الموت من أمتعتنا اليومية ، ومن هواجسنا ، ومن الأشياء التي تحيط بنا .. وكلما تقدمنا في السن يكثر عدد الراحلين حولنا ويكبر الموت فينا .. ومع ذلك تصدمنا المفاجأة القاسية والمروعة ، وخاصة إذا كان الراحل إنسانًا مفعمًا بحبه لأصدقائه ، وفيًا لهم بكل ما تعني العبارة .

تصدمنا المفاجأة المخيفة كما لو كان هذا الموت يأتي من الأمكنة البعيدة .

■ ■ ■

الأسلوب الذي كان رفعت كمال يكتب به .. يجعل أكثر القضايا صعوبة وتعقيدًا .. في متناول فهم القارئ العادي فهو قادر على تحويلها إلى موضوع بسيط وشيق

ويسهل استيعابه وفهمه والاستمتاع بقراءته .

ومنذ تقديمه لصفحته المتميزة بعنوان «سلامتك» وتأسيسه ورئاسته لتحرير مجلة «طبيبك الخاص» بدار الهلال ثم «كتاب اليوم الطبي» بمؤسسة أخبار اليوم .. وحتى عودته إلى «الأخبار» لتقديم صفحة «صحتك بالدنيا» وهو يطرح كل ما يشغل القراء من مشكلات وهموم صحية ، ومعها جرعات مستمرة ودائمة من قلمه الساحر الذي يشبه عقاقير الهضم التي تفرز طرق العلاج ووسائل استرداد العافية وتعيد الثقة في إمكانية الشفاء .

وكل من لا يعرف كلمة واحدة في علوم الطب والصحة .. أصبح يملك، بفضل رفعت كمال ، ثقافة عامة شاملة .. تسعفه في اختيار الطريق الصحيح للعلاج .

إنه صحفي من الرعيل الأول في مؤسسة أخبار اليوم ، واحتل مكانه في الصف الأول من المبدعين ، بامتياز ، في العمل المهني . وكان أول محرر متفرغ في العدد الأسبوعي «أخبار اليوم» الذي كان يعتمد على إنتاج محرري العدد اليومي .

وعندما تولى جلال عيسى رئاسة تحرير آخر ساعة ، كان أول ما فعله هو مطالبته بأن يكون رفعت كمال المشرف العام على التحرير ، الأمر الذي كان يحتم عليه أن يعمل لساعات طويلة بلا كلل .. مقابل مكافأة مالية إضافية هزيلة .

كان يشعر بالمرارة في سنواته الأخيرة بسبب إحالته إلى التقاعد ، فقد كان يعتبر أن التقاعد من العمل يعادل التقاعد من الحياة .

وأشهد أن الصحفي الوحيد الذي اهتم وحرص على دعوة رفعت كمال لمواصلة العمل والاستفادة من كفاءته والإشراف على صفحة «صحتك بالدنيا» في «الأخبار» هو محمد بركات ، رئيس تحرير الأخبار .

كنت ..كلما أصابتني وعكة صحية ـ أنا أو أي فرد من أسرتي ـ أتصل به طالبًا

نصيحته في اختيار الطبيب المعالج . وكان يوجهني إلى الاختيار الصائب ، ولكنه لا يكتفي بذلك ، .. ففي كل مرة .. تسبقني إلى عيادة الطبيب توصية خاصة منه للطبيب لكي يولي عناية خاصة للزائر .. فقد كان على صلة وثيقة بكل الأطباء المتميزين في مصر .

ويداوم الصديق الاتصال بي يوميًا للاطمئنان على أن كل شيء على ما يرام .

وأنا أعرف أنه كان يفعل ذلك مع زملاء كثيرين من أبناء المهنة . وكانوا جميعًا يشعرون بأنه يكرس كل جهده لكي يسهر على رعايتهم .

وكان يشعر بمرارة شديدة في سنواته الأخيرة بسبب تحمله نفقات العلاج الباهظة . قال لي ذات مرة :

«الصحفي يعمل أربعين سنة في جريدته .. لا يحتاج خلالها إلى قرص اسبرين لأن صحته جيدة . ولكن.. عندما يشرع في الاحتياج للعلاج .. فإن المؤسسة تتخلى عنه» .

وقد استخدمت نفس العبارة التي قالها لي رفعت كمال في مناقشة دارت في المجلس الأعلى للصحافة حول علاج الصحفيين . وقال لي رئيس مجلس إدارة سابق ـ أثناء المناقشة ـ أن المؤسسات الصحفية لو تحملت تكاليف علاج المتقاعدين من الصحفيين .. فإنها ستشهر إفلاسها!!

وأشهد أيضًا أن الذي وقف إلى جانبي أثناء المناقشة هو صفوت الشريف رئيس المجلس الأعلى للصحافة .

وقبل أيام معدودة .. التقيت مع مكرم محمد أحمد ، نقيب الصحفيين ، وتحدثت معه عن تدهور الحالة الصحية للدكتور رفعت كمال ،. وكيف أنه ينفق من جيبه على العلاج ويتحمل فوق طاقته .

والحق أن النقيب أبدى على الفور استعداده للسعي لاستصدار قرار بعلاج رفعت كمال على نفقة الدولة .

وبادرت بالاتصال بالصديق لإبلاغه بهذا الخبر .. وفوجئت بأنه في العناية المركزة في المستشفى وأن حالته سيئة .. والزيارة ممنوعة . كان الوقت قد فات للتصرف اللائق مع رفعت كمال . ولم تمض أيام معدودة حتى .. فارق الحياة ، كما لو كان قد أراد أن يسجل احتجاجه على تقصيرنا نحوه وتخلفنا عن أداء واجبنا تجاهه .

ترك رحيله خواءً هائلاً في حياتي وحياة كل أصدقائه المخلصين الذين كانوا يتشوقون ، دائمًا ، لملاقاته والحديث معه والاستمتاع بصحبته والإصغاء إلى تجاربه الثرية في الحياة والصحافة وذكرياته عن العمالقة الذين عمل معهم وعرفهم عن قرب . إنه يضيء ما حوله .. بفيض من العطاء والصفاء .. وكلماته تقرّب المسافات وتكشف عن مكنونات روحه الطيبة الرصينة المتزنة وطاقته المشعة .

ولن أنسى كلماته الرقيقة وروح المودة والأخوة عندما تحدث معي من غرفة العناية المركزة قبل أيام قليلة من رحيله .. كما لو كان قد قرر أن يودعني بعد معاناة طويلة وشاقة وبعد أن تحمل أكثر من نصيبه من العذاب .

حيويته وحبه للحياة كانا يعلنان عن التحدي الأخير لشبح الموت .

■ ■ ■



حسن فؤاد:
وتبقى الأوراق.. وما ينفع الناس

قبل أن يصدر عدد من مجلة «الإذاعة والتليفزيون» حاملاً نبأ برنامج أسبوعي تليفزيوني جديد تقرر تقديمه تحت عنوان «أبيض واسود»، من إعداد الفنان والكاتب الصحفي «حسن فؤاد» وإخراج أحمد بدر الدين، كنا قد شيعنا «حسن فؤاد» إلى مثواه الأخير.

ففي الوقت الذي كان الموت يترصد فيه هذا الفنان الكبير.. كان الرجل يعمل في هدوء ليقدم مساهمة جديدة في صورة إنجاز هائل، كما عودنا أن يفعل.

قبل أسابيع من رحيله كان يكتب سيناريو «مسحراتي رمضان»، وينطلق مع فريق العمل (سيد مكاوي ـ المصور محسن نصر ـ المخرج فتحي عبد الستار ـ المنتج المنفذ محمود سامي) في شوارع القاهرة وطنطا والإسكندرية والسويس لتصوير المشاهد الخارجية للمسحراتي. وقال النقاد: أن سيناريو حسن فؤاد يواكب تمامًا أشعار «فؤاد حداد»، وأنه هو ـ حسن فؤاد ـ الذي رسم في السيناريو تلك الطفلة الملائكية التي تصاحب المسحراتي.

■ ■ ■

وحسن فؤاد عملاق في مجال الصحافة والرسم وكتابة السيناريو . ويتذكر الجميع من إبداعاته الكبرى ذلك السيناريو الذي كتبه لفيلم «الأرض» المأخوذ عن رواية عبد الرحمن الشرقاوي وأخرجه يوسف شاهين ، وغير ذلك من أعمال كبرى .

وحسن فؤاد كاتب من الصف الأول ، يتميز بأسلوب أخاذ ومبدع وجذاب ، فهو قادر على أن يجعل من مجرد واقعة مألوفة أو انطباع عابر .. تجربة حية ذات أبعاد إنسانية عميقة وجديدة .

وسط شواغله استأنف «حسن فؤاد» الإشراف على تحرير مجلة «الغد» التي عادت إلى الصدور في السبعينيات بعد غيبة دامت أكثر من ثلاثين سنة وكانت من أرقى المجلات الفكرية والثقافية .

وفي تقديمه للمجلة العائدة ، يسجل حسن فؤاد مشاعره حول سنوات المحنة الطويلة التي عاشها هو نفسه ، فقد كان من ضحايا إجراءات الاعتقال وسنوات السجن الطويلة .

كتب يقول : «عشنا ثلاثة حروب ، وخضنا عشرات المعارك الثقافية والسياسية ، وشهدت مصر خلال هذه الأعوام الثلاثين مئات الأدباء والفنانين يدافعون عن الحقيقة ويواجهون السجون والمعتقلات ويكتبون بدمائهم قصصًا نادرة في البطولة والاستشهاد ، كانت في الماضي وقفًا على المشتغلين بالسياسة وحدهم » .

ورغم ذلك ، فإن حسن فؤاد لم يكن في يوم من الأيام متشائمًا فهو يقول في تقديم نفس المجلة :

«.. كثير من أحلام الماضي تحول إلى حقائق .. والبذور التي نثرناها في الماضي لم تذرها الرياح ، ولم تذهب سدى ، بل لقد تحولت إلى شجرة أصلها ثابت وفرعها في السماء ومعظم الذين شاركوا في إصدار الغد قبل ثلاثين عامًا ، بأقلامهم وأموالهم ،

أصبحوا نجومًا في سماء الثقافة والفن : عبد الرحمن الشرقاوي ، وأحمد بهاء الدين ويوسف دريس وفتحي غانم وأبو العينين وزهدي وزكريا الحجاوي ، وغيرهم » .

وظل حسن فؤاد يبحث عن كل أصحاب الموهبة والرأي لكي يدفع بهم - كما كان يفعل دائمًا - إلى مقدمة الصفوف . إنه يرفض «التبعية وأمراض الاستهلاك واللامبالاة وفلسفة دعونا نعيش اللحظة الآتية ولو بالاغتصاب » .

كان يتطلع على الدوام إلى تقديم نموذج إنساني «يحترم عقلية القارئ ولا يتردى في ذلك الجمود أو تلك السخافات التي تنتج باسم الفن الاشتراكي أو التي تتخذ من تحريك الغرائز والهروب من الحياة نموذجًا للفن في العالم الغربي » .

إنه يريد ثقافة وطنية تقدمية تنبثق من رغبتنا في تغيير العالم الذي نعيش فيه إلى عالم أفضل ، عالم ليس فيه مواطن عربي لا يستطيع أن يأكل أو يتعلم أو يسكن .. ولا يزاحم إنسان إنسانًا على أرضه أو موطنه ويعيش شاردًا في عصر علوم الفضاء والكمبيوتر .

ولكن ما هو السبيل إلى تحقيق ذلك كله؟

الخطوة الأولى : من وجهة نظر الكاتب الفنان حسن فؤاد هي «إطلاق سراح القيادات الثقافية الأصيلة جميعًا فتتفاعل بلا قيود ولا سدود ، وتصوغ الوجدان القومي الواحد في جوهرة والمتنوع في أشكاله ومظاهره ، فليس في الثقافة مسموح وممنوع . وعالم الثقافة في غير حاجة إلى ضباط مرور ، إنما هو بوتقة يختلط فيها الزبد بما ينفع الناس ، ثم يذهب الزبد .. ويبقى ما ينفع الناس » .

إنه يشيد بأي خطوة شجاعة للخروج من نطاق الأفلام المألوفة التي تمثل «الحدوتة» الواحدة إلى نطاق الفيلم «المثقف» الذي يتحول فيه المخرج إلى مؤرخ وراوية وكاتب مذكرات يسحب أفكار المؤلف من عالم الكلمة المكتوبة .. إلى العالم

السحري للسينما حيث الصور الملونة المتحركة .

وكم نحن في حاجة الآن إلى تذكر بعض آراء حسن فؤاد :

«الترفيه لا يمحو الجدية ، ولا يطغى على الفن أو الفكر ولا يعني هذا أن تكون السينما دعوة إرشاد وتوجيه وتعليم فحسب ، ولكنها دعوة الضمير الصريح الحي ، الذي يرى حتى سقطات الإنسان ومآسيه قدرًا من المسئولية يلتزم بالبحث والاكتشاف والتطهير ، وليس مجرد التشفي في الجروح أو الإعلان عنها ! » .

وهو يوجه إلى زملائه الكتاب تحيات من القلب ، لأنه يحبهم ويقدر دورهم المؤثر .

يقول لنجيب محفوظ : «للحق أنت ما زلت آخر وأعظم الفرسان القدامى الذين يدافعون حتى الآن عن روح ثورة ١٩١٩ ، وكأنك تريد أن تعيد لها كل الاعتبار الذي حاولت ثورة يوليو أن تسحبه منها » .

ويقول لتوفيق الحكيم :

« أجمل ساعات العمر هي التي قضيتها مع كل كتاب من كتبك في شبابي . ما أحوجني الآن في زمن الكآبة إلى أن أعود إلى قراءة كتبك من جديد » .

كان حسن فؤاد يبحث عن شعاع من الضوء في كل عمل فني .

وهو يكتب بأسلوب شيق «حواديت ليل» ثم «بالبريد المستعجل» في «صباح الخير» فينقلنا إلى أجواء ناعمة ، حتى وهو يقص علينا تجربته المثيرة مع «الحلاق» .. كيف بدأت وكيف انتهت؟

وهو يشرف على «نادي الرسامين» في مجلة «صباح الخير» الذي تأسس سنة ١٩٥٦ .

كان حسن فؤاد موضع ثقة واحترام وإعجاب كل زملائه . ولاحظت ذات مرة

كيف يطلب الأستاذ لويس جريس ، رئيس تحرير المجلة ، معرفة رأي حسن فؤاد في مسائل وقضايا عديدة ، لأنه يحب أن يستنير برأي هذا الرجل الوقور الهادئ ، الذي لم يعشق في حياته إلا الحقيقة .. والحقيقة وحدها ، واشتهر بالنزاهة والحكمة .

كنت أزوره في شقته بمنيل الروضة ، وأجد العديد من أصدقائه يعتبون عليه ، بل يوجهون إليه اللوم أحيانًا ، لأنه يرى أن «فلانًا» رجل «طيب» ، بينما يرون - هم - عكس ذلك ، والحقيقة أن حسن فؤاد كان هو ذلك الرجل الطيب الذي يحاول أن يقنع الآخرين أو يقنع نفسه بأن الآخرين .. هم أيضًا .. طيبون! » .

إنه يكتب «بالبريد المستعجل» إلى إبراهيم نافع - بصفته نقيب الصحفيين في ذلك الوقت - ليقول له في صراحة محببة :

«رغم أننا أدلينا بأصواتنا للزميل جلال عارف .. » ثم ينطلق في دفاع رائع عن زملاء وأبناء مهنة الصحافة ، ويقول :

«لعل أهم الدروس التي استفادها الصحفيون خلال مسيرتهم الشاقة في السنوات الأخيرة ، أن السلطة مهما استبدت بالرأي واستعانت بالقوة ، لا تستطيع أن تحطم قلمًا شريفًا ، ولا أن تصادر رأيًا حرًا طالما بقي على هذه الأرض كاتب وقارئ.. والسلطان مهما طال به الزمن .. لا يلبث أن يذهب .. ويبقى الصحفي ، وتبقى الأوراق .. ويبقى التاريخ! وكل الذين تسلحوا بدروع السلطة ما لبثوا أن اكتشفوا أنه لا دوام للباطل ، وأنه لا يصح إلا الصحيح .. » .

كان كل ما يتمناه أن تستعيد الصحافة المصرية سابق كرامتها ومواهبها ، وابتسامتها .

ولا أنسى أبدًا ما كتبه حسن فؤاد في عام ١٩٨٢ تحت عنوان «الموت في الغربة» ليروي قصة وفاة الزميل الصحفي المصري «أحمد فوزي» في مستشفى كينجستون في

ضواحي لندن .

وكنت ألتقي يوميًا في بيروت مع أحمد فوزي في أيام الرعب خلال الحرب الأهلية في لبنان في عامي ١٩٧٥ و١٩٧٦ بينما القنابل تتساقط وتنهمر من حولنا طول الوقت .

وذات مرة كنا في شقته ـ وكانت في طابق علوي وشعرنا بأن المبنى يتأرجح ويهتز وسوف يتداعى في أية لحظة . وقد غادرت بيروت في سبتمبر عام ١٩٧٦، عائدًا إلى مصر بينما غادرها أحمد فوزي إلى لندن ليبحث عن عمل في أي صحيفة تصدر باللغة العربية هناك ، لأن المشرفين على الصحيفة التي يعمل بها في القاهرة كانوا يلاحقونه بالاضطهاد والتنكيل .

أخذ حسن فؤاد ينقل الكلمات من مذكراته في لندن ويرسم ـ على حد تعبيره ـ صورة عظيمة لرجل بسيط .. فاضل .. كان رمزًا لكل الصحفيين الذين يعملون في صمت وراء الكواليس ورمزًا لكل المغتربين الذين شرفوا مصر في الخارج ثم عادوا في صندوق من الرصاص وفوقه جواز سفر شطب عليه بالقلم الأحمر وكتبت عليه كلمتان : «يُلغى للوفاة» .

حسن فؤاد يقدم لنا نموذجًا للمناقشات السياسية التي كانت تجري بين أصدقاء أحمد فوزي وهو على فراش المرض ، ويقدم لنا نموذجًا من الأطباء والممرضات ، يصلح كل نموذج منها لكي يشكل ملامح قصة متكاملة .

ويتابع حسن فؤاد ، ببراعة واقتدار العالم النفساني ، تطور حالة الصحفي المريض ورفض أقرب الناس إليه تصديق ما يقال عن اقتراب شبح الموت . وفي الوقت نفسه يمتعنا بوقفات هنية من تأملاته الفلسفية الخاصة :

«من الصعب أن يعترف الإنسان بالموت .. لأنه لا يعرفه . أما الحياة ، فهي جزء

منا .. هي خاطر اللحظة ونبضة القلب وشهقة الصدر ، واختلاجة الجفن ، وسريان الدماء في العروق .. إنها معزوفة الحياة التي نحسها ونسمعها ونعيشها في كل لحظة ، أما الموت والعدم فلا نستطيع أن ندركه إننا قد نفهمه فنستسلم له ، نتوقعه . نعرف أنه الحق .. وأنه لا باق إلا وجهه .. ولكن أجهزة الحياة تقصر عن إدراك ماهية الموت .. » .

في «الموت في الغربة» يستمر سيناريو الصراع بين الحياة والنهاية القريبة :

«دق جرس التليفون في المنزل . كان فوزي يتحدث . قال: أنه خائف . وبكى . لعلها المرة الأولى والأخيرة التي يبكي فيها . إن أعصابه من حديد . ربما اختار التليفون كي يفصح عما يختلج في داخله . إنه طراز من الناس لا يحب أن يثقل على الآخرين بآلامه الشخصية ..» .

ويتصاعد الإيقاع الدرامي للحدث الذي ينقله إلينا حسن فؤاد ، كما جرى بالفعل دون حذف أو إضافة ومع ذلك نجد أنفسنا بإزاء عمل فني كبير :

«.. ويحضرون له التليفون في الليلة الأخيرة لكي يتكلم مع أهله قبل وفاته ، فيرفع السماعة ويطلبهم . وعندما يسمع صوت زوجته على الطرف الآخر - في القاهرة - يرمي بالسماعة .. ما جدوى الحديث الآن؟ وتنتابه حالة من التشنج والغضب حتى يمسك به الممرضون ، وهو يبكي في حرقة . إن الإنسان المريض لمدة طويلة قد يدرك بالتدريج أنه ذاهب إلى جوار ربه . فلكل أجل كتاب .. أما أن تأتي النهاية سريعًا وبلا مقدمات فهذا ما يحطم قلب الإنسان على الدنيا التي أحبها .. دنيا عائلته وأبنائه وأصدقائه وأحلامه وكل الأشياء التي أحبها في هذه الحياة » .

ولم يكن حسن فؤاد يعرف أن الموت سيكون بلا مقدمات بل أسرع ، بالنسبة إليه .. هو نفسه . في اليوم الأخير ، كان حسن فؤاد في طريقه إلى المستشفى التي يرقد

فيها أحمد فوزي . وعندما يتأمل شوارع لندن . يشعر كما لو كان يرى كائنات غريبة لأول مرة :

«... الحياة . إنها قبض الريح .. وكل شيء إلى زوال . عبث . عبث هذه الحياة . العمل والحب والأطفال والحلم .. كل سيطويه العبث .. حتى الدموع. لا شيء يصدق إلا هذا الكأس الذي يجب أن نجرعه الآن نخب اللحظة التي نعيشها الآن قبل أن تمضي ، هي الأخرى إلى هوة النسيان .. » .

كما لو كان حسن فؤاد يرثي نفسه .

ولكن .. كما قال - هو نفسه - بحق :

... ويبقى الصحفي ، وتبقى الأوراق ، ويبقى التاريخ ، ويبقى ما ينفع الناس .

عندما التقيت مع الصديق الدكتور فاروق التلاوي ، الذي كان يشغل منصب محافظ الوادي الجديد ، قال لي : أن الفنان نور الشريف اتصل به تليفونيًا ، وقال له : أن حسن فؤاد يحتضر ويتمنى أن يشاهد لوحة سبق أن رسمها على باب زنزانته في معتقل المحاريق في الواحات .

وأمر الدكتور التلاوي بنزع الباب من الزنزانة في عنبر المعتقل وإرساله إلى حسن فؤاد .. ولكن الفنان والصحفي الكبير .. كان قد فارق الحياة قبل أن تصل اللوحة التي تمنى أن يراها قبل الرحيل .

.. ولكن :

تبقى اللوحة ، ويبقى الصحفي وتبقى الأوراق والتاريخ .. وما ينفع الناس .

■ ■ ■

* إنه من الشخصيات التي يتمنى الكاتب أن يتناولها من وقت لآخر ، وخاصة إذا كان قد مضى حوالي ٥٨ عامًا على صدور كتابه الهام «الديمقراطية السياسية» ، دون أن يتناوله أحد بالتعليق ، وفي تاريخنا الحديث تنفرد هذه الشخصية بمواقف وأفكار متميزة تجعل الكتابة عن صفحة من صفحات حياتها في معارك الصحافة والسياسة والنقد متعة أدبية وفنية إلى جانب القيمة السياسية . وعندما تقرأ له تشعر بأنه يكتب لنا هذه الأيام ، وليس قبل أكثر من ستين عامًا .



محمد مندور : تصير سيادة الأمة

في ٩ ديسمبر ١٩٥٢ أعلنت قيادة ٢٣ يوليو سقوط دستور ١٩٢٣ وسارع الدكتور محمد مندور إلى إصدار كتابه «الديمقراطية السياسية» لكي يعلن رأيه المحدد في الشروط التي يجب أن تتوافر لوضع الدستور الجمهوري الذي تتطلع إليه البلاد قال : «إذا كان الدستور الجديد سيضمن للمواطنين حرياتهم وحقوقهم السياسية ، فإن مهمة اللجنة التي ستتولى وضعه يجب أن تمتد إلى كافة القوانين المقيدة للحريات المتراكمة من العهود الماضية .. فتطهر البلاد منها حتى لا تظهر تلك القوانين قائمة لشل الحريات والحقوق التي يكفلها الدستور الجديد» .

كان هذا هو المطلب الأول الذي طرحه الدكتور مندور ، ولكن القضية الرئيسية ظلت في رأيه هي كيفية وضع هذا الدستور الجديد .

إنها ليست مهمة لجنة من اللجان ، فهي ليست عملية فنية تحتكرها مجموعة من علماء الفقه الدستوري بالغًا ما بلغت كفاءتهم .. ذلك أن عمل الدستور شيء أكبر من هذا .

كتب الدكتور مندور ليؤكد أنه من الواجب أن يتبين المصريون أن وضع دستور جديد للبلاد ليس عملاً فنيًا قانونيًا فقهيًا ، وإنما هو عمل سياسي يجب أن يتم لتحقيق آراء الشعب في طريقة حكمه لنفسه وكفالة حرياته وتنظيم سلطات الدولة التي يعيش في ظلها .. ولا يمكن أن يترك للفنيين صياغة الدستور إلا بعد أن يحدد الشعب أو ممثلوه المبادئ السياسية العامة التي سيقوم عليها ذلك الدستور .. ثم يعرض هذا الدستور فيما بعد على الشعب أو ممثليه ، وإلا كان في ذلك قلب للأوضاع ووضع العربة أمام الحصان .

حقوق الإنسان:

ويقول الدكتور مندور : أنه لا يمكن استجلاء رغبات الشعب واتجاهاته السياسية إلا إذا أطلقت الحريات من كافة القيود وتم إلغاء ما يسمى بجرائم الدعوة لقلب نظام الحكم ، وانتشرت في البلاد الدعوة إلى كافة المذاهب السياسية لكي تجري بعد ذلك انتخابات لجمعية تأسيسية سياسية تضع الدستور الجديد ، ولا يجوز الالتجاء فورًا إلى انتخاب هذه الجمعية التأسيسية قبل إلغاء الأحكام العرفية «الطوارئ .. الآن ».

وقضية الديمقراطية ـ في رأي مندور ـ هي قضية كفاح كل فرد ، وكل شعب وكفاح الإنسانية كلها من أجل الحرية السياسية والحقوق الاقتصادية ولاحظ مندور أن الكفاح من أجل الحرية السياسية والاقتصادية يندرج في إطار عام هو الحقوق الإنسانية ، وقد تطور الكفاح من أجل هذه الحقوق من الدائرة المحلية الوطنية إلى المجال الدوري العام .. فلم تعد الحقوق متطلب للفرد باعتباره عضوًا في جماعة قومية فقط بل عضوًا في العائلة البشرية عمومًا .

وهنا يعود بنا مندور إلى نضال البشرية من أجل إعلان حقوق الإنسان ، وهي

المبادئ الأربعة التي قررتها الثورة الفرنسية عام ١٧٨٩ :

١ - يولد الناس أحرارًا ويظلون أحرارًا متساويين في الحقوق .

٢ - يمكن للناس أن يفعلوا كل ما لا يضر بالغير وبناء على ذلك يمكنهم أن يفكروا ويتكلموا ويكتبوا ويطبعوا في حرية .

٣- للمواطنين الذين تتكون منهم الأمة .. الحق المطلق في إدارتها .

٤ - يجب على الأمة صاحبة السلطان أن تضع نصب أعينها دائمًا حقوق الأفراد من جهة ، والمصلحة من جهة أخرى .

إقطاعية مالية

أوضح مندور أن هذا الإعلان كان نصرًا عظيمًا للبشرية كلها ، ولكنه أشار إلى أنه إذا كانت هذه المبادئ الأساسية قد أثرت تأثيرًا هائلاً في المجالين الفكري والسياسي ، إلا أن المجال الاقتصادي ظل ينتظر مجهودًا آخر كمجهود عام ١٧٨٩ ويشرح مندور فكرته بقوله: أنه بعد أن وصلت الرأسمالية ، كنظام اقتصادي ، في نموها إلى مرحلة الاحتكار حتى أننا نرى اليوم نظامًا إقطاعيًا جديدًا هو الإقطاعية المالية التي تتمتع بسلطة أكبر ، من عدة نواحي ، من السلطة التي كانت تملكها الإقطاعية الزراعية ، لأن الإقطاعيين الجُدُد يتحكمون في صغار ومتوسطي الرأسماليين ، ويسيطرون بواسطة تحديد الأجور على هؤلاء الذين يضطرون إلى تأجير أدمغتهم وأذرعهم لمالكي أدوات الإنتاج ، كما يسيطرون بواسطة الأسعار التي يفرضونها على مجموع المستهلكين الذين يضطرون ـ بحكم إلغاء المنافسة ـ إلى الدفع بلا مناقشة .

ويعتبر مندور أن هؤلاء الإقطاعيين قد اكتشفوا ، منذ عهد بعيد ، فن تسخير الدولة لصالحهم كما أن النظام الاقتصادي يتضمن اعتداء يوميًا على وثيقة حقوق الإنسان .

وتوصل الدكتور مندور إلى أن العلاج يكمن في ما كان يسميه بـ«الديمقراطية

الاجتماعية» وقد وجد أسس هذه الفكرة في كتابات بعض الكبار الاقتصاديين الفرنسيين الذين حاولوا أن يصلحوا عيوب النظام الرأسمالي بالمناداة بمبدأ تدخل الدولة كشرط لازم للتنمية الصناعية .

منْ يقود الأمة ؟

كتب مندور في عام ١٩٤٣ يقول :

«ها هي الصحف والمجلات تطالعنا كل يوم بأنباء البؤس الذي لم يعد الصبر معه ممكنًا » .

كانت نقطة البدء عند مندور هي علاج الفقر .. لأن المال في المجتمع الحديث هو أساس توزيع الطبقات ، وهو أساس خاطئ .

وهذا ظاهر من سوء توزيع الملكية لأن كثيرًا منها لا يكون على جهد ، فضلاً عن أن الثروات الموروثة لا تستند إلى حق إنساني مشروع .

القضية الاجتماعية - إذن - كانت محور اهتمام مندور .. ولكن .. من الذي يتصدى لقيادة المجتمع في طريق التغيير الاجتماعي ؟ .

في تلك الفترة المبكرة - أي في عام ١٩٤٣ - كان مندور يرى أن قيادة الأمة لا بد أن يعهد بها - بالضرورة - إلى المثقفين من أبناء الشعب الذين لا يزالون يتنكرون لأصولهم الشعبية أما الأغنياء فإنهم لا يصلحون ، لأنهم لاهون بلذاتهم .. أما الطبقة المعدمة فقد غشى الجهل بصائرها وغلب عليها اليأس فهي أعجز من أن تتصور علاجه .

وعندما قوى ساعد الحركة الوطنية ، وتألفت لجنة الطلبة والعمال في عام ١٩٤٦ وجه محمد مندور التحية لهذا الحدث ، واعتبره نقطة تحول خطيرة في تاريخ مصر الحديث .

كان هذا المفكر المناضل قد أخذ يدخل بالفعل في صدام مع النظام السياسي

الاقتصادي الاجتماعي وأيقظت كتاباته وأفكاره .. الأزمان .

دفاع عن التعددية

منذ عام ١٩٥٢ والدكتور مندور يؤكد على أن المطالبة بإطلاق الحريات تستند إلى حق ، بل إلى واجب مفروض على كل مواطن وهو الاشتغال بسياسة وطنه وهو يحارب بكل قوة الاتجاه الذي يدعو إلى عكس ذلك باسم « عدم التحزب » ومحاربة « الحزبية » والدعوة إلى الحزب الواحد ، فالمواطن الذي لا يهتم بسياسة وطنه ولا يبدي فيها رأيًا ولا يتخذ موقفا هو المواطن الفاسد ، بل الكائن الطفيلي الذي لا يحق له أن يتمتع بخيرات وطنه وشرف انتسابه له .

وبينما كان هناك من يستعدون لفرض التنظيم السياسي الواحد .. ارتفع صوت مندور محذرًا :

« إن محاربة الحزبية على هذا النحو ستنتهي إلى إقصاء جميع الأكفاء عن الاهتمام بمصير وطنهم ، وبذلك تصبح السياسة مقصورة على التافهين والعاجزين والمرتزقة .. وفي هذا أكبر إفساد للحياة العامة » .

وفي وقت تزايد فيه التحريض على الحكم الديكتاتوري وإقامة السلطة المطلقة ، أعلن مندور بلا تردد أن الدعوة إلى نظام الحزب الواحد أو محاربة تعدد الأحزاب «لا يقل خطورة عن الدعوة إلى محاربة الحزبية والتحزب في ذاته ، وذلك لأن النظام الديمقراطي لا يقوم بطبيعته إلا على تعدد الأحزاب .. فهذا التعدد ضرورة ملازمة لطبيعة الديمقراطية ، والدعوة إلى محاربة هذا التعدد هي دعوة رجعية تحارب الحرية وتمهد السبيل لأنواع من الحكم الاستبدادي » .

ومنذ أكثر من نصف قرن ، كان مندور يؤكد أن الاستقرار السياسي على أساس ديمقراطي هو العامل النفسي الأول في إغراء المستثمرين على الاستثمار .

إغماء عقلي

كتب الدكتور مندور في افتتاحية مجلة « البعث » - التي كان صاحبها ورئيس تحريرها - بتاريخ ١٧ يناير ١٩٤٦ ليدافع عن الشباب المتهم بالضعف الخلقي يقول : من الغفلة أو النفاق أن نطالب الأفراد بأن يكونوا أبطالاً عندما تتضافر النظم السياسية والاجتماعية القائمة على أن تنزلهم منزلة العبيد ! وعندما يرى الشباب أنه لا سبيل إلى عمل يعيش به إلا بالوساطة أو الزلفى أو الاحتيال .. كيف نريده أن يكون عزيز النفس ، كريم الخلق ؟

ويشاهد مندور كل يوم في عربات الترام « التي لا مركب له سواها » أبناء الشعب « في حالة إغماء عقلي لا شك فيه » : وجوه ساهمة وقلوب شاردة ، وذهول عما حولهم ، وحركة بطيئة.. إنهم أحياء أموات وربما يعانون من بلادة في الحس أو نقص في الذوق .. « وهم مظلومون ! وما عيبهم إلا ذلك الإغماء العقلي » .

ويكتب مندور في افتتاحية « البعث » بتاريخ ١٠ يناير ١٩٤٦ ليقول : .. شبيبة تبغي المجد لوطنها بلا ريب وتتعشق الحرية ، ولكن ظلام المستقبل وشيوع الأنانية وانعدام الضمانات التي تحمي الفرد من عسف الحكومات قد أخذ يحل من وطنياتها ويدعوها إلى التساؤل .

ماذا نريد من شبيبة أخذت تؤمن بأنه لا جدوى من مواهب النفس أو استقامة الخلق أو صلابة العزم ، وإنما الجدوى للزلفى وإراقة ماء الوجه والشكوى إلى الظالمين » .

وفي ٢٤ يناير ١٩٤٦ ، كتب في افتتاحية مجلة « البعث » :

« مصر في حاجة إلى رجال ينفضون الحكم بأرجلهم عندما يكون ثمن البقاء فيه تعطيل قضية الوطن .. » .

في حدود القانون

وينتقد مندور بشدة الظاهرة التي عرفناها في مصر وهي اتجاه القوانين نحو تقييد الحريات .. ففي كافة العهود ، تضاف إلى ترسانة القوانين .. قيود جديدة ، وقلما رأينا حكومة تلغي شيئًا من هذه القيود .

ولسوء « الحظ » كانت الحكومات المختلفة تجد في الدستور نفسه سندًا واهيًا تستند إليه في سن القوانين المناهضة للحريات فإذا وجدت الحكومة نصًا في الدستور يكفل للمواطنين حرية الاجتماع .. وتلحق به عبارة « في حدود القانون » .. فإنها لا تفسر هذا القيد بالروح الديمقراطية السمحة ، بل تتخذ منه سندًا لتقييد حق الاجتماع بقيود تعتبر بمثابة إعدام لهذا الحق من أساسه .

وكذلك النص الدستوري الذي كان يحظر إنذار الصحف أو تعطيلها إداريًا ، فقد استغلت إحدى الحكومات السابقة القيد الوارد على هذا الحظر والقائل بإباحته في حالة لزوم ذلك لحماية النظام الاجتماعي لكي تنكل بالصحف عن الطريق الإداري ، فلم تنذرها أو تعطلها فحسب ، بل ألغتها إلغاء تامًا ومحتها من الوجود تحت شعار « حماية الدولة من الشيوعية » .. مع أن الأمة كلها كانت تعرف أن الذنب الوحيد لتلك الصحف هو معارضتها القوية لإبرام معاهدة « صدقي - بيفن» مع بريطانيا .

وقد ترك دستور ١٩٢٣ باب العصف بالحريات مفتوحًا عن طريق القيد الذي أخضعها له ، وهو عبارة « في حدود القانون » وهو قيد .. دعا مندور إلى تطهير الدستور الديمقراطي الذي تتطلع إليه البلاد من سلبياته والتحرر منه . فالشيء الوحيد الذي يجب أن نحظره في مجال الحريات ، هو استخدام العنف لإملاء رأي والاعتداء على حريات المواطنين الآخرين .

حكم الأقلية :

المبدأ الذي يدافع عنه مندور ، حتى النهاية . هو أنه لا يجوز أن يحرم أحد من حق المساهمة في تقرير مصيره .. غنيًا كان أم فقيرًا . عالمًا أو جاهلاً . ويرفض مندور حرمان الجاهل من حقوقه السياسية لأن هناك قدرًا كبيرًا من العقل المشترك بين البشر وإذا كان التعليم النظري يزيد من قوة هذا العقل فإن الحرمان من التعليم لا يعني عدم وجوده .

أما القول بأن « صفوة الأمة » أو« الأخيار » أو المثقفين أوالفنيين هم وحدهم الذين يملكون الحق في توجيه سفينة الدولة والسيطرة على قيادتها فتلك - فيما يرى مندور - هي النزعة الارستقراطية البغيضة التي لم تتمخض في تاريخ الإنسانية إلا عن نظم «الأوليجاركية » - حكم الأقلية أو نظم حكومات الأقليات - وقد باءت كلها بالفشل سواء استندت هذه الأقلية إلى نبالة الدم أو سيطرة المال أو سيطرة العقل نفسه .

هنا يطالب مندور بتوسيع قاعدة المشاركة الشعبية أو توسيع وعاء سيادة الأمة ، ويؤكد أن منح الحقوق السياسية لكافة المواطنين وسيلة فعالة لرفع مستواهم المادي والثقافي ، بينما حرمانهم من تلك الحقوق يتركهم عبئًا ثقيلاً على الدولة يعوق تقدمها وتحقيق الانسجام والتقارب بين طبقاتها الاجتماعية المختلفة بما في ذلك من قلقلة أُسس الحياة العامة .

وليست العبرة في نجاح الحكومات بتوفير الكفايات لأعضائها .. لأن أي كفاءة مهما كانت فذة لا تستطيع أن تنتج شيئًا في بيئة معارضة ساخطة ، وكفاءة أقل امتيازًا قد تأتي بالمعجزات إذا أحاطتها بيئة محبة مطمئنة واثقة متعاونة ومجموع الأمة هي التي تعمل وتنفذ وليست للخطط والمشاريع أية قيمة عملية إذا لم تلق استجابة حماسية من المواطنين . والشعب لن يمنح هذا التأييد وتلك الاستجابة إلا إذا أحس

بأنه ساهم في تلك المشروعات عن طريق اشتراكه في توجيه سياسة لدولته العامة بمزاولة الحقوق السياسية . وأية حركة إصلاحية منعزلة عن الشعب لا يمكن أن تؤتي ثمارها كاملة ، ولا ضمان أمامها للبقاء .

نقطة البداية

بعد طرد الملك من مصر .. كان المفهوم أن يؤدي ذلك إلى عودة السيادة للأمة .. فقد زال مغتصب هذه السيادة ، وأن يصبح رضا الأمة وثقتها هما الوسيلة الوحيدة لتولي الحكم في البلاد وتوجيه مصدرها .

ويقول مندور في كتابه « الديمقراطية السياسية » أن هذا الحلم الجميل « لم يتحقق حتى اليوم » . وذلك لأن الدستور والقوانين هي وعاء سيادة الأمة ، وكان من الواجب أن تبدأ حركة التطهير بتناول ذلك الدستور وتلك القوانين ، ولكن الحركة وقفت حتى اليوم عند الأشخاص ، فهي قد عزلت شخص الملك : وتركز جهدها في تطهير أجهزة الدولة من بعض الأشخاص ، ولكنها لم تطهر تلك الأجهزة من القيود والثغرات المخيفة القائمة في الدستور وفي القوانين والنظم المتراكمة من العهد المنقرض .

وكان لمندور انتقادات مهمة لدستور ١٩٢٣ ومنها : أنه حرم الأمة من حق تعديل ذلك الدستور فيما يختص بشكل الحكم في مصر وتغيير نظام وراثة الملك . ولما كان الدستور مصدرًا لسيادة الأمة فإنه لا يجوز أن يحد من تلك السيادة بل يجب أن يكون خاضعًا لها .

ويرد مندور على القائلين بأن الأحزاب السياسية في مصر قد فسدت بقوله: ان السبب لم يكن النظام الحزبي في ذاته ولكن السبب هو غياب الديمقراطية الحقيقية في ظل هيمنة استعمارية وحكم ملكي مستبد . ومن هنا وجد مندور نفسه يختلف اختلافًا جذريا في نقطة البداية .

ونقطة البداية عنده هي تطهير النظام قبل تطهير الأشخاص .

تناقض مع النظام :

وكان من الطبيعي أن يكون مندور وفيًا لاختياراته الاجتماعية وفي وقت مبكر يرجع إلى عام ١٩٤٥ ، أعلن تأييده لاقتراح محمد خطاب ، عضو مجلس الشيوخ بتحديد ملكية الأرض الزراعية بخمسين فدانًا ولقرار قادة يوليو ١٩٥٢ عندما أصدروا قانون الإصلاح الزراعي ، غير أن القبض على عدد من رجال الأحزاب السياسية في ٧ سبتمبر سنة ١٩٥٢ وصدور قانون تنظيم الأحزاب السياسية الذي يطالب أي حزب قديم أو جديد بتقديم إخطار عن برنامجه وأهدافه ومصادر تمويله في وزارة الداخلية في ٩ سبتمبر ١٩٥٢ ثم إرغام مصطفى النحاس على أن يتنحى عن رئاسة الوفد .. كل ذلك أثار قلق مندور ووضعه - على الأقل من ناحية الفكر - في تناقض مع النظام الجديد .. مما دفعه إلى أن يعكف في أواخر عام ١٩٥٢ على وضع ذلك الكتيب الصغير والهام في ١٧ ديسمبر ١٩٥٢ تحت عنوان « الديمقراطية السياسية » .

في خدمة الوطن :

كان في إمكان محمد مندور أن يحدد مكان نضاله على صفحات الصحف والكتب ولكنه آثر أن يدخل المعترك السياسي من أوسع أبوابه عندما استقال من الجامعة ليعمل في الصحافة ، وعندما انضم إلى حزب الوفد ليكون محاميًا ونائبًا في البرلمان .

كان في الثانية عشر من عمره عندما انفجرت ثورة ١٩١٩ والمؤكد أن وجدانه الوطني قد تشكل بصور نهائية تحت تأثير أحداث الثورة بل يمكن القول أن أول اختياراته السياسية قد حسم في هذه المرحلة المبكرة إلى جانب الحركة الوطنية والقوى الديمقراطية .

إنه ينتمي إلى الشرائح المتوسطة في المجتمع المصري بوجه عام وفي مجتمع الريف « كفر مندور بمركز منيا القمح في الشرقية » بشكل خاص .

عاش مندور في زمن كان المثل الأعلى فيه بالنسبة للمثقفين عمومًا أن يلتحقوا بجهاز الدولة كموظفين وكانت دراسة الحقوق تأتي في المقدمة .. فكلية الحقوق هي المعمل الذي يتخرج فيه كل من يريد أن يشغل منصبًا مرموقًا في الدولة وعندما قرر مندور أن يلتحق بالحقوق .. اختار أكثر المهن ارتباطًا بالنشاط السياسي في البلاد . ولكنه رُشِحَ لبعثة في فرنسا ليدرس الآداب واللغات اليونانية واللاتينية واللغة الفرنسية بعد أن قرر دراسة الحقوق والآداب معًا فقد وجد الدكتور طه حسين في حياة مندور الذي سحره عالم الدراسات الأدبية في كلية الآداب ، ما حمله على أن يتخذ قراره في عام ١٩٢٥ بأن يدرس في الكليتين وجاءت البعثة عقب التخرج .

ماذا درس مندور في باريس ؟ حصل على الليسانس في اللغة اليونانية وآدابها وليسانس في اللغة الفرنسية وآدابها وفقهها وحصل على دبلوم الاقتصاد السياسي والتشريع المالي من كلية الحقوق بجامعة باريس ، كما حصل على دبلوم معهد الأصوات بباريس حيث قام بدراسة معملية عن موسيقى الشعر العربي وأوزانه وفي الوقت نفسه كان يتابع محاضرات الفلسفة والتاريخ والعمارة ، وفي مصر حصل على الدكتوراه من كلية الآداب عام ١٩٤٣ .

هذا النوع من التعليم - من حيث الكم والنوع - كان يرشح من يحصل عليه ، في ظروف مصر التي كانت تعيشها في الفترة بين أول الأربعينيات وأوائل الخمسينيات لأعلى المناصب سواء الأكاديمية أو الوظيفية .

لكن مندور يرفض هذا وذاك ويصمم على أن يوظف كل هذه الثقافة الرفيعة في خدمة الحركة الوطنية لكي يلاقي من جراء ذلك كل أنواع العنت والاضطهاد .

كم نحن في حاجة إلى شخصيات من طراز محمد مندور : وإلى كتب من نوع كتاب « الديمقراطية السياسية » .

شموخ .. وقلم عنيد

كان يردد هذه الكلمات من قصيدة كتبتها زوجته الشاعرة « أنا أقوى منك يا ريح .. أنا » !

كم عصفت به الرياح الهوج .. وكم حاولت الأمواج الصاخبة ـ موجة بعد موجة ـ أن تجرفه وتكتسحه في هديرها الصاخب .. ولكن الرياح والأمواج كانت تتكسر أمام وقفته الشامخة وقلمه العنيد ومنازلاته التاريخية .

إنه الأديب ، الناقد ، السياسي، الصحفي .. الدكتور محمد مندور .. الذي ترك من ورائه فراغًا مهولاً في حياتنا الثقافية والوجدانية ولكن .. أين محاضراته في المعهد العالي للفنون المسرحية وفي قسم الصحافة بكلية الآداب وفي معهد الدراسات العربية العالمية .. وغيرها من القاعات والمنابر ؟ أين كتبه الثلاثون التي تعتز بها أي أمة كجزء عزيز تحنو عليه من تراثها الثقافي العظيم ؟ بل أين مجموعة مقالاته النقدية عن المسرح المصري والمسرح العالمي وكذلك إحدى مسرحياته .. التي قيل: أنها جميعًا لم تنشر حتى الآن ؟

ولماذا لا تفكر وزارة الثقافة في إعادة طبع كتب محمد مندور حتى يمكن أن نجدها في المكتبات بعد أن نفدت كلها .. ؟

بل إن هذا الرجل الذي كان مركز إشعاع أدبي وفني طوال ربع قرن .. كتب العديد من المقالات والأبحاث والأحاديث في الصحف والمجلات ينبغي على أجهزة الثقافة أن تجمعها وتطبعها وتنشرها .

وكان ينبغي على الزملاء الذين فكروا في عام ١٩٦٥ في تكوين « جماعة أصدقاء مندور وتلاميذه » أن يبدؤوا باتخاذ الخطوة الأولى نحو هذا الهدف وإحياء ذكرى مندور تتطلب البحث والتنقيب عن كل ما كتبه من أراء ومقترحات أيضًا في مجال الثقافة .

فمثلاً .. كان الدكتور مندور قد ذكر قبيل وفاته بأسابيع أن شعبة الفنون بالمجلس الأعلى لرعاية الفنون والآداب كانت قد كلفته بوضع تقرير عن أهمية وضرورة إصدار مجلة على يد وزارة الثقافة تتخصص في النقد على ألا يقصر جهدها على النقد التطبيقي بل يمتد إلى الأسس النظرية الفلسفية والأدب والفن ووظائفهما وأهدافهما ومذاهبهما المختلفة باعتبار أن هذه الدراسات النظرية هي التي تغذي النقد التطبيقي بل وتستطيع أن توجه الأدب والفن عامة نحو أهداف مجتمعنا الجديد عن طريق المناقشة والإقناع لا السيطرة والرقابة . وقال مندور : « وقد كتبت بالفعل هذه المذكرة الإيضاحية ، ولكنني لم أسمع عنها بعد ذلك ، وكأنها قد سقطت في جب سحيق ما له من قرار ! ».

مثل هذه المذكرة التي كتبها مندور يجب البحث عنها ونشرها ضمن مجموعة «الأعمال الكاملة » التي يجب أن تصدر وتضم كل ما كتبه المفكر الراحل كما تفعل الدول الأخرى بالنسبة لكتابها ومفكريها الكبار .

وهل ستجد أجهزة وزارة الثقافة المختصة عددًا كبيرًا من الأسماء التي يجدر بها أن تحتفي بذكراها وتعيد تقديم أعمالها ؟ إن عددهم محدود ، والدكتور مندور واحد من بين أجدر هؤلاء الذين ينبغي تجديد ذكراهم وفاء له وللوطن ولمصلحة الأجيال الحالية والمقبلة .

وحياة مندور نموذج يحتذى لكل هؤلاء الذين يريدون أن يوجهوا الثقافة وجهات جديدة أكثر خصبًا وعمقًا وإنسانية وأصالة .

ولد في قرية كفر مندور في مركز منيا القمح بمديرية الشرقية عام ١٩٠٧ ، وفصل من مدرسة طنطا الثانوية ثلاث مرات لاشتراكه في المظاهرات ضد الإنجليز عندما فتحت الجامعة المصرية أبوابها عام ١٩٢٥ التحق بكلية الحقوق ضمن أول دفعة ،

وعندما نجح في تلخيص محاضرة ألقاها طه حسين في خمس دقائق .. نصحه طه حسين بدخول كلية الآداب ، فكان يدرس في كلية الحقوق في الفترة الصباحية وفي كلية الآداب في الفترة المسائية ، وحصل على ليسانس الآداب قسم اللغة العربية واللغات السامية عام ١٩٢٩ ، وفي العام التالي مباشرة حصل على ليسانس الحقوق .

وسافر إلى باريس في عام ١٩٣١ وحصل على ليسانس الآداب من جامعة السوربون كما حصل على دبلوم الاقتصاد والتشريع المالي .. ثم آثر العودة إلى مصر بعد أن لاحت نذر الحرب العالمية الثانية ، وحصل على الدكتوراه بمرتبة الشرف الأولى من جامعة القاهرة عام ١٩٤٣ بعد أن تقدم برسالته في « النقد المنهجي عند العرب » وظل مندور يعمل مدرسًا في الجامعة حتى عام ١٩٤٤ ثم عمل رئيسًا لتحرير صحيفة « المصري » .. « ولم يكد يمضي شهران أو ثلاثة على ترك الجامعة حتى فسخت جريدة المصري العقد الذي كانت قد أبرمته معه » . وقيل: أن السبب هو أنه نشر مقالاً في صحيفة أخرى كان قد رفض نشره في الجريدة التي يعمل بها . وأصدر مندور مجلة أسبوعية باسم « البعث » ولكن إسماعيل صدقي أغلقها في عام ١٩٤٦ وأرسل له صدقي أحد وزرائه ليخبره ، باسمه وباسم ، الملك أن معاهدة صدقي - بيفين ستوقع سواء أراد أم لم يرد وأن من الخير له أن يريح ويستريح فيقبل منصب سفير في سويسرا .

وقال مندور : « إني أفضل الانتحار على مثل هذه الخيانة الوطنية » . ورد صدقي بالقبض على مندور في يوليو ١٩٤٦ .

وكان يكتب من السجن ليقول : « إذا كان قد زج بي في السجن ، فإن روحي التي تعشق الحرية كانت دائمًا على أتم أهبة لأن أعذب وأضطهد وأسجن في سبيل الوطن » .

وقال فيما بعد : « كانت زوجتي تقوي في نفسي روح المغامرة المستنيرة ولم تظهر

أي هلع حتى في تلك الأيام التي كنا نعتقل ونحاكم فيها لأننا ننهض بعبء المعارضة ، ثم كان منزلنا يفتش في الليل والنهار .. » .

وفي عام ١٩٤٨ افتتح مندور مكتبًا للمحاماة ، وفي عام ١٩٥٠ انتخب نائبًا في البرلمان عن دائرة السكاكيني وخلال ذلك كله ، وبعده ، ظهرت له أهم المؤلفات في الحقل الثقافي : النقد المنهجي عند العرب ـ الشعر المصري بعد شوقي ـ المسرح النثري ـ مسرح شوقي ـ في الميزان الجديد ـ الأدب ومذاهبه ـ قضايا جديدة في أدبنا الحديث ـ الأدب والنقد ـ مسرح توفيق الحكيم .. ومترجمات مثل « دفاع عن الأدب » ، لجورج ديها ميل ، و«مدام بوفاري»، لجوستاف فلوبير ، ونزوات ماريان لألفريد دي موسيه وغيرها ..

هذا الرجل الذي كان يمشي على النيل بالجلابية والشبشب كان يلاحق بمنازلاته .. العمالقة الكبار : عباس محمود العقاد ، وإبراهيم عبد القادر المازني ، وعبد الرحمن شكري وعلي الجارم ، وولي الدين يكن وإسماعيل صبري .. ويكتب عن شوقي وحافظ إبراهيم وخليل مطران ليُقيِّم قصائدهم .. كما يكتب عن نظرية الجرجاني النقدية ورسالة أبي العلاء المعري وقوانين الدواوين للأسعد بن مماتي وعن اتجاهات المعاصرين مثل عزيز أباظة وتوفيق الحكيم ولويس عوض ويحيى حقي .. كما يكتب عن دون كيشوت وفاوست وهاملت ورواد المسرح الأوروبي .. ويكتب عن الشعر المهجري والشعر المهموس .

هذا الرجل كان يعلمنا كيف تكون الحياة الأدبية عند الناقد ، وكان يقول : «الاقتباس جريمة أخلاقية يجب مطاردتها .. لا باللسان والقلم .. لكن بالحديد والنار » .. والأديب « هو مهندس العقل البشري » و « الكوميديا هي الفن الذي نشأ ملتصقًا بواقع الحياة والمجتمع منذ أرسطو حتى الآن .. فهي الفن الواقعي النقدي ، بينما

التراجيديا أو الدراما تنقلت من الأساطير إلى المشاعر والعواطف الإنسانية العامة المطلقة غير المرتبطة بواقع محلي معين .. وكان يعلمنا كيف نعتبر فن الكوميديا أهم فن مسرحي لأنه من واقع الحياة .. والضحك ليس مجرد « زغزغة » بهدف الترويح أو التسلية فحسب .. بل هو إلى جوار ذلك جزاء أو عقوبة يوقعها المجتمع على من ينحرفون عن مثله ومبادئه وتقاليده ، فيوقفهم أمام الناس ليضحكوا عليهم ، ومن الواجب ألا نهدر هذه الوظيفة » . وكان صاحب مدرسة في الترجمة : « هل لي أن أقول: أنني حاولت أن أترجم من الفرنسية كما يترجم الأوروبيون إلى لغاتهم عن اللاتينية أو اليونانية ، وإنني لم أكتف بالترجمة بل أضفت الكثير من التعليقات التي رأيتها لازمة لفهم النص .. وإنما أرجو من القارئ الذي لا يرى أنه في حاجة إليه أن يغتفرها لي ، فقد قصدت بها إلى نفسي وإلى غيري ممن هم في حاجة إليها ليتم لهم الفهم .. » .

وعندما تقرأ هذه التعليقات - التي تشكل في حد ذاتها موسوعة فكرية كاملة - تدرك كم كان مندور متواضعًا بصورة مذهلة ، رغم أنه أضاف من عنده الكثير حتى في أسلوب الترجمة : « وأنا بعد أعتقد أن الكثير من الكتب التي ترجمت إلى لغتنا لم تتحقق فائدتها الكلية لكثرة التصرف والاكتفاء بترجمة الأفكار دون طرق الأداء التي كثيرًا ما تفوق في أهميتها المعاني المعبر عنها » .

الآن نتذكر كبرياء هذا الرجل العظيم .

كان خصومه يخشون من هذا الكبرياء وهذا الترفع الأخلاقي والسمو الفكري .

أغلقوا العديد من الصحف التي أصدرها ورأس تحريرها ، ومنها «الوفد المصري» . وقبل عامي ١٩٤٥ و١٩٤٦ تعرض مندور للحبس الاحتياطي - بسبب مقالاته - ما يقرب من عشرين مرة .

وفي ١٠ يونيو عام ١٩٤٦ ، دخل السجن الذي فتحه إسماعيل صدقي باشا لخيرة مفكري ومثقفي مصر . ووصلت حملة الأكاذيب والافتراءات ضده إلى حد اتهامه بأنه حلقة الاتصال بين الوفد و«الكومنترن» (قيادة الشيوعية الدولية!!) وبعد ٢٣ يوليو ١٩٥٢، صدر قرار بمنع كل من اشترك في الأحزاب السياسية من ممارسة العمل السياسي (قرارات العزل) ، وظهر من يعتبرون مندور من «أشياع العهد البائد!!» ولم يسمح لمندور إلا بالكتابة في المجلات الثقافية والأدبية والفنية . وكانت كلمة مجاملة واحدة ، تصدر من مندور ، كافية لكي تفتح الطريق أمامه إلى أعلى المناصب .

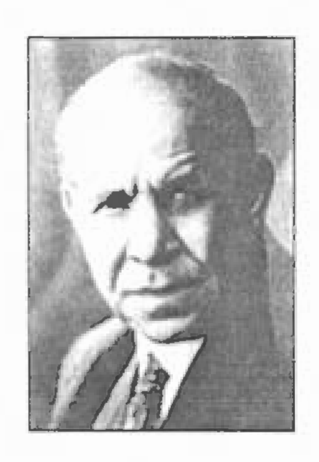
لكن قلمه ظل دائم الشموخ . ولم يفكر هذا المثقف الموسوعي ذو الطراز النادر الفريد في أن يستجدي أحدًا لكي يحصل على المكانة التي يستحقها .. بل ظل يعبر عن قناعاته التي تجلب عليه المزيد من المتاعب .. وهي متاعب ظلت ترافقه وتنغص عليه حياته .. حتى رحيله .

وسأله فوزي فهمي ـ أحد تلاميذه ـ يومًا : متى يليق بالإنسان الموت ؟ فأجاب : « يوم أن تصاب عواطفه وأفكاره وطرق نضاله بالشيخوخة » .

ويروى التلميذ أن مندور قال له : « تساءل إبيكتيتوس يومًا .. ما الذي تحب أن تكون منشغلاً به عندما يفاجئك الموت .. أما بالنسبة إلي فإنني أحب أن يكون عملاً إنسانيًا باسلاً نافعًا يستهدف المصلحة العامة » .

تقع على عاتق الدكتور فوزي فهمي ، تلميذ مندور ، أعباء ضخمة في إحياء ذكرى وتراث الدكتور محمد مندور .

■ ■ ■



* البداية .. صدام مع الباشوات ومواجهة مع «قانون المليونيرات» ..

حافظ محمود :
نقابي .. يدافع عن أخلاقيات المهنة

أشعر بأنني مدين للصحفي الكبير حافظ محمود . فقد كنت - كصحفي وعضو في نقابة الصحفيين - أعتبره يمينيًا في الفكر والسياسة ، ولا أدلي بصوتي له .. وهو الذي يحمل بطاقة العضوية رقم واحد في نقابة الصحفيين والنقيب لمدة أربع دورات . والآن .. أدرك . أن حافظ محمود تعرض لظلم واضح من كثيرين غيري لم يعرفوا كل تاريخه ومواقفه ، فقد كان نقابيًا مخلصًا وجريئًا في الدفاع عن آداب المهنة وحقوق الصحفيين وكرامتهم ، وهو الذي وضع لائحة آداب المهنة عندما كان نقيبًا وميثاق الشرف الصحفي عندما كان عضوًا في المجلس الأعلى للصحافة .

وأعترف بأن اهتمامي بمتابعة حافظ محمود بدأ عندما قرأت اقتراحه بأن تحتفل مصر باليوم التاسع من شهر مارس في كل عام بانطلاق ثورة ١٩١٩ .

■ ■ ■

ورغم أن حافظ محمود سبق أن كتب عن ذكرياته الصحفية ، إلا أن الحوارات التي أجراها معه الزميل « إبراهيم عبد العزيز » في مطلع الثمانينات ونشرها في كتاب بعنوان

« حافظ محمود أول عضو في نقابة الصحفيين .. يتذكر » تحتوي على شهادات هامة لرجل عاش في شارع الصحافة منذ أواخر الثلاثينات من القرن الماضي .

في العهد الملكي ، كان حافظ محمود رئيسًا لتحرير صحيفة «السياسة» .

وجاءه أحد الباشوات الأثرياء ، ولم يكن يملك أبجدية ثقافية ، فكل أبجديته هي الفلوس ، ولكنه في ذلك اليوم حمل معه مقالاً طالبًا نشره . ورفض حافظ محمود نشر المقال . ولكن الباشا سأله : « ألن تنشر المقال غدًا » ؟ وكان الرد : « لن أنشر المقال غدًا ولا بعد غد » .

ثار الباشا وهاج وماج ، ثم قال : « من الذي ينفق على هذه الجريدة » ؟

وكان الباشا أحد الذين يتبرعون للجريدة .

قال حافظ محمود : « الجريدة ليست فقيرة » .

وجاء الرد من الباشا بقصد الإهانة :

« ألست تعمل في هذه الجريدة التي أصرف عليها وتقبض مرتبك منها ؟ »

ورد حافظ محمود قائلاً : « أنا أعمل عند هذا (وأشار إلى القلم الذي يكتب به).

ولم يتراجع الباشا أو يشعر باليأس ، وواصل حديثه بلهجة التحدي :

« غريبة هذه الفلسفة ... ناس يعملون عندنا ، ويقولون لك .. نحن نعمل عند القلم » . وأضاف غاضبًا : « لن أغادر هذه الجريدة قبل أن تبعث بمقالي إلى المطبعة » !

قال حافظ : ستظل جالسا إلى الأبد .

فقال الباشا : تذكر أنك مثل ولد من أولادي (كان حافظ في السابعة والعشرين من عمره في ذلك الوقت) .

قال حافظ : هذه قضية أخرى .

وواصل الباشا إعلان التحدي :

« المقال يجب أن ينزل المطبعة .. والآن فورًا . لقد قلت لأصدقائي : أن المقال سينشر .. فكيف يكون شكلي أمامهم » ؟

ومرة أخرى سمع الباشا الرد :

المقال لن ينشر ، ويجب أن تنزل أنت الآن فورًا .

وطلب حافظ محمود الساعي ليأمره بإخراج هذا الباشا ، الذي كتب مقالاً وهو لا يعرف شيئا عن الكتابة .

وكان يعمل بالجريدة الشاعر الظريف محمد مصطفى حمام ، الذي سمع الصخب الذي يحدثه الباشا الثائر ، فأسرع لكي يهمس في أذن حافظ محمود قائلا :

« لا داعي لإخراجه بهذه الطريقة ، سأصحبه إلى مكتبي وأصرفه بعيدًا عنك » .

وبالفعل ، أخذه الشاعر معه ، وراح يلقي عليه النكت لإضحاكه ، ولكنه خرج من الجريدة إلى مجلس النواب ليشكو حافظ محمود إلى الدكتور محمد حسين هيكل رئيس حزب الأحرار الدستوريين ، الذي تنطق جريدة « السياسة » بلسانه ، والذي عين حافظ رئيسًا لتحريرها رغم صغر سنه .

كان وزراء الحزب قد استنكروا قرار الدكتور هيكل قائلين : « كيف تعين « ولدًا » رئيسا لتحرير جريدة الحزب ؟» فقال لهم هيكل : «إن هذه المهنة لا يمارسها إلا أهلها» . كانت اعتبارات الكفاءة والموهبة تتقدم على اعتبارات السن والأقدمية .

لم يكن الدكتور هيكل على علم بالتفاصيل . وتولى حافظ محمود إبلاغ سكرتيره بما حدث ، وبأنه مستقيل ، وذهب ليستريح بعض الوقت في الإسكندرية .

وعلم حافظ بعد ذلك أن الدكتور هيكل ـ بعد أن أبلغه سكرتيره بتفاصيل ما حدث ـ قال للباشا :

« أفعلت ذلك مع حافظ ثم تجيء لتشكوه لي . أنت الذي جلبت ذلك على نفسك . كان ـ يجب أن تأتي لمجلس الإدارة وتشكو . وإذا كنت محقًا نعاقبه ... لكن أن تذهب إليه في الجريدة وتعتدي عليه أثناء أدائه لوظيفته ، فهذا ما كان ـ يجب أن يحدث . » فقال الباشا : يعني أنا مخطئ ؟ ورد الدكتور هيكل : نعم . أنت كذلك .

كان حافظ محمود قد تغيب عن الجريدة لأيام ثلاثة في الوقت الذي ـ يجرى البحث عنه . وعلم أن الدكتور هيكل سأل عنه ثلاث مرات على الأقل . وأخيراً جاءه صوت الدكتور هيكل غاضبًا : « ما هذا الذي تفعله معي .. كيف تترك الجريدة بسبب جاهل بدرجة باشا ؟ ! »

كان هذا هو الدكتور محمد حسين هيكل باشا ، الذي تولى رئاسة مجلس الشيوخ في أخطر فترات الحياة السياسية المصرية ، كما تولى رئاسة حزب يُعد حزب المثقفين الحريص على انضمام الصفوة إلى صفوفه .

الشيك المرفوض

كان حزب الأحرار الدستوريين في صفوف المعارضة ، عندما دخل المليونير أحمد عبود باشا إلى مكتب حافظ محمود ، وقال : « سلام عليكم .. أنا عبود » . قال حافظ : «سعادتك معروف » .

قال عبود باشا : أريد أن أنضم إلى الأحرار الدستوريين » ورد حافظ : انضم .. فما المانع ؟

قال الباشا : أنا عرفت أنك محبوب ولك كلمة مسموعة عند رئيس الحزب ، ولذلك رأيت أن أوسطك لديه .

وملأ عبود باشا استمارة الانضمام إلى الحزب مرفقًا بها شيك على بياض ، وطلب

من حافظ أن يدون فيه الرقم الذي يريده على ألا يزيد عن مائة ألف جنيه . وقال: إنه سيمر في اليوم التالي أو بعد يومين ليعرف نتيجة وساطة رئيس التحرير .

وشعر حافظ محمود بفرحة لأن الحزب في أزمة مالية تنعكس بطبيعة الحال على الصحيفة التي يصدرها . وتوجه حافظ إلى محمد محمود باشا ، رئيس حزب الأحرار الدستوريين في ذلك الوقت ، وعرض عليه الأمر. كان رئيس التحرير يتوقع أن يرقص رئيس الحزب طربًا ؛ لأنه كان قد أنفق على الحزب مائة وخمسون ألف جنيه في تلك الفترة ، وما يعرضه عبود باشا يخفف كثيرًا من الأزمة المالية التي يمر بها الحزب ، ولكنه فوجئ برئيس الحزب ينظر إليه شذرًا ويقول : أليس هذا هو طلب العضوية .. والشيك ؟ وألقى بهما على الأرض . وأضاف موجها كلامه إلى حافظ محمود :

كان يجب أن تفعل مع عبود باشا مثلما فعلت أنا الآن . قل له عندما يأتي إليك ان حزب الأحرار لا يتعامل مع من هم مثله (كان عبود باشا على صلة بالإنجليز) .

« قطة » تصرخ

كان حافظ محمود شاهداً على مولد نقابة الصحفيين ، وعاصر الكثير من معاركها .

وحضر كامل الشناوي ، مندوب الأهرام مجلس النواب ، الجلسة التي تم فيها إقرار مشروع قانون النقابة يوم ٢٠ مارس ١٩٤١ ، وذهب إلى حافظ محمود ليقول له : مبروك لنا جميعاً .. النقابة ومبروك لك خاصة .

كان أهل الرأي في منتهي الحكمة والعقل في ذلك الوقت ، على حد تعبير حافظ محمود ، حين رأوا أن مجلس النقابة يجب أن يضم بين صفوفه كل ألوان الصحافة من حكومة ومعارضة وشباب وشيوخ . وباستثناء الشابين حافظ محمود ومصطفي أمين ،

كان بقية أعضاء مجلس النقابة كلهم باشوات : تكلا باشا وجلاد باشا .. إلخ .

لم يكن للنقابة مقر ، وكان مجلسها يجتمع أحيانا في جريدة « المصري » ، وأحياناً في جريدة « الأهرام » حتى جاء محمود أبو الفتح وتنازل عن شقة له بعمارة «الايموبيليا» مكونة من حجرتين لتكون مقراً للنقابة .

روي حافظ محمود للزميل إبراهيم عبد العزيز مشهدا هاما حول تلك الفترة قال :

كنت كعضو في مجلس النقابة أجلس مثل « القطة » وسط بقية الأعضاء المليونيرات أصحاب الأهرام والمقطم ، ولكن هذه « القطة » صرخت وخرجت عن انطوائها في مواجهة الباشوات من أصحاب الصحف وأصحاب الملايين » ...

قانون المليونيرات

كان يوجد نص في قانون نقابة الصحفيين يطلب من مجلس النقابة إعداد مشروع يسمي لائحة الاستخدام (عقد عمل) ، فقام الباشوات أصحاب الملايين بتشكيل لجنة منهم ووضعوا مشروعاً جاء فيه: أن الصحفي لا تحسب له مكافأة نهاية الخدمة إلا بعد عشر سنوات من صدور هذا القانون !!

قام حافظ محمود من مكانه وهو يصرخ قائلا : ما هذا الكلام؟ هذا ظلم . كيف بمن تنتهي مدة خدمته هذا العام أو العام القادم أو خلال السنوات العشر السابقة على صدور القانون ولن يطبق فيها هذا القانون .. أن يفعل ؟ .

كان واضحا ، فيما يرى حافظ ، أن أصحاب الصحف المليونيرات قد صاغوا القانون على هواهم ليستريحوا لمدة عشر سنوات قادمة من أي أعباء مالية نحو من يعملون عندهم من الصحفيين التي تنتهي مدة خدمتهم خلال هذه السنوات العشر .

ولدي اعتراض حافظ محمود على مشروع الباشوات ، قام فارس باشا نمر ،

صاحب المقطم ، وأمسك بحافظ من ربطة عنقه وقال : « ماذا تقول يا رجل ؟ عندنا بضعة قروش للبنات (بناته) بدّك تاخدهم » !

قال له حافظ : « هل أخذت منك شيئاً.. يا باشا ؟ ضحك تكلا باشا ، صاحب الأهرام ، وراح يستفز صاحب المقطم لتستمر المشاجرة مما أثار غيظ فارس باشا نمر ، فقال للمجتمعين : هل أنا وحدي صاحب صحيفة ؟ أنتم أيضاً أصحاب صحف . لماذا لا تتفقون معي ؟ سأعقد اجتماعاً مع أصحاب الصحف الحقيقيين ، لأنكم فقط تكتفون بالفرجة » .

رد حافظ قائلاً : « إذن .. يا باشا سأعقد اجتماعاً للمحررين » .

وعقد صاحب المقطم اجتماعًا حضره ثلاثة فقط . وفي المقابل ، عقد حافظ اجتماعًا حضره كل المحررين وتم وضع مشروع هو الذي تسير عليه النقابة اليوم ، والذي صار قانونًا فيما بعد . ونجح المحررون في مواجهة الباشوات أصحاب الصحف وأصحاب الملايين ، فلم ينجح «بيزنس» الصحافة وإنما نجح أصحاب المبادئ في الصحافة . وأعلن المحررون أن من يوافق على مشروعهم سوف ينتخبونه . وقد كان .

كانت صدمة كبيرة لتكلا باشا سقوطه كمرشح لموقع النقيب بينما نجح محمود أبو الفتح ، وهو محرر يعمل عنده . كان حافظ محمود في مكتب الباشا وسمعه يقول : «كيف يكون محمود أبو الفتح نقيبًا عليّ أنا .. وهو يعمل عندي؟!» .

مقاطعة ناجحة

أعد حافظ محمود مشروع قانون للمعاشات ، قدمه الصحفي الكبير فكري أباظة لمجلس النواب وتم إقراره في دقيقة ، ولكنه تعثر في مجلس الشيوخ . قالوا هناك: الحكومة مالها؟ ولماذا تدفع؟ ولماذا يدفع أصحاب الصحف؟ وقام أصحاب

الصحف بتحريك بعض الأعضاء في مجلس الشيوخ ضد القانون . ورفضه المجلس بالفعل .

كان حاضرًا الجلسة محمد الحناوي ، والد كمال الحناوي (من أبرز الضباط الأحرار في نظام يوليو ١٩٥٢) بصفته مندوب الأهرام وقال لزملائه المندوبين في المجلس : لماذا أنتم جالسون وهؤلاء الأعضاء يقطعون في لحومنا ويأكلوها؟ وطلب منهم جميعًا ألا يكتبوا حرفًا واحدًا في صحفهم عن هذه الجلسة . وذهب محمد الحناوي ـ وكان شاعرًا وأديبًا ـ إلى مقر جريدة الأهرام لمقابلة رئيس التحرير أنطون الجميل وأبلغه بأنه يريد أن يستقيل ، فسأله عن السبب ، وعندها عرف منه ما جرى في مجلس الشيوخ . واتخذ الجميل موقفًا مشرفًا ، وقال للحناوي : «أنا معكم كرئيس تحرير فيما اتفقتم عليه من عدم نشر أي حرف عن جلسة مجلس الشيوخ ، فالصحافة لها كرامتها ويجب الدفاع عن هذه الكرامة» .

وخرجت الصحف في اليوم التالي .. وكأن مجلس الشيوخ لا وجود له . واستدعت اللجنة التشريعية بمجلس الشيوخ فكري أباظة للمناقشة . وطلب من حافظ محمود أن يصحبه . ووجد الاثنان أن الموقف من الصحافة تغير تمامًا . وقال ممثل الحكومة وزير الدولة عبد الفتاح حسن لحافظ محمود : «اعرض ما عندك .. على الصحافة أن تتكلم وعلينا أن ننفذ» . وتمت الموافقة على المشروع الذي قدمته النقابة .

وهنا يقول حافظ محمود :

«تعرض هذا القانون بعد ذلك للتعديل أو التغيير ، فكلنا يشكو من نص إحالة الصحفي إلى المعاش . وكان القانون الذي وضعناه ينص على أن للصحفي الحق في المعاش حين يطلبه عند سن الستين ، ولم نقل .. يحال للمعاش ويترك العمل بالصحافة » .

الصدام الأول

وقع الصدام مبكرًا بين نقابة الصحفيين ونظام ٢٣ يوليو ، وبالتحديد في ديسمبر عام ١٩٥٢ مع اجتماع الجمعية العمومية للنقابة . وَجَهَ الصَحفيون انتقادات لاستمرار الرقابة والأحكام العرفية . واقترح إحسان عبد القدوس أن تصدر النقابة بيانًا للاحتجاج على ذلك .

وظهر أن قادة يوليو عرفوا وقائع الجمعية العمومية بالحرف ، فقد سجلوها . وفي لقاء بين حافظ محمود وحسين أبو الفتح (النقيب) ومصطفى القماش (سكرتير النقابة) وزكريا محيى الدين وأنور السادات .. وجمال عبد الناصر (ولم يكن الصحفيون يعرفونه) لاحظوا أن الأخير هو الذي بدأ الحديث بعنف ، وهدد باعتقال المنتقدين . وطلب السادات عقد الجمعية العمومية مرة أخرى ، وطلب عبد الناصر من السادات أن يشرح السبب في استمرار الأحكام العرفية ، وقال: أنه سيدعو لهم فتحي رضوان ليشرح لهم هذا الأمر .

قرارات بالفصل

في عام ١٩٦٢ ، أوكل عبد الناصر إلى عبد الحكيم عامر شؤون الصحافة . وأقنع الوشاة .. عامر بأن الجرائد تخسر ، والمحررون كثيرون ، وبالتالي فإنه لابد من الاستغناء عن بعض الصحفيين «من أجل التوفير» .. فراح عامر يصدر أوامره العشوائية ، وبدأ بجريدة الجمهورية وقرر فصل ٣٤ كاتبًا فيها ، منهم عبد الرحمن الشرقاوي وسعد الدين وهبة وسعد مكاوي .

قرر حافظ محمود ـ كنقيب ـ رفض القرار بواسطة جمعية عمومية للنقابة ، وذهب لمقابلة علي صبري باعتبار أن الصحف كانت تابعة له كمسؤول عن الاتحاد الاشتراكي ، ولكنه انفعل وقال : «هو كل حاجة على صبري .. علي صبري !» .

قال حافظ : الصحف لما تم تأميمها صارت تابعة لمن؟

وكان رد علي صبري : «وأنا مالي! » .

وشرح حافظ أنه مضطر للحديث معه لحل المشكلة ، وعرض عليه الاختيار بين حلين : إما أن تصدر جريدة جديدة تستوعب هؤلاء الكتاب والصحفيين المطرودين ..

وقاطعه علي صبري قائلاً : هذا تحدي يا أستاذ .

واستطرد حافظ ليعرض الحل الثاني : بما أن هؤلاء الصحفيين المبعدين يقبضون مرتبات من باتا وعمر أفندي ، وبقية المؤسسات التي وزعوا عليها ، دون عمل ، فلماذا لا يعودون إلى جرائدهم وتحول مرتباتهم إليها ويمارسون عملاً في مقابل إمداد مؤسساتهم الصحفية بالإعلانات لترويجها وتوفير الأجور اللازمة لهؤلاء الصحفيين .

ومرة أخرى ، قال علي صبري : «إن هذا تحدي!» . وعندما تساءل حافظ عما يفعله إذن ، أجاب علي صبري : «اكتب لي مذكرة واتركها» . وكتب حافظ محمود المذكرة ، ولكنه يعلق على ذلك بعد مرور السنين بقوله أنه من المؤكد أنه لم يقرأ المذكرة ، لأنه لم يتخذ بشأنها أي قرار .

نادي بدلاً من النقابة!

معارك أخرى كثيرة تالية ، منها أن الرئيس أنور السادات أراد حل نقابة الصحفيين وتحويلها إلى نادٍ! واتهامه للصحفيين بأنهم «خونة» لأنهم يكتبون «ضد مصر» في الخارج كما أن الذين يتركونهم يفعلون ذلك دون حساب «خونة مثلهم» .

وأسفر الجدل والضغوط عن قرار من السادات بتشكيل لجنة وضعت قانونًا من وراء الصحفيين يتضمن إحالة الصحفي .. إلى المعاش عند بلوغه سن الستين .

* هكـذا كـان الكتـاب في الصحف المصرية يوجهون انتقاداتهم اللاذعة في العشرينات من القرن الماضي (قبل حوالي ٨٠ سنة) ولابد أن تأخذك الدهشة إزاء هذا الرقي في أسلوب التعبير والهجاء السياسي، والبراعة في إطلاق روح السخرية والفكاهة والدعابة التي تجتذب القارئ بطريقتها الأخاذة .. وكل ذلك في إطار الدفاع عن القضية الوطنية ضد «أصحاب البرانيط» والدفاع عن المال العام وعن الدستور والحياة النيابية ضد مزيفي الإرادة الشعبية .



عبد العزيز البشري : واحد.. من ظرفاء مصر

كـان الشيخ الأديب عبد العزيزي البشري يكتب في صحيفة «السياسة الأسبوعية» سلسلة من الموضوعات تحت عنوان «المرايا» يحرص فيها على تحليل «شخصية» من تجلوه من الناس والتسلل إلى مداخل طبعه، وتقديم هذا التحليل إلى القارئ في صورة فكهة مستملحة . إنه يسير على خطى الجاحظ الذي «يتسقط هنات المرء بألوان التندر والتطريف» .. وكان البشري يرى أن شأن الكاتب في هذا المضمار كشأن المصور الكاريكاتوري، فهو يعمد إلى الموضع «الناتئ» في صفات المرء.. فيزيد في وصفه ويبالغ في تصويره بما يتهيأ له من فنون النكات .

وتعتمد النكتة في رأي عبد العزيز البشري على خلل في القياس المنطقي بإهدار إحدى مقوماته أو بتزييفها أو بوصلها، بحكم التورية .. ونحوها بما لا تتصل به في حكم المنطق المستقيم .. فتخرج النتيجة على غير ما يؤدي إليها العقل لو استقامت مقدمات القياس . وهذا هو الذي يبعث العجب ويثير الضحك والطرب وبذلك تكون النكتة من أحلى ضروب البديع .

■ ■ ■

ولكن البشري يحذرنا من أن النكتة ستكون باردة مليخة لا طعم لها في مساغ الكلام إذا لم تكن محكمة التلفيق ومتقنة التزييف بحيث يحتاج إدراكها إلى فطنة ودقة فهم .

ويؤكد البشري أنه عندما يتناول بقلمه هذا النوع من ألوان التندر ، فإن الأمر لابد أن يكون متصلاً بالشأن العام وأن يبتعد عن خلاف ذلك .

عدو للدستور

وفي النموذج الذي نقدمه للقارئ لهذا اللون من الكتابة الذي برع فيه عبد العزيز البشري .. يبدو كاتبنا موفقًا غاية التوفيق في اختيار الشخصية التي «يحللها» في «مرآته» ويتندر بها .

إنه أحمد زيور باشا ، الذي ولد في الإسكندرية في عام ١٨٦٤ ، وينحدر من أسرة شركسية الأصل وتلقى تعليمه بالمدرسة الفرنسية بالإسكندرية ثم في كلية الجيزويت في بيروت قبل أن يتخرج في كلية الحقوق في باكس بفرنسا . وتقلد زيور عدة مناصب في القضاء حتى عين مستشارًا بمحكمة الاستئناف ثم محافظًا للإسكندرية . وعندما تحول ديوان الأوقاف إلى نظارة .. كان أول نظارها ، وتولى بعد ذلك عددًا من المناصب الوزارية . وأصبح رئيسًا للوزراء بين عامي ١٩٢٤و ١٩٢٦ ووقع اختيار الملك فؤاد على زيور باشا لرئاسة الوزارة لكي يقدم كل التنازلات الممكنة للحكومة البريطانية ، ولكي يوافق على إخلاء السودان من القوات المصرية ، ولاستصدار مرسوم بتأجيل انعقاد البرلمان لمدة شهر ثم حل مجلس النواب ، وفي ١٢ مارس ١٩٢٥ ، أجريت أغرب انتخابات في مصر تحت ضغط حكومي وفي ظل تدخل أجهزة الحكومة بعد أن تم تعديل معظم الدوائر الانتخابية بقرار من مجلس الوزراء استجابة لرغبات مرشحي القصر الملكي . ورغم

تسخير الحكومة لموظفيها ورجال البوليس والإدارة لمطاردة خصومها .. فقد جاءت النتيجة صدمة للحكومة وللملك وللإنجليز .. إذ حصل الوفد على ١١٦ مقعدًا في حين حصلت باقي الأحزاب والمستقلون على ٨٧ مقعدًا . ورفع زيور باشا استقالته إلى الملك في ١٣ مارس .. فعهد إليه الملك بتأليف الوزارة الجديدة في نفس اليوم وفي يوم ٢٣ مارس . تم افتتاح البرلمان الذي أعلنت الحكومة أن القوى المعادية للوفد هي صاحبة أغلبية مقاعده!! وأجريت الانتخابات داخل النواب ، وكانت المفاجأة هي فوز سعد زغلول بمنصب رئيس المجلس . وتبين أن أغلبية النواب ينتمون إلى الوفد وأصدر الملك مرسومًا بحل مجلس النواب في نفس اليوم الذي دعاه فيه إلى الانعقاد! ورفض نواب الشعب المرسوم ، وحاولوا دخول البرلمان ، إلا أن قوات الأمن منعتهم من الدخول .. فتوجهوا إلى فندق الكونتننتال ، حيث عقدوا اجتماعهم للاحتجاج على الاعتداء على الدستور والحياة النيابية ، وكان أحمد زيور باشا يلقب بـ«أحمد الصغير» باعتباره مجرد ظل لأحمد الكبير .. أي الملك أحمد فؤاد!

صورة كاريكاتورية :

وقد أبدع عبد العزيز البشري في الهجاء السياسي . لأنه اختار شخصًا مكروهًا من عامة الشعب وموضع سخريته في أحاديثهم في المقاهي والمنتديات السياسية والأحزاب بعد أن وضع نفسه في معسكر أعداء الوطن .

كتب البشري ، في «السياسة الأسبوعية» يصف زيور باشا على هذا النحو :

«... أما شكله الخارجي وأوضاعه الهندسية ورسم قطاعاته ومساقطه الأفقية .. فذلك كله يحتاج في وصفه وضبط مساحاته إلى فن دقيق وهندسة بارعة والواقع أن زيور باشا رجل - إذا صح هذا التعبير - يمتاز عن سائر الناس في كل شيء ، ولست أعني بامتيازه في شكله المهول طوله ولا عرضه ولا بعد مداه ، فإن في الناس من هم

أكثر منه بدانة وأبعد طولاً وأوفر لحمًا ، إلا أن لكل منهم هيكلاً واحدًا ، أما صاحبنا فإذا أطلعت عليه أدركت لأول وهلة أنه مؤلف من عدة مخلوقات لا تدري كيف اتصلت ولا كيف تعلق بعضها ببعض ، وإنك لترى بينها الثابت وبينها المختلج ، ومنها ما يدور حول غيره ، وفيها المتيبس المتحجر ، وفيها المسترخي المترهل . وعلى كل حال ، فقد خرجت هضبة عالية مالت من شعافها إلى الأمام شعبة طويلة ، أطل من فوقها على الوادي رأس فيه عينان زائغتان طلة من يرتقب السقوط إلى قرارة ذلك المهوى السحيق!» .

المجموعة الزيورية!



إننا هنا بإزاء كاتب فنان يرسم بقلمه لوحة كاريكاتورية .. مستفيدًا إلى أقصى حد من ثروة من المفردات اللغوية .. ومن قدرة خارقة على اكتشاف النتوءات وتضخيم العيوب الخلقية .. إلى جانب مهارة عالية في السخرية والدعابة عندما ينتقل إلى الجانب الأخلاقي .. يقول :

«غلط الناس إذا حسبوا زيور رجلاً واحدًا ، والواقع أنه عدة رجال ، وعلى الصحيح هو عدة مخلوقات .. فإذا أدهشك التباين في أخلاقه ، وراعك هذا التناقض في طباعه ، فذلك لأن هذا الجرم العظيم الذي تحسبه شيئًا واحدًا مؤلف في الحقيقة من عدة مناطق لكل منها شكله وطبعه وتصوره وحظه من التربية والتهذيب . فمنها العاقل ومنها الجاهل ، ومنها الحكيم ومنها الغر ، ومنها الكريم ، ومنها البخيل ، ومنها المصري ، ومنها الشركسي ، ومنها الفرنسي ، ومنها الإنجليزي ، ومنها المالطي .. كل منها يجري في مذهبه ويتصرف في الدائرة الخاصة به ، فلا عجب إذا صدر عن تلك المجموعة الزيورية كل ما ترى من ضروب هذه

المتناقضات! والظاهر أن زيور باشا، برغم حرصه على كل هذه الممتلكات الواسعة، عاجز تمام العجز عن إدارتها وتوليها بالمراقبة والإشراف. وما دامت الإدارة المركزية فيه قد فشلت كل هذا الفشل .. فأحرى به أن يبادر فيعلن إعطاء كل منها الحكم الذاتي على أن تعمل مستقلة بنفسها على التدرج في سبيل الرقي والكمال، وحسب عقله في هذا النظام الجديد أن يتوافر على إدارة رجليه وحدهما، ولعله يستطيع أن يسيرهما في طريق الأمن والسلام!».

إهدار أموال الدولة

ويضرب عبد العزيز البشري مثلاً على هذه المجموعة الغريبة من ضروب المتناقضات التي يجزم منها بأن ذلك «الخلق» ليس شيئًا واحدًا، وإنما هو عدة أشياء:

«... زيور باشا معروف بالقناعة والتعفف عن الابتذال في إحراز الأموال، ولكنهم في الوقت نفسه يقولون: إن جميع نفقات الولائم التي أقامها في مصر وفي أوروبا قد تناولها من «المصاريف السرية». بينما هو يقبض من خزانة الدولة ألف جنيه لهذا الغرض في كل عام! ومما يحسن ذكره في هذا الموضوع ما تحدثوا به من أنه لما زار أوروبا في الصيف الماضي، طاف بجميع المفوضات المصرية هناك ونزح كل ما فيها من المصاريف السرية، حتى إذا علم أنه قد أتى على ما في مفوضية باريس في هذه الأموال ولم يدع لها قرشًا ولا بارة .. أرسل تلغرافًا إلى مفوضية لندن لتسعفه بكل ما عندها من النقود!».

هنا.. نجد أن عبد العزيز البشري لا يهزل ولا يلقى بالنكات، وإنما يطلق انتقاداته اللاذعة ويمزجها بروح ساخرة .. يقول:

«ولقد تسمع أحيانًا عن زيور باشا حرصه على مصالح الدولة، على أنك إذا عاتبته على إسراف الحكومة في عهده وابتذالها لأموال الدولة بهذا الأسلوب الفادح،

أجاب في فوره قائلاً : Egypte est riche أي «أن مصر غنية!!» .

ماكر ودساس :

وينتقل البشري إلى زاوية أخرى في شخصية زيور ، التي يضعها تحت نظرته الفاحصة المدققة ، ويكتشف المزيد من العيوب والسلبيات :

«وربما تعرف في زيور باشا طيبة في القلب وسلامة في الخلق ، ثم قد يظهر لك فيه من المكر وترى عنده من أنواع الدس ما يعجز عن مثله أخبث الشياطين . وقد ذكروا أنه كلما التقى بوفدي فإنه يلومه على اتفاق الوفديين مع ألد أعدائهم ، الأحرار والدستوريين ، وإذا صادف حرًا دستوريًا يقول له : كيف يصح أن تتحدوا مع أولئك المجانين المخربين! .

وكانت الأحزاب قد اعترضت على مرسوم حل مجلس النواب ، كما اعترضت على صدور قانون الانتخابات الجديد ، وأعلنت بطلانه ودعت إلى مقاطعة أي انتخابات في ظل هذا القانون. وتصورت حكومة زيور أنها يمكن أن تكون مؤثرة في الانتخابات ، فوضعت ثقلها وراء حزبها الوليد (الاتحاد) لتفوز بأكبر عدد من المقاعد ، ولكن الانتخابات أسفرت عن فوز حزب الحكومة بأربعة مقاعد فقط ، بينما فاز الوفد بـ١٥٩ مقعدًا ، وحصلت بقية الأحزاب على ٧٢ مقعدًا .. وكانت تلك هي نهاية حكومة زيور ، التي اضطرت إلى الرحيل في ٧ يونيه عام ١٩٢٦ .

كل الاحترام «للبرنيطة!»

وكان زيور باشا لا يزال رئيسًا للوزارة عندما كتب البشري ما كتبه. وفي فقرة أخرى من مرآته لا ينسى أديبنا وكاتبنا الكبير القضية الوطنية يقول :

هناك صفة أخرى جامعة لدى زيور هي شدة احترامه «للبرنيطة» وعمله على

إرضائها بكل الوسائل . فما عرف أن زيور رد في حياته طلبًا للبرنيطة مهما كان حاملها في الناس ، حتى لقد زعموا أن أحد كبار علمائنا الأعلام من مصابيح الدجى وعمد الإسلام ، بعدما أعياه الكد والجهد وشدة الطلب والسعي وطول الوقوف بالأبواب والتردد بين مختلف الأحزاب ، في سبيل وظيفة خالية .. عزم أخيرًا على لبس القبعة لعله يحظى في هذه الأيام بمعونة زيور على إفتاء الديار أو مشيخة الإسلام ، ومولانا الشيخ المذكور بوجه خاص ، لا يعدم ألف فتوى من الشريعة تحل له هذه الذريعة .

وقبل أن يجمع زيور أوراقه ويترك موقعه كرئيس للوزارة .. كان البشري قد أوجز رأي وموقف المصريين من هذا الرجل .. فكتب يقول :

«إن أهل مصر ليأخذون زيور باشا كله بما لا يحصى من الجرائم على القضية الوطنية ، وإنهم ليعدون عليه سفهه في أموال الدولة واستهتاره بمصالحها ، وأنهم يحسبون عليه إيثارة الأهل والأقربين والأصحاب والمحبين وذوي أرحامهم بمناصب الدولة ومنافعها ، وقد يكون لمجلس النواب مع «هؤلاء» الرجل شأن إذا أقبل يوم الحساب.. » .

العضو الوحيد .. البريء !

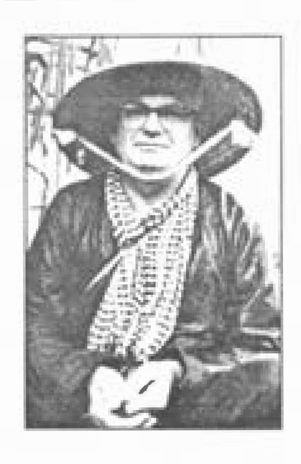
ولا يستطيع البشري أن يقاوم نزعته التهكمية وهو يختتم عرضه لصورة تظهر في «المرآة» لزيور باشا .. فيعود مرة أخرى إلى ما بدأ به .. وهو يستعرض تضاريس التكوين البدني للرجل .. فيقول عن هذا القسيس الجزويتي ، في جلد رئيس وزراء مصري :

«إنه من الظلم أن يؤخذ البريء بجريرة الإثم» ومن التعسف أن يعاقب المظلوم بما أجرم الظالم ، فقد يكون الذي اقترف كل هذه الآثام هو كوع زيور باشا الأيسر ،

أو القسم الأسفل من «الغدة» أو المنطقة الوسطى من فخذه اليمنى أو غيرها من تلك الكائنات التي تجمعت في هيكله العظيم ، فما شأن تلك المخلوقات كلها حتى نزج بها إلى مواطن الاتهام ، وتعاقب بما ارتكب بعضها من الجرائر والآثام؟! إن الحق والعدل ليقضيان أن يؤلف مجلس النواب ، إن شاء الله ، لجنة تقوم بعمل التحقيق في جسم صاحب الدولة ، فتسأل أعضاءه ، عضوًا عضوًا ، وتحقق مع أشلائه ، شلوًا شلوا ، حتى يفرق منها بين المحسن والمسيء ، ولا يخلط في العقوبة بين المجرم والبريء .

«... ولعل العضو الوحيد المقطوع ببراءته من كل ما ارتكب من الآثام هو مخ زيور باشا ، فما أحسبه شارك.. ولا دخل له في شيء من كل ما حصل!! » .

■ ■ ■



* جعل العالم شغله الشاغل، واختار الحقيقة والصدق.. والدفاع عن القضايا النبيلة .

ولفريد بورشيت :
في مواقع صنع التاريخ

التقيت به في أحد فنادق مدينة هانوي في أواخر الستينيات من القرن الماضي ، وسرعان ما أصبحنا أصدقاء . كنت قد توجهت إلى هناك لتغطية وقائع الحرب في فيتنام للأخبار . وسبق أن قرأت عدة كتب لهذا الرجل ، الذي التقيت به بطريق الصدفة .. وكان آخرها «هانوي تحت القنابل» .

ورغم أنني تعرفت عليه من صور منشورة له في بعض كتبه ، فقد بادر بتقديم نفسه لي قائلاً : «ولفريد بورشيت» .

ومنذ عام ١٩٨٣ ، الذي توفي فيه هذا الصحفي الاسترالي العظيم ، وأنا أود الكتابة عنه .

ذكريات أحاديثنا في الأمسيات في الفندق لا تمحى .. والقنابل تتساقط حولنا ، ولكنها لا تقطع مسار الأحاديث .

■ ■ ■

وكنت قد قررت أن أكتب عنه أيضًا بعد أن قرأت في عدد ٣١ أكتوبر عام ٢٠٠٥ من صحيفة «نيويورك تايمز» الأمريكية ما نشره مؤرخ أمريكي رسمي تابع لوكالة الأمن القومي الأمريكية حول حادث خليج تونكين .

ويقع هذا الخليج على الساحل الفيتنامي المطل على بحر الصين الجنوبي . وطول الخليج خمسمائة كيلو متر وعرضه ٢٥٠، وتحد الخليج من الشمال والشرق .. بلاد الصين . وفي الشرق منه توجد جزيرة خينان .. وفيتنام (في الجنوب الغربي والشمال) .. والطريق الملاحي الرئيسي يمر عبر مضيق هينان ، أي بين الصين .. والجزيرة ويصب النهر الأحمر في هذا الخليج . ويقع على ضفافه ميناءان هامان هما «ثوي» ، و«هايفونج» الفيتناميان ، كما يقع على شاطئه أيضًا ميناء «بي ـ هاي» الصيني .

وفي الرابع من أغسطس عام ١٩٦٤ ، أذيعت في الولايات المتحدة تقارير إخبارية تقول: أن زوارق طوربيد تابعة لفيتنام الشمالية أطلقت نيرانها على مدمرتين أمريكتين ، وهي التقارير التي تذرعت بها الحكومة الأمريكية في ذلك الوقت ، لتصعيد الحرب الأمريكية في فيتنام ، واتخذ الكونجرس الأمريكي ما سمي بـ«قرار تونكين» الذي أعقبه قيام البحرية الأمريكية بتلغيم مداخل الموانئ الفيتنامية .

هذا المؤرخ التابع لوكالة الأمن القومي الأمريكية قام بالتحقيق في حادث خليج تونكين ، وتوصل إلى أن كل ما أذيع من تقارير إخبارية عن الحادث لم يكن سوى أكذوبة .. ولم يحدث على الإطلاق أن زوارق طوربيد فيتنامية هاجمت مدمرات أمريكية ، وأكد أن مسؤولين أمريكيين اكتشفوا ، في ذلك اليوم المشؤوم أن الحكاية كلها ملفقة عن عمد ، ولكنهم قرروا إخفاء الحقيقة والتستر على الأكذوبة .

ونتيجة لهذه الأكذوبة المتعمدة ، سقط حوالي ستين ألف جندي أمريكي .. قتيلاً في الحرب الفيتنامية، وكذلك مليون فيتنامي .

وكان من المقرر نشر القصة الحقيقية الكاملة لهذه الأكذوبة في كتاب يصدر بين عامي ٢٠٠٢و ٢٠٠٣ ، غير أنه تم منع نشر الكتاب ، وخاصة أن الولايات المتحدة كانت تستعد لحرب جديدة تحت ستار أكذوبة أخرى تستخدمها كذريعة لغزو

واحتلال العراق .

من الصحفيين الكبار الذين سبقوا غيرهم ، منذ وقت مبكر ، في فضح هذه الأكذوبة ومعارضة الحرب الأمريكية في فيتنام الصحفي والكاتب «ولفريد بورشيت» .

لم أستطع الكتابة عنه بعد وفاته.. ولم تسعفني الظروف للكتابة عنه بعد أكتوبر ٢٠٠٥، وافتضاح أكذوبة خليج تونكين ، التي طالما حدثني بورشيت عن سيناريو «فبركة حكايتها» في لقاءاتنا على مدى شهر كامل .

كان بورشيت قد عارض الحرب الأمريكية في كوريا ، والتي شاركت فيها قوات من بلاده (استراليا) .

ومنذ ذلك الوقت أصبح بورشيت هدفًا لحملة مطاردة رسمية امتدت لعشرات السنين ، جرى خلالها منعه من دخول بلاده طوال عشرين سنة . ولم يستطع استعادة جواز سفره ، الذي كان قد تقرر إلغائه إلا في عام ١٩٧٢ عندما تولت الحكم في استراليا حكومة عمالية في الوقت الذي كانت استراليا تسحب فيه قواتها من فيتنام .

وفي عملية انتقامية سياسية ، قرر اليمين الحاكم في استراليا ، في وقت من الأوقات ، حرمان أطفاله من حقوقهم التي يتمتعون بها بحكم مولدهم في استراليا . وقامت حملة شعواء ومتواصلة لتشويه اسم بورشيت عن طريق الأكاذيب .

الآن .. أشعر برغبة ملحة ـ ومتأخرة ـ في الكتابة عن صحفي حر صاحب مبدأ .. ينحاز إلى الحق والحرية مهما تحمل من مشاق وأهوال .

ضمير حي

إذا كنت قد أهملت الكتابة عن بورشيت ، فإن غيري لم يفعل . وقد ظهرت حقائق كثيرة عن الرجل بعد رحيله .. وهو في المنفى ، وذلك في سلسلة من الدراسات كتبها «جيفان ماكورماك» ، المؤرخ الاسترالي البارز المتخصص في شؤون

اليابان وكوريا . واشتملت هذه الدراسات على مقالات ماكورماك التمهيدية «داريفوس استرالي» ، و«بورشيت في كوريا» التي نشرها في مجلة «المجتمع الاسترالي» الشهرية في أغسطس ١٩٨٤ وسبتمبر ١٩٨٥ و«اليمين الجديد وحقوق الإنسان : الحرية الثقافية وقضية بورشيت» ، وفصل من خمسين صفحة بعنوان : «كوريا : حرب ولفريد بورشيت عبر ثلاثين سنة» ومقتطفات أدبية مختارة لبورشيت : «الكتابة من الجانب الآخر للعالم ١٩٣٩-١٩٨٣» .

والأبحاث الحديثة في الأرشيفات البريطانية والأمريكية تثبت الكثير مما كتبه ماكورماك قبل ربع قرن ، وتكشف الستار عن الأساليب المشينة التي استهدفت الإساءة إلى بورشيت وعائلته في الخمسينيات والستينيات .

وقد ساهمت هذه الإساءات في التعتيم على تقارير ورسائل بورشيت من ميادين الحروب . وأدى هذا التعتيم إلى تضليل الرأي العام الاسترالي والأمريكي .. مما أسفر عن خسائر بشرية فادحة ، فقد كان يمكن إنقاذ عشرات الآلاف من الأرواح .. لو كان هناك من يستمع إلى تحذيرات صحفي يملك ضميرًا حيًا .

شاهد عيان

أتذكر بورشيت وهو يروي رحلة شاب يجوب أنحاء أوروبا بين الحربين العالميتين ويساعد على إنقاذ العديد من الألمان من خصوم هتلر من الموت ثم يغطي وقائع حرب الباسيفيك للصحف البريطانية خلال الحرب العالمية الثانية .

وكان هذا الشاب هو بورشيت

غير أن التجربة الهائلة التي عاشها بورشيت بعد نهاية الحرب هي دخوله هيروشيما بعد ضربها بالقنبلة الذرية .

كان أول صحفي غربي يضع قدمه في المدينة المنكوبة . (وقد دخلتها بعده بحوالي ثلاثين سنة) ، وكان أول من كشف للعالم عن الأخطار المميتة للإشعاعات النووية .

أصابه الارتياع ، وصعق مما شاهده من ضحايا ودمار وخراب شامل في المدينة اليابانية . وقدم وصفًا دقيقًا للمشهد التراجيدي .

ومنذ ذلك الوقت أصبح بورشيت مغضوبًا عليه . وقرر المسؤولون الأمريكيون فرض رقابة على رسائله الصحفية .

إنه صحفي متميز .. كان حاضرًا في كل مكان حيث تتم صناعة التاريخ .

في ألمانيا ، عشية انطلاق جحيم الحرب العالمية الثانية .

مع القائد البريطاني «وينجت» في طريق بورما . في الصين عندما كان الجيش الأحمر الصيني بزعامة ماوتسي تونج يحارب ضد المحتلين اليابانيين وحزب الكومنتانج المعادي للثورة بزعامة الجنرال شيانج كاي شيك . وفي هيروشيما بعد ضربها بأول قنبلة ذرية في تاريخ العالم (رغم محاولات منعه من دخول المدينة) ثم في ألمانيا ، مرة أخرى ، بعد الحرب ، وفي شرق وجنوب آسيا مع حروب الهند الصينية ثم في الصين مرة أخرى ، وكوريا وفيتنام وكمبوديا .. ومناطق عديدة تحولت إلى ساحات للصراع والنزاع والثورات والحروب .

ولم يكن بورشيت يتواجد في مواقع الأحداث فحسب ، بل كان يملك المعلومات من مصادرها المباشرة ومن لقاءاته الشخصية مع صناع القرار : الجنرال ماك آرثر - هاريمان - كيسنجر - شواين لاي - هوشي مين - سيهانوك ..

إنه يقدر الشخصيات المدافعة عن قضايا نبيلة .

فقد جعل العالم شغله الشاغل ، واختار الحقيقة والصدق . وأصبح بورشيت موضع تقدير في اليابان ، عقب الحرب العالمية الثانية ، عندما تحدى السيطرة

الأمريكية على المعلومات ومحاولات منع نشر الحقائق عن الإشعاعات النووية .

وبسبب مواقفه وآرائه النزيهة ، خسر الرجل تأييد رجال الصحافة في «فليت ستريت» - معقل الصحافة في أمريكا - بعد أن سادت أجواء الحرب الباردة في أوروبا ، وتعرض لسلسلة من الاتهامات الكاذبة ، مثل مساعدة «العدو» في كوريا ، والمشاركة في استجواب أسرى الحرب الأمريكيين والاستراليين! .. بل اتهموه بأنه يعمل مع «الكي .. جي .. بي » (المخابرات السوفييتية»، وبأنه يعيش حياة باذخة .. بينما كان الرجل يكد ويجتهد في الصفوف الأولى دائمًا ويعرض نفسه للأخطار والأمراض لكي يكتب رسائله على الآلة الكاتبة ويمارس شظف العيش .

وكل هذه الاتهامات الباطلة .. لأن الرجل تجرأ وكتب ما لا يرضى تجار الحروب ولأنه يرفض الاعتماد على المعلومات «الرسمية» ويصر على السفر والترحال لكي يرى بنفسه حقيقة ما يجري على الأرض .

وقدرات بورشيت المهنية تتجاوز رسائله وتحقيقاته الصحفية . إنه يلتزم بقضية ، وهي تحرير الجنس البشري من القهر وإلحاق الهزيمة بالفاشية ، وانتصار حركات التحرر الوطني ، وإقامة نظام سياسي واقتصادي واجتماعي بديل .

وساعدت قدرته على العمل في الجانب الآخر (المعسكر الاشتراكي في عالم الثنائية القطبية والحرب الباردة) على إتاحة الفرصة أمامه لكي ينقل الأحداث العالمية بفهم وعمق وأمانة لم تتح للكثيرين .. رغم محاولات الغرب تشويهه بسبب رحلاته إلى دول اشتراكية . وارتبط اسم بورشيت بمواقفه المناهضة للحروب الأمريكية العديدة في آسيا وقد وضع عنوانًا لأحد كتبه التي أصدرها في وقت متأخر هو «أشباح هيروشيما» .

كانت عائلة بورشيت قد توجهت إلى استراليا قادمة من جنوب شرقي إنجلترا

في الخمسينيات من القرن التاسع عشر .. وعمل أفرادها في مقاولات البناء في ملبورن خلال الثمانينيات من نفس ذلك القرن ، ثم اتجه والد ولفريد بورشيت إلى صناعة التشييد ، ولكنه أفلس نتيجة أزمة الكساد في الثلاثينيات من القرن العشرين . وسار الابن الأصغر (ولفريد) على الدرب ، فعاش حياته وسط مصاعب شديدة ، وعانى من الاستغلال خلال عمله كوكيل ربّان سفينة تجارية ، ونشأ في عائلة مزارعين استرالية .

يقول الكاتب الاسترالي «بيل كيرنان»: أن بورشيت يكون في أحسن أحواله عندما يقع حدث ما .. ويصطحب القارئ معه إلى ما وراء الكواليس والدهاليز .. عندما يتحدى الأكاذيب ويرد على المزاعم الباطلة ومحاولات التزييف التي كانت جزءًا من معركة الحرب الباردة .

وكان يتمتع بعقلية استقلالية :

- فقد وقف مع الاتحاد السوفييتي ضد الزعيم اليوغوسلافي تيتو .
- ووقف مع الصين ضد الاتحاد السوفييتي .
- ووقف مع فيتنام ضد الصين .

وعندما رفضت بلاده (استراليا) السماح له بالعودة ، عقب سرقة جواز سفره في منتصف الخمسينيات وتلقى تهديدات باستخدام العنف ضده ... استقل طائرة خفيفة من بلد مجاور وعاد إلى بلاده رغم أنف الحكومة!

وقد علمت أن جورج بورشيت (ابن ولفريد بورشيت) ـ وهو فنان يقيم الآن في سيدني ـ قد فوجئ بأوراق محفوظة لدى أرملة والده «فيسا» ، التي تعيش في بلغاريا ودعيت للعودة إلى استراليا عام ٢٠٠٣ بواسطة «الزا» زوجة جورج الابن . وظهر أن هذه الأوراق المكتوبة على آلة كاتبة هي السيرة الذاتية للأب ، والتي ظلت

مفقودة لفترة طويلة ، وتتناول حياة بورشيت المبكرة وتجاربه على امتداد العالم .

أسلوب بورشيت الفذ ، الذي لا يضاهي ، في كتابة رسائله الصحفية بطريقة غير مألوفة - وربما تكون صادمة - حول سلسلة الأزمات الدولية .. يحل محله - في السيرة الذاتية - نص مكتوب بعذوبة وطلاقة وأناقة وحيوية وطرافة وبطريقة مباشرة وواضحة بقلم صحفي متميز .. نشر ٣٥ كتابًا ترجمت إلى عدة لغات واخترق المنافذ الإعلامية والإخبارية للعديد من الدول .

والقصة التي يرويها عن حياته ، ونشرتها جامعة نيو ساوث ويلز برس الاسترالية هي قصة رجل تولى تثقيف نفسه .

فقد علم نفسه عدة لغات في وقت واحد ، وبالاستظهار (بينما كان يعمل في فلاحة الأرض) .

كما أن السيرة الذاتية ليست مجرد عرض لرؤية شاهد عيان للتاريخ المعاصر ، وإنما هي - أيضًا - قصة رجل غير عادي .

أحيانًا تقرأ شيئًا .. فيعود إلى الحياة شريط من ذكريات رائعة في فندق في هانوي وسط القنابل !

أقلام في المعارك :

تعددت حملات الاضطهاد والمطاردة ضد هذا الكاتب بسبب مواقفه المناهضة لحروب أمريكا في آسيا ، وخاصة عندما اشتدت هذه الحملات من جانب حكومة بلاده (استراليا) .

إنه صحفي وكاتب حر ، وصاحب مبدأ ، وينحاز إلى الحق والحرية مهما تحمل من مشاق وأهوال منذ احترف مهنة الصحافة في فترة ما بين الحربين العالميتين ،

الأولى والثانية .

أذكر خلال لقائنا في العاصمة الفيتنامية الشمالية هانوي أن كلاً منا طلب مقابلة الجنرال جياب بطل معركة «ديان بيان فو» - التي أدت إلى خروج فرنسا من الهند الصينية - وقائد حرب التحرير المظفرة ضد الولايات المتحدة .

ورغم أن الحرب كانت في ذروتها خلال تلك الزيارة التي قمت بها ، فقد استجاب الجنرال جياب لطلبي ، وأرجأ الرد على طلب بورشيت . وشعرت بالحرج أمام بورشيت ، ولكنه قال لي ببساطة : «إنني أتفهم موقف الجنرال جياب ، فأنا أعرفه ، وقد التقيت به من قبل . إنه يعطي الأولوية لحديثك معه ، لأنك جئت من بلد يواجه العدوان الأجنبي ويناضل لاقتلاع المحتلين عقب حرب يونيو ١٩٦٧ » .

وبالفعل .. كان هذا هو ما قاله لي الجنرال جياب عندما التقينا .. وأدركت في تلك اللحظة مدى التقدير الذي يحمله قادة حركة التحرر الوطني لكل الشعوب التي لم تستسلم للمعتدين وتصر على تحرير أرضها من الاحتلال الأجنبي واسترداد كرامتها ، فالمعركة واحدة ضد عدو واحد .

■ ■ ■

* استمرت خمسين عامًا في عملها كعميدة لمراسلي الصحف في البيت الأبيض.. إلى أن أسقطت في فخ صهيوني.



هيلين توماس : تحية.. إلى زميلة في المهنة

في عام ٢٠٠٠، قال الرئيس الأمريكي بيل كيلينتون: «الرؤساء يجيؤون ويذهبون، ولكن هيلين توماس ظلت هنا على مدى أربعين سنة ، وتولت تغطية أخبار ثمانية رؤساء، وقامت بتوجيه وإرشاد عدد لا يحصى من الصحفيين وتعليمهم أصول المهنة .. وكانت أكثر قدرة في هذا المجال من بعض سكرتيري الرئيس لشئون الصحافة .. وسوف أشعر بأن بلادي ستكون في حال أفضل لو أنها تستمر في قضاء بعض الوقت حولنا هنا في البيت الأبيض.. ورغم كل شيء فإنه بدون العبارة التي تتفوه بها وهي : «شكرًا سيدي الرئيس «فإن البعض منا ـ نحن الرؤساء ـ لم يكن لينهي أبدًا مؤتمراته الصحفية» .

كان ذلك قبل عشر سنوات عندما قررت هيلين توماس الصحفية المخضرمة ، ترك عملها .. غير أنها استمرت لتكمل خمسين عامًا .. في عملها كعميدة لمراسلي الصحف في البيت الأبيض وتغطي أخبار عشر رؤساء أمريكيين بعد أن بدأت ممارسة مهمة الصحافة في عام ١٩٤٣ وأصبحت مراسلة في البيت الأبيض منذ الأيام الأولى لإدارة الرئيس جون كنيدي .

واشتهرت هيلين توماس بأنها لا تخاف من توجيه الأسئلة الصعبة والمحرجة للرؤساء والمسؤولين الأمريكيين وهي أسئلة لا يجرؤ غيرها من الصحفيين على النطق بها .. وكان هناك عدد من الصحفيين يرون أن مثل هذه الأسئلة «غير ملائمة» ويشعرون بالحرج عندما تتحدى هيلين أكاذيب ودعايات الحكومات الأمريكية ، خاصة في عهد الرئيس بوش الإبن وكثيرًا ما أعرب المحافظون الأمريكيون الجدد عن ضيقهم من هذه الأسئلة .

إنها متحررة تمامًا من الاعتبارات التي يشعر أي صحفي آخر في غرفة المؤتمرات الصحفية في البيت الأبيض أنه مضطر للتقيد بها .

وفي مقال نشر في عام ٢٠٠٦ بصحيفة «نيو ريبابليك» الأمريكية ، ندد معلق يدعى «جوناتان شيت» .. بهيلين توماس بسبب طريقتها «العنيفة والصاخبة» في توجيه الانتقادات التي تشتمل - في رأيه - على أسئلة «غريبة» و«شاذة» من نوع تلك التي وجهتها إلى الرئيس بوش الإبن قائلة :

« لماذا تقتل الناس في العراق؟.. الرجال والنساء والأطفال يموتون هناك ، وهذا أمر شائن ولا يمكن احتماله» .

يقول المعلق الأمريكي باتريك مارتن: أن ما فعلته هيلين توماس هو ما يفعله أي صحفي يحترم نفسه ، ولكن الانتهازيين والمأجورين في غرفة المؤتمرات لم يكن أي منهم يجرؤ على أن تفعل ذلك .

***

وذات مرة كانت هيلين تغطي احتفال «شهر التراث اليهودي الأمريكي» في البيت الأبيض عندما اقترب منها شاب بعد خروجها من الاحتفال بينما كانت تسير على رصيف الشارع ، وبادرها بالسؤال : هل لديك أي تعليقات حول إسرائيل ؟ إننا نسأل

كل شخص اليوم عما إذا كان لديه ما يعلق به على إسرائيل».

انفرجت أساريرها عن الابتسامة التي ترتسم على شفتي سيدة في التاسعة والثمانين من عمرها .. عندما يقترب منها فجأة شاب في السابعة عشرة من عمره، ويبدو على ملامحه نوع من الاهتمام الجدي بأنه معني بالتعرف على أفكارها. قالت هيلين بطريقة الجدة التي تخاطب حفيدها:

« قل لهم أن يخرجوا من فلسطين ».

تأوه صاحب السؤال قائلاً: «أوه .. أليس لديك تعليقات أفضل من ذلك؟ ».

قالت هيلين: «عليك أن تتذكر أن هؤلاء الناس ـ الفلسطينيون ـ يخضعون للاحتلال، وأن الأرض أرضهم، وليسوا ألمان ولا بولنديين».

وسأل الشاب: «إذن .. أين عليهم أن يذهبوا؟ » وماذا يفعلون؟.

وترد هيلين: «يستطيعون الذهاب إلى بولندا .. ألمانيا .. وأمريكا وأي مكان آخر .. لماذا يجري طرد الناس «الفلسطينيين» من البلاد التي عاشوا فيها لقرون طويلة؟

***

وبعد مضي أسبوع يظهر شريط فيديو لهذه المقابلة الصحفية المرتجلة على موقع «رابي لايف» وهو الموقع الإلكتروني للحاخام ديفيد نيزينوف، ويبدأ الشريط وينتهي بموسيقى تصويرية حادة .. عالية النغم، وفي الختام: يظهر التعليق التالي: «ستة ملايين يهودي قتلوا في ألمانيا وبولندا، هل تعرف هيلين أن اليهود عاشوا في «إسرائيل» قبل الهولوكوست؟ كيف تكون هيلين غير متحيزة في تقاريرها الصحفية؟ ».

وظهر أن الشاب الذي وجه الأسئلة إلى هيلين على قارعة الطريق هو «آدم نيزنيوف» ابن الحاخام الذي كان يزور البيت الأبيض لحضور الاحتفال والذي اعتبر المقابلة سبقًا صحفيًا يستحق الانتظار لمدة أسبوع حتى تهدأ العاصفة العالمية

ضد الاعتداء الإسرائيلي على قافلة الحرية في البحر المتوسط ، والتي كانت تقل مساعدات لسكان غزة .

وفور إذاعة الشريط سارع البيت الأبيض - الذي لم يغضب لقتل تسعة من ركاب القافلة على أيدي الجيش الإسرائيلي - بإدانة هيلين توماس على الفور .

وبطريقته الدائمة في المواءمة بين مواقفه ومواقف اليمين وإسرائيل .. انضم الرئيس الأمريكي أوباما إلى الحملة ضد هيلين ووصف تعليقاتها حول إسرائيل بأنها «مسيئة» كما علق على تقاعدها الإجباري من مجموعة هيرست الصحفية بأنه «القرار الصائب!» .

وكان الحاخام نيزينوف قد اتصل بمجموعة هيرست - التي تعمل هيلين لديها - وطلب التخلص منها ، وهو ما حدث بالفعل ، وأعلنت مجموعة هيرست أن هيلين سوف تتقاعد .. وجاء هذا الإعلان بعد يوم واحد من إذاعة شريط تعليقاتها على نطاق واسع في وسائل الإعلام .

وفي نفس الوقت ، أعلن «ألان جودوين» مدير مدرسة «والت وايتمان» العليا في ميريلاند إلغاء ظهور هيلين توماس في احتفال المدرسة بالخريجين .

ويقول المعلق الأمريكي ماريك مارتن : أن إبعاد هيلين توماس بعد تصريحها المناهض للصهيونية ، برهان جديد على البيئة الفاسدة في واشنطن الرسمية .

وهكذا وصلت الرسالة .. على كل من ينتقد إسرائيل أن يصمت أو يقطع لسانه ويحطم قلمه ويوضع اسمه في القائمة السوداء .. قائمة «الإرهابيين وأعداء السامية» .

والحاصل أنك إذا لم توافق على أن إسرائيل «نموذج أخلاقي» وأن احتلالها للأراضي العربية في عام ١٩٦٧ كان ضروريًا لتلبية «احتياجاتها الأمنية» وأنها «الديمقراطية الوحيدة في الشرق الأوسط» و«نور العالم» .. فإنك ستتعرض

للمطاردة والازدراء والمضايقات والإنهاك والتهديدات والتخويف وتشويه السمعة والحرمان من المناصب .. والفصل من العمل .

ولكن يبدو أن الموضوع أكبر وأخطر من ذلك ففي رأي عدد من المحللين الأمريكيين ، أنه تم إعداد كمين محكم للإحاطة بـ«هيلين توماس» .

فالواجب المهني - على الأقل - يفرض على كل كاتب الكشف عن الحقائق وتوجيه التحية إلى زميله في المهنة .

كمين صهيوني

عميدة المراسلين في البيت الأبيض الأمريكي تتمتع بامتيازين : الأول: مقعد دائم في الصف الأول في قاعة المؤتمرات الصحفية في البيت الأبيض سواء كان الرئيس الأمريكي شخصيًا هو الذي يعقد المؤتمر الصحفي أو المؤتمر اليومي الذي يعقده الناطق الرسمي باسمه .

الامتياز الثاني: هو طرح السؤال الأول في الحالتين .. وهذا ما كانت تتمتع به «هيلين توماس» بوصفها عميدة المراسلين قبل إرغامها على التقاعد وفصلها من عملها في مجموعة هيرست الصحفية .

كانت هيلين عندما تلتقي بصحفيين عرب وترافقهم في أروقة البيت الأبيض تكرر القول بصوت منخفض : أن النفوذ الإسرائيلي قوي جدًا هنا - في واشنطن - ويحول دون إحراز أي تقدم لصالح تسوية القضية الفلسطينية .

ولم يخطر على بالها أنها ستكون ضحية لهذا النفوذ الإسرائيلي .. ذات يوم . وستسقط في الكمين الذي أعده لها الحاخام اليهودي «ديفيد نيزينوف» لينتزع منها تصريحات تطالب فيها إسرائيل بالخروج من فلسطين والذهاب إلى ألمانيا أو بولندا أو أمريكا وترك الأرض الفلسطينية لأهلها وأصحابها .

ويقول «جاري لوب» أستاذ التاريخ بجامعة نافت الأمريكية: أن هيلين توماس فوجئت بتلميذ في مدرسة عليا يدعي أنه يسأل «كل الناس» عما إذا كانت لديهم تعليقات عن إسرائيل .

وهنا يطرح جاري لوب سؤالاً : لماذا يحدث ذلك أصلاً؟ وهل تلك الأسئلة جزء من بحث مدرسي ؟ وهل هناك مقابلات صحفية أخرى أجراها هذا الشاب وتم تصويرها على شريط فيديو حتى يبرهن على أنه وجه هذه الأسئلة «لكل الناس» وليس فقط لهيلين توماس؟.. ويضيف جاري لوب : «أن هيلين عندما تصرح بعبارة : قل لهم ـ الإسرائيليين ـ أن يخرجوا من فلسطين ، فإنه من الواضح تمامًا أنه تصريح تلقائي ، ويمكن أن يعني ببساطة : «قل لهم أن ينسحبوا من الأراضي المحتلة ، وهو ما يطالب به العالم كله» .

ويعلق جاري لوب على قول هيلين توماس «تذكر أن هؤلاء الناس يخضعون للاحتلال ، وأن الأرض أرضهم» . فيوضح أن ما قالته هيلين صحيح مائة في المائة ، فالصهاينة يحتلون الأرض الفلسطينية .. وهذا الواقع يثير السخط والغضب ومعظم سكان هذا الكوكب يعرفون ذلك .

أما سؤال التلميذ : أين عليهم أن يذهبوا؟

ففي حديث مقتضب ، يمكن أن تكون هيلين قد فسرت كلمة «هم» في ضوء تصريحها للتو عن الأرض المحتلة ، مشيرة إلى المستوطنين في الضفة الغربية أو مرتفعات الجولان السورية .

ويقول جاري لوب: أن الموضوع المطروح للمناقشة هو فلسطين ، ووفقًا لطريقة الصحافة الأمريكية في استعمال الألفاظ فإن الأرجح أن الإشارة هنا إلى دولة فلسطينية في المستقبل ، وليس إلى دولة إسرائيل في حدود ١٩٦٧ ، ولكن شريط

الفيديو تم تحريفه وتشويهه بحيث يبدو كما لو أن هيلين تطالب كل اليهود سواء في الأراضي المحتلة أو في إسرائيل ذاتها بمغادرة المنطقة والعودة إلى الأماكن التي وقعت فيها عمليات القتل الجماعي «ألمانيا وبولندا» والتي كان يوجد بها عدد كبير من اليهود .

ويعتبر جاري لوب أن ما حدث مع هيلين توماس لم يكن عملية نظيفة .

والحقيقة أن عددًا كبيرًا من الإسرائيليين يتركون إسرائيل وينتقلون إلى تلك الدول قبل أن تطالبهم هيلين بأن يفعلوا ذلك!

حوالي ١٤ ألف يهودي إسرائيلي يغادرون إسرائيل كل سنة خلال الفترة بين عامي ١٩٩٠ و٢٠٠٥ ، ووفقًا لاستطلاع أجري في عام ٢٠٠٧، ظهر أن نصف الشبان الإسرائيليين بين سني ١٤ وسن ١٨ يعربون عن رغبتهم في الانتقال للإقامة خارج إسرائيل ، نظرًا لأنهم يعتبرون أن مستقبل إسرائيل.. مظلم .. وحصلت نسبة عالية من الإسرائيليين على جنسية أجنبية أو تعتزم السعي للحصول عليها ، ويعرض الأوروبيون جنسيتهم بسخاء على أحفاد مواطنين استطاعوا إثبات سلسلة أنسابهم الذين عاشوا في أوروبا .

وقبل أن تتحدث هيلين توماس عن ذهاب الإسرائيليين إلى ألمانيا وبولندا ، كان المعبد اليهودي في برلين قد أصبح يضم ١٢ ألف عضو كما أصبح يوجد في بولندا ٥٥ ألف يهودي معظمهم نزحوا من إسرائيل عقب حصول بولندا على عضوية الاتحاد الأوروبي .

ولكن دعونا نفترض أن هيلين توماس أرادت أن تقول: ان تأسيس الدولة اليهودية في عام ١٩٤٨ كان في حد ذاته أمرًا سيئًا ، وأنه كان بمثابة كارثة بالنسبة لأهل البلاد الشعب الفلسطيني .

أليس هذا صحيحًا ؟

يرى عدد من المفكرين الأمريكيين أن الشعب الفلسطيني يشمل الذين ينحدرون من سلالة العبرانيين القدامى الذين اعتنق الكثيرون منهم الديانة المسيحية ثم الديانة الإسلامية ومكثوا في البلاد ولم يغادروها ، خاصة أنه لم يحدث تشتيت كامل أو نفي شامل لليهود من فلسطين الرومانية. وعقب الثورات ضد الحكم الروماني بين عامي ٦٦ و١٣٥ تم طرد عدد من اليهود من فلسطين كعقوبة بيد أن الرومان لم يشتتوا أصحاب الديانة اليهودية بالكامل .

والمرجح أن الحمض النووي للعديد من الفلسطينيين أقرب إلى يهود القرن الأول من أولئك اليهود الذين ينحدرون من سلالة أوروبية .

وربما أرادت هيلين توماس أن تقول: أنه كان من الإجرام أن يعمد الصهاينة إلى ترويع الفلسطينيين وإرهابهم لكي يهربوا من قراهم إلى الشتات في عام ١٩٤٨ .

وربما أرادت أن تقول: أنه لا يصح أن تقبل إسرائيل أي يهودي من الخارج «وفقًا لتعريف المؤسسة الحاخامية لكلمة يهودي» كمواطن في الدولة اليهودية بينما تنكر على الفلسطينيين الحق في العودة إلى وطنهم وبيوتهم .

إذا كانت هيلين توماس قد أرادت أن تقول ذلك ، فإن الكثيرين يتفقون معها في الرأي .

الضجيج الإعلامي في الولايات المتحدة الذي أعقب إذاعة تعليقات هيلين كان متوقعًا ، وهو يثير الاشمئزاز .

ولم يحدث في السابق أن تعرض شخص في أمريكا للطرد من عمله لاعتقاده أن على الفلسطينيين التوجه إلى الأردن أو مصر وغيرها ، رغم أنهم لم يأتوا من مصر أو الأردن وإنما ولدوا وعاشوا دائمًا في فلسطين! وقد ردد صهاينة كثيرون هذا الرأي ،

بل أكثر من ذلك .

ففي يوم ١٥ يونيو عام ١٩٦٩ ، قالت جولدا مائير ، رئيسة وزراء إسرائيل السابقة ، لصحيفة «صنداي تايمز» البريطانية : «لا يوجد شيء اسمه الشعب الفلسطيني فلم يحدث أننا جئنا وطردناه وأخذنا بلاده .. ذلك أنه لم يكن له وجود أصلاً» !

ولم نسمع أي احتجاج أو رد فعل في أمريكا أو أوروبا على هذا التصريح .. وما زال هناك في تلك الدول من يعتقد أن الشعب الفلسطيني مجرد شيء لا وجود له إلا في الخيال !

والخطأ الوحيد الذي وقعت فيه هيلين توماس هو أنها حاولت الاعتذار عن تعليقاتها على إسرائيل في مواجهة حملة ضارية ومسمومة ضدها تستهدف اغتيال شخصيتها .

ومع ذلك أصدر اتحاد مراسلي البيت الأبيض بيانًا يشيد فيه بالصحفية المخضرمة وبعملها المهني الطويل والمتميز في الصحافة ودورها في «تحطيم أسقف زجاجية عديدة» .. كان إسكاتها هدفًا يريد الكثيرون في الولايات المتحدة تحقيقه منذ وقت طويل ، خاصة بعض الشخصيات الكريهة التي يبغضها الرأي العام الأمريكي .

ولكن هيلين .. أرجوك لا تتوقفي عن الكلام وعن الكتابة .

■ ■ ■





الفصل الثاني

الصحافة وأحوالها



* وثبت بما لا يدع مجالاً للشك أن حرية الصحافة والصحفيين ترتبط ارتباطًا وثيقًا بالحريات السياسية والديمقراطية.

طرق تصحيح العلاقة بين السلطة والصحافة

أتفق مع ما كتبه الزميل الراحل صلاح الدين حافظ الكاتب في «الأهرام». في كتابه «أحزان حرية الصحافة» عندما أوضح أنه مهما تحدثنا، ولو نظريًا، عن استقلالية الصحافة أو بعض الصحف في بعض بلادنا العربية، «فإن الواقع العام يقول: ان التبعية تحكم العلاقة بين الصحافة والسلطة السياسية عامة، والحاكم بشخصه خاصة .. فما من نظام أو حاكم في دولة جمهورية أو وراثية إلا ويتطلع إلى هذا السلاح السحري التأثير، النافذ المفعول .. يتطلع إليه ليحكمه ويتحكم فيه.. » .

ويؤدي التأثير المباشر وغير المباشر للسلطة إلى تحويل الصحف إلى أدوات دعاية بدلاً من أن تكون منابر حرة للرأي والرأي الآخر، كما يؤدي إلى تراجع الدور التثقيفي والتنويري للصحف لحساب هذه الدعاية المباشرة والفجة .

■ ■ ■

وتتحكم السلطة في الصحف عن طريق القوانين سواء قوانين الصحافة ذاتها أو قانون العقوبات وقانون الإجراءات الجنائية ومن خلال احتكار المنح أو المنع

لتراخيص إصدار الصحف أو من خلال السيطرة على تدفق المعلومات ونشر الإعلانات .. وقبل ذلك كله ، تتحقق تبعية الصحافة للسلطة أو تحكم السلطة في الصحافة عن طريق الملكية الحكومية للصحف عندما يسيطر الحزب الحاكم على الصحف ويعين قياداتها .

السلطة والنفوذ .. لمن؟

غير أن الصحافة أيضًا ليست معصومة من الخطأ . وإذا كانت هناك ظروف لا تمكن الصحفي أحيانًا من قول الحقيقة كاملة ، فإن عليه في كل الظروف أن يكون صادقًا مع نفسه حتى لو لم يكن يملك كل المعطيات . وإذا كانت السلطة تنزلق إلى التشدد في التعامل مع الصحافة ، فإن الصحفي ينبغي أن يكون موضوعيًا وملمًا بكل التفاصيل ومتوازنًا ، لأن التوازن هو مقياس الاحتراف .

وإذا كانت السلطة متغطرسة ، فإن على الصحافة تحاشي العجرفة والتكبر . وهذا يعني الاعتراف بالأخطاء ونشر الردود والتصويبات ، والإصغاء إلى القراء والكتابة إليهم بلباقة ، والاعتذار إليهم إذا كان ذلك ضروريًا .

ويخطئ الصحفيون الذين اعتادوا انتقاد الآخرين ومهاجمتهم بقسوة ، عندما يرفضون أن توجه إليهم الانتقادات أيًا يكن نوعها ويثورون في وجه منتقديهم .

وقد وجه رئيس المعهد العالي للإعلام في كندا «واين كانيز» إلى عدد من الصحفيين السؤال التالي :

«قولوا لي: ماذا تريدون من الحرية الإعلامية؟ هل تريدون ممارسة سلطة ونفوذ على القراء أم تريدون مساعدة القراء على امتلاك سلطة ونفوذ؟» .

موقف ضد النقابة :

يقول موسى صبري في مذكراته «٥٠ عامًا في قطار الصحافة» :

«كان صوت نقابة الصحفيين ضعيفًا طوال سنوات حكم عبد الناصر ولم تستطع النقابة أن تعيد صحفيًا واحدًا فُصِلَ فصلاً تعسفيًا من جريدته . وقد تميزت صحيفة الجمهورية ، وهي صحيفة الثورة ، بأنها كانت تفصل كل عام دفعات من المحررين بأعداد كبيرة . وكانت الجمعية العمومية تنعقد ، وتحتج على الفصل وتصدر قرارات لا تحرك ساكنًا .. وكأنها لم تصدر » .

وفي موضع آخر ، يقول موسى صبري (الذي اشتهر بتأييده الكامل للسادات وصداقته القديمة معه) :

«كان أنور السادات ضائقًا كل الضيق بمواقف النقابة . وكان يفكر في أسلوب جديد لتنظيم مهنة الصحافة ، ومساءلة الصحف .. ولذلك قرر حل نقابة الصحفيين .. وتحويلها إلى ناد .. وأصدر قانونًا جديدًا للصحافة يحدد حقوق الصحفيين وواجباتهم على أن تؤول ملكية الصحف إلى مجلس الشورى الذي استحدث في تعديل الدستور .. » .

وإزاء الرفض الإجماعي من جانب الصحفيين لفكرة تحويل النقابة إلى ناد ، اضطر أنور السادات إلى التراجع .

ولوحظ أن مشروع قانون الصحافة الجديد ينص على إحالة الصحفي إلى المعاش في سن الستين مع جواز مد خدمته سنويًا حتى الخامسة والستين بموافقة المجلس الأعلى للصحافة .

ويقول موسى صبري :

«كان المقصود من هذا النص إخراج مصطفى أمين وجلال الدين الحمامصي» .

ملكية شكلية :

ومما يلفت النظر أن موسى صبري يسجل في مذكراته اقتناعه بضرورة إعادة

النظر في الأوضاع الصحفية في مصر ، ويطالب أولاً بمراجعة لقانون الصحافة لكي تتحدد ملكية الصحافة القومية للعاملين بها وللمواطنين بأسهم قليلة القيمة ، لأن ملكية مجلس الشورى للصحافة ، هي في واقع الحال .. ملكية شكلية ، كما يطالب بتيسير إصدار الصحف وإلغاء قيود سن المعاش والفصل الكامل بين عمل الصحفي في جريدة قومية وعمله في جريدة حزبية وبتشجيع الصحافة الإقليمية .

كانت العلاقة بين السلطة والصحافة هي علاقة صاحب العمل بالموظف الذي يعمل عنده ، والذي يمكن أن يتعرض للفصل والتنكيل وللتشهير وتلويث السمعة إذا ظهر تقصيره في تجميل الأخطاء أو إذا سمح لقلمه بأن يعبر عن مشاعر الضيق والسخط تجاه جرائم كبرى قادت الوطن إلى أفدح الهزائم العسكرية وأسوأ الصدمات في التاريخ الحديث .

قرار فصل :

في أوائل عام ١٩٦٨ ، قامت مظاهرات الشباب الجامعي للمطالبة بالحرية بعد هزيمة ١٩٦٧ ثم قامت مظاهرات العمال في حلوان للاحتجاج على ضعف العقوبات ضد المسؤولين عن سلاح الطيران . ووقع الخلاف الحاسم بين عبد الناصر وعبد الحكيم عامر ، الذي انتهى بتحديد إقامة عامر .. ثم انتحاره والقبض على شمس بدران وصلاح نصر وعباس رضوان وتقديمهم إلى محاكمة عسكرية برئاسة حسين الشافعي بتهمة التآمر على قلب نظام الحكم ، ثم قدم صلاح نصر في قضية خاصة بإفساد المخابرات لحساب شهواته الخاصة .

وكان الصحفي موسى صبري يتابع الجلسات المثيرة للمحكمة حيث انكشفت ذات يوم واقعة أن عبد الحكيم عامر عمل على إخفاء كمية من الذهب كانت لديه من الملك سعود لتوزيعها على القبائل اليمنية في مكان مجهول . وقد حدث ذلك في

يوم الهزيمة! كما ظهر أن القيادات التي تحاكم كانت تملك كميات من العملات الصعبة وأموال الدولة .

هزت هذه الشهادات مشاعر الصحفيين . وكتب موسى صبري مقالاً بعنوان «اليوم الحزين» قال فيه : إن هذه الشهادات كشفت كيف كانت تحكم مصر ، وسرد كل الوقائع الخطيرة . وختم فقرات المقال بعبارة :

«هكذا كانت تُحكم مصر ، وما خفي كان أعظم » .

وألقى جمال عبد الناصر خطابًا أعلن فيه: « أنه لا يقبل أن تحول الصحافة قضية المؤامرة إلى قضية فساد حكم ، كما فعل رئيس تحرير الأخبار» .

وتقرر فصل موسى صبري من رئاسة تحرير الأخبار ونقله إلى الجمهورية كمحرر .. ممنوع من الكتابة باسمه!

وشايات صغيرة :

يقول أحمد بهاء الدين في كتابه «محاوراتي مع السادات» :

«كنت أعتقد أن علاقتي الشخصية السابقة بالرئيس السادات تحميني عنده من الوشايات الصغيرة والدسائس التي تملأ الحياة في الصحافة .. ولكنني شعرت على الفور أنه قد أصبح بيني وبين السادات بحر واسع » .

وهنا يتساءل أحمد بهاء الدين :

«هل هذا ما تفعله السلطة وجماعات المنافقين بالعلاقات الوطيدة بهذه السرعة؟» .

وبعد تصاعد تحركات الطلبة والعمال في عامي ١٩٧١و ١٩٧٢ وصدور بيان باسم الكتاب والصحفيين كتبه «توفيق الحكيم» ووقع عليه ما يقرب من مائة صحفي .. أصبح السادات في قمة الغضب ، واستقر في ذهنه أن الكاتب الصحفي

الكبير أحمد بهاء الدين هو المحرض الأول على هذا البيان .

وكان السادات قد سبق أن قرر إبعاد بهاء عن دار الهلال ، نتيجة للوشايات ، ونقله إلى رئاسة مؤسسة روز اليوسف ، ولكن بهاء رفض تنفيذ القرار وفضل قبول عرض من محمد حسنين هيكل بأن يكون كاتبًا في الأهرام .

وبدافع من الشعور بالمسؤولية ، ومع تفاقم الموقف السياسي في البلاد ، قرر أحمد بهاء الدين أن يكتب مقالاً في «الأهرام» بعنوان محايد هو «بدلاً من العنف المتبادل» . كان مقالاً عقلانيًا هادئًا يتضمن معنى الاحتجاج ولكنه يفتح الباب لتضميد الجراح .

وشطب الرقيب مقال أحمد بهاء الدين ومنع نشره . وصدر قرار من الرئيس السادات بإبعاد الكاتب الكبير من الصحافة كلها ونقله إلى مصلحة الاستعلامات!

في ذلك الوقت ، كان حوالي مائة صحفي وكاتب مطرودين من مهنة الصحافة ، ويتعرضون لحملة هجومية لتشويه سمعتهم ووطنيتهم وشرفهم . كانت رئاسة الجمهورية ترسل الكشوف بأسماء الصحفيين إلى «لجنة النظام» في الاتحاد الاشتراكي (الحزب الحاكم والوحيد) لإصدار قرارات الطرد . لقد شهدت تلك الفترة علاقة عداء مستحكم بين السلطة والصحافة . ويبدو أن هذا العداء يخف ، في بعض الأحيان ، ويتصاعد في أحيان أخرى .

وشاءت الظروف أن يلتقي كاتب هذه السطور بأحد أعضاء لجنة النظام ، في وقت لاحق ، وسأله عن المدة التي استغرقتها مناقشة فصل مائة صحفي من عملهم ، فأجاب : «قد لا تصدقني إذا قلت لك أن هذه المدة لا تتجاوز خمس دقائق ، فقد وصلت كشوف المفصولين جاهزة من مباحث أمن الدولة! » .

إفساد المهنة

ولا تقتصر علاقة السلطة بالصحافة على ذلك ، بل تتعداها إلى إفساد المهنة

والعاملين بها .

في لقاء بين أحمد بهاء الدين وممدوح سالم رئيس الوزراء (في عام ١٩٧٣) قال الأخير : أن كل التقارير التي تتلقاها أجهزة الأمن ضد الصحفيين «يكتبها صحفيون منكم!» .

وقال له بهاء : «نحن نعرف الصحفيين الذين يحترفون كتابة التقارير السرية لأجهزة الأمن ضد زملائهم ، ولكنكم لو تحريتم عنهم قبل أن تأخذوا بكلامهم لعرفتم أنهم من أردأ نوعيات الصحفيين الفاشلين المملوءة قلوبهم بالضغينة ضد كل صحفي ناجح» . ورد ممدوح سالم قائلاً : «طبعًا . ونحن نعرف ذلك ، ولكن هل تتوقع من صحفي مستقيم حسن الأخلاق ، ابن ناس ، وناجح في عمله ، أن يكتب تقارير للمباحث نظير أجر؟ هات لي عشرة من هؤلاء ، ولو كانوا من خريجي أكسفورد ، يرضون أن يكتبوا تقارير للمباحث ، وسوف تستغني المباحث فورًا عن النوعية التي تكتب التقارير عادة.. !! » .



وجاء القرار الثاني بمنع أحمد بهاء الدين من الكتابة بعد أن كتب مقالاً في «الأهرام» يتهم فيه العهد بأنه ضد الثقافة الحقيقية والمثقفين الحقيقيين ، وانتقد مظاهر التفسخ والانحلال في المجتمع ، والتسيب الذي يغمر مرافق الدولة ، ومقدمات العواقب الاقتصادية التي سميت «انفتاحًا» .

مفاجآت صحفية!

هل هناك تناقض بين السلطة والصحافة ؟

أم أنها علاقة قائمة في الأصل على سوء الفهم وانعدام الثقة - كما كان يقول زميلنا

الراحل صلاح حافظ الذي تولى الإشراف على تحرير مجلة «روزاليوسف» .. فلا الكاتب والصحفي يستطيع أن يتخلى عن غريزة الكلام، ولا الحاكم يقبل، مطلقًا أن يسمع صوتًا غير صوته .. وإذا قبل أن يسمع الكاتب فلا تطربه إلا قصائد المديح ومقالات التمجيد .

ويروي صلاح حافظ لزميلنا رشاد كامل (رئيس تحرير صباح الخير السابق) تجربته مع السلطة، فيقول :

بعد فترة قصيرة من مجيء محمد حسنين هيكل إلى أخبار اليوم (ليتولى رئاستها إلى جانب رئاسة الأهرام)، ذهبنا إلى مكتبه للتعارف . وكنت وقتها مشرفًا على تحرير مجلة آخر ساعة . وأذكر أنه قال لي يومها بجملة سريعة : اسمع يا صلاح.. أنا عملت لك مفاجأة هايلة!! وسألته : مفاجأة إيه؟ قال : أنا اشتريت لك مطبعة أحدث طراز في أوروبا الآن .. وشد حيلك بقى! .. وبعدها بقليل سافر هيكل في رحلة للشرق الأقصى . وفي صباح اليوم التالي، ذهبت إلى المجلة وفوجئت بخطابات تفيد بأننا ـ أنا وأربعين صحفيًا ـ قد نقلنا إلى المؤسسات العامة . وكان خطاب النقل مكتوبًا بلهجة وقحة جدًا . وذهبت إلى مكتب زميلي سعد كامل نلملم أوراقنا استعدادًا للرحيل . وفجأة رن جرس التليفون، وفوجئ سعد كامل بأن المتحدث هو مكتب جمال عبد الناصر، وأبلغنا أن الرئيس عبد الناصر ألغى قرارات النقل، وطلب أن نبقى في مواقعنا وألا ننفذ النقل إلى المؤسسات الأخرى . كنت في تلك اللحظة أتساءل عن موقف هيكل وكيف يخبرني بأنه أحضر لي مطبعة جديدة في نفس الوقت الذي يعلم فيه بخطابات فصلي وزملائي من آخر ساعة .. بعد ذلك ذهبنا إلى شعراوي جمعة (وزير الداخلية) وكان معي سعد كامل . وقال لنا شعراوي : أن الرئيس عبد الناصر يعلم تمامًا من هم الوطنيين، وأريد أن أقول لكم: فتحوا عنيكم كويس لأن هذا الرجل ـ يقصد هيكل ـ لن يتورع عن أن يضع لكم قطعة مخدرات في أدراج مكاتبكم!!» .

صراع فوقي

.. هنا لابد من الإشارة إلى واقعة سابقة على هذا الحدث . فعندما أرسل خالد محيى الدين بمشروع قرار تعيين صلاح حافظ رئيسًا لتحرير آخر ساعة إلى عبد الناصر .. لم يوقع عبد الناصر القرار إطلاقًا وظل على مكتبه إلى أن ترك خالد محيى الدين أخبار اليوم ، وجاء هيكل بدلاً منه ، وتم تعيين يوسف السباعي رئيسًا للتحرير ، وصلاح حافظ مشرفًا على التحرير .

ولإلقاء مزيد من الضوء على علاقة السلطة بالصحافة ، يقول صلاح حافظ: أنه أدرك مما حدث معه «أننا كنا طرفًا في صراع علوي - صدام تراموميات - وأننا مجرد لعبة . وفي نفس الوقت نحن لا نعلم ماذا يحدث فوق» . وكانت الكواليس مسألة غامضة جدًا بالنسبة له ، وخطوط الملعب مجهولة . وقرر صلاح حافظ أن يترك آخر ساعة لأنه لا يستطيع العمل في ظل رجل - يقصد هيكل - لا يحبه (لا يحب صلاح) .

مطلوب إقالة:

عالجت روز اليوسف انتفاضة الخبز في يناير ١٩٧٧ تحت عنوان «أسبوع الحرائق : الحكومة أشعلت الحريق والسادات أطفأه » ، وقالت: أنه لو كان رجال الداخلية هم المنفردون بالسلطة لكانت القاهرة وتسع عواصم إقليمية أخرى أكوامًا من الرماد ، ولكن الذي أنقذ الموقف هو تدخل «العقل السياسي» في الوقت الحاسم وقرار الرئيس السادات بإعادة الأسعار إلى ما كانت عليه .

فقد رأت المجلة تجنب أي صدام مباشر مع السادات .

رغم ذلك طلب أنور السادات من عبد الرحمن الشرقاوي ، رئيس مجلس إدارة مؤسسة روز اليوسف ، إقالة صلاح حافظ من رئاسة التحرير .

لم يكن السادات يريد من روز اليوسف أن تذكر الحقيقة حول ما جرى في يومي

١٨ و ١٩ يناير .

حالة تقمص

وثمة مسألة حساسة في علاقة السلطة بالصحافة ، يتناولها صلاح حافظ ، هي تحويل الكاتب الصحفي إلى «حرفي ونسّاج» ينسج خيوطًا وأفكارًا ليست أفكاره ، ويجعل الزعيم يقول كلامًا ليس كلامه . والمفترض أن يتولى أعضاء مكتب الزعيم كتابة خطبته ، لأنه عندما يأتي بكاتب كبير ويقول له : «اكتب» فإنه يجعله يتقمص شخصية الزعيم . وفي حالة إذا لم يكن الكاتب موافقًا على جزء من أفكار الزعيم .. ماذا يفعل؟ هل يكتب كلامًا لا يؤمن به؟ ولذلك ، فإن أضعف الأجزاء في خطب عبد الناصر والسادات هي تلك التي كان يقرأها من الورق أما عندما كان هذا أو ذاك ينحى الورق جانبًا .. كان يلهب مشاعر الجماهير .

أهل الثقة .. والخبرة

وأخطر النتائج التي تترتب على علاقة التبعية للسلطة في المجال الصحفي هو أن تصبح الصحافة جزءًا من جهاز الدولة ، وينعكس ـ بالتالي ـ في داخلها كل ما يجري في جهاز الدولة ، ويصبح ما كان مطبقًا في جهاز الدولة ، من تمييز بين أهل الثقة وأهل الخبرة والكفاءة ، .. هو ذاته ما يجري تطبيقه في عالم الصحافة ، أو نجد أن اسم هذا الصحفي أو ذاك يلمع لمجرد انتمائه إلى مركز قوي معين أو شلة شخصية ذات نفوذ وحيثية كبيرة في السلطة .

ويترتب على وجود علاقة غير سليمة بين السلطة والصحافة أن تدور المنافسة بين الصحفيين لإرضاء الحاكم أو أن يكتب الصحفي كما لو كان رئيس الدولة هو القارئ الوحيد ويصبح النجاح في الصحافة إنما يتحقق بوسائل غير صحفية .

***

استدعاءات للتحقيق

عندما نشرت صحيفة «الأحرار» المعارضة (الناطقة باسم حزب الأحرار) نص حديث مع إسماعيل فهمي نائب رئيس الوزراء ووزير الخارجية، الذي عارض زيارة السادات لإسرائيل، كما نشرت نص الاستقالة (وهو عمل صحفي ناجح بامتياز) بدأت المواجهة مع الحكومة.

فقد قرر عبد المنعم الصاوي، وزير الإعلام، منع نشر إعلان في التليفزيون عن الأحرار يتضمن محتويات الصحيفة والعناوين الرئيسية للصفحة الأولى، رغم أن الإعلان مدفوع الثمن، لأن الإعلان يتضمن «بعض الموضوعات المثيرة». وتم استدعاء رئيس التحرير، في ذلك الوقت، الدكتور صلاح قبضايا للتحقيق أمام نيابة أمن الدولة العليا بتهمة القذف في أحد الوزراء.

تجارب مريرة

هذه الأمثلة .. قليل من كثير لا يحصى على ما تعرضت له الصحافة على أيدي السلطة.

وتكشف تجربة الصحافة أن السلطة ظلت تبغي تحويل الصحف إلى نشرات حكومية رسمية، الأمر الذي يؤدي إلى فقدانها لمصداقيتها ولثقة القراء.

ومنذ صدور قانون تنظيم (تأميم) الصحافة عام ١٩٦٠ تعرضت الصحافة في مصر لعمليات وإجراءات تعسفية لا يمكن حصرها.

وثبت بما لا يدع مجالاً للشك أن حرية الصحافة والصحفيين ترتبط ارتباطًا وثيقًا بالحريات السياسية والديمقراطية في بلد ما.

كما تأكد أن وجود تعددية حقيقية، سواء سياسية أو فكرية أو ثقافية، ضمان

رئيسي لوجود علاقة صحيحة بين السلطة والصحافة . وكلما اتسعت وتعززت حرية التعبير والنقد والمعارضة في مناخ متفتح ومستنير .. كلما أصبحت الصحافة مستقلة عن السلطة . وكلما توافرت حرية الوصول إلى المعلومات والحقائق ، وكلما وجد سياج قانوني يحمي حرية الصحافة .. زال التوتر بين الصحافة والسلطة . وكلما ارتقى المستوى المهني وترسخت الضوابط الأخلاقية والسلوكية وحرصت الصحافة على تحري الصدق والحقيقة ، ونشر الأخبار دون تلوينها بالأهواء الخاصة .. وكلما ارتقت لغة الخطاب الصحفي .. والتزم المحررون بالموضوعية والرصانة يلتف القراء حولها ويصعب على السلطة أن تشتبك معها في معارك خاسرة .

واجبات صحفية

ولكي تقوى الصحافة مواقعها في مواجهة السلطة ، فإن عليها أن تنشر المعرفة بين الناس غير مشوبة بأغراض شخصية .. وبعيدًا عن الإسفاف أو التهجم على من يختلفون معها في الرأي وأن تتجنب عبارات السبّ والتجريح والتحقير وأن تلتزم بالمسؤولية دون شطط أو ابتذال أو ترخص ، وأن تراعي آداب وأخلاقيات المهنة .

ودور الصحافة هو مساعدة الرأي العام ليصبح سلطة .. سلطة المحاسبة والرقابة .

فالرأي العام هو صاحب السلطة وليس الصحفي . وعلى الصحفي أن يخدم المجتمع ، وهو دور أخلاقي في المحل الأول . وعلى الصحفي ألا يسمح لنفسه بأن يتلاعب بالرأي العام ويقوده إلى حيث يريد هو .

وإذا شاءت السلطة ، في أي بلد ، تعطيل وسائل المحاسبة عبر فرض «الحقيقة الرسمية» وحصر الحرية في «حرية القبول» .. لا حرية الانتقاد والمقارنة والاختيار ، فإنها تصطدم بالصحافة التي تقوم بدورها في الحيلولة دون القفز فوق الشفافية

والمساءلة .

والصحافة هي التي تعرّف قراءها بالطريقة التي يدار بها الشأن العام وأن تحترم عقول قرائها .

الحرية وآداب المهنة

وخلاصة القول : انه إذا أرادت الصحافة أن تفرض العلاقة الصحيحة مع السلطة وتفرض عليها احترامها، فإنها ينبغي أن تكسب ثقة الشعب وأن تراعي أخلاقيات المهنة في الوقت الذي تحاول فيه على الدوام انتزاع المزيد من الحرية للصحفيين ولرسالتها'وتوسيع مساحة هذه الحرية .

وعندما سئل أستاذ الآداب المهنية في المعهد الفرنسي للصحافة «جان كلود برنار» عما يحدث إذا وضعت الصحافة تحت إشراف الدولة ، قال : ان ذلك يؤدي إلى التلاعب والتضليل . وعندما سئل عما يحدث إذا منحت أجهزة الإعلام حرية مطلقة وتم تسليمها إلى إعلاميين غير مسؤولين ، قال : إن ذلك يؤدي إلى أن يمارس صحفيون العهر الإعلامي سعيًا وراء المال والنفوذ

وفيما يتعلق بصحافة مصر اليوم فإن إلغاء عقوبة الحبس وإلغاء كل المواد السالبة للحرية في قضايا النشر . أمر ضروري لتسوية الأزمة مع الحكومة . ولكن واجب نقابة الصحفيين في محاسبة أعضائها ، الذين ينتهكون آداب وأخلاقيات المهنة ويخرجون على ميثاق الشرف الصحفي ، لا يحتمل الجدل .. ولا يحتمل التأجيل .

■ ■ ■

* هل حان الوقت لوقف العمل بهذه «المقصلة» التي تمارس نشاطها في دور الصحف؟

القانون .. «المقدس»!

علينا أن نتوقف طويلاً أمام ظاهرة معيبة هي «تفصيل القوانين» .. فقد حان الوقت لكي نتخلص نهائيًا من العقلية التي تفرض علينا صياغة وافتعال قوانين لمجرد الوصول إلى نتائج معينة أو تحقيق حسابات حزبية ضيقة ولو على حساب الدستور، وعلى ترزية القوانين، أن يكفوا عن نشاطهم «القانوني» ويبحثوا عن عمل آخر .

ويجب أن تكون القوانين بعيدة عن الهوى والأهواء والنزوات والأغراض العابرة والمصالح الوقتية الزائلة .

إن طريقة تفصيل القوانين على أيدي «ترزية القوانين»، تضع نظام الحكم في حرج وتسيء إلى سمعة القانون في بلادنا، والقانون لا يجب أن يوضع تلبية لظروف شاذة أو استثنائية أو لمجرد تحقيق غاية جزئية محدودة للغاية .

فمثل هذا الأسلوب يحرض على عدم احترام هذه القوانين منذ لحظة ولادتها وصدورها .

■ ■ ■

ومن الأمثال الصارخة على ذلك .. قانون الصحافة الحالي الذي صدر في ظروف

غير طبيعية وتحت وطأة ضغوط شديدة وتوترات حادة بين السلطة والصحافة .

ورغم ما يحتوي عليه هذا القانون من بنود شاذة وغير مألوفة ولا تتفق مع متطلبات الظروف الطبيعية والأوضاع الديمقراطية التي نعيشها الآن .. إلا أن هذا القانون ما زال ساري المفعول .. يتحدى أبناء المهنة التي يفترض أنه صدر ليوفر لهم كل الحقوق والضمانات المرجوة .

ويبدو الأمر كما لو كان هذا القانون محاطاً بهالة من « القدسية » تحول دون الاقتراب منه .

وخلال رئاسة الدكتور على لطفي للمجلس الأعلى للصحافة .. صدر قرار في المجلس بمناقشة قانون الصحافة بعد أن اتفق الأعضاء على أن هذا القانون في حاجة إلى تعديل .. ثم توقف الأمر عند هذا الحد .

وكل صحفي يرشح نفسه لمنصب نقيب الصحفيين .. يعلن أنه سيكرس جهده لتعديل هذا القانون ومجلة « الصحفيون » التي كانت تصدرها نقابة الصحفيين طرحت قضايا هامة مثل حقوق الزمالة ومشكلة الإعلانات .. وغيرها .. وكان عليها أن تبدأ بفتح المناقشة حول قانون الصحافة برمته . وسبق أن أعلن « مكرم محمد أحمد » نقيب الصحفيين في برنامجه الانتخابي عن مؤتمر لحل مشكلات المهنة .. وقد حان الوقت لعقد هذا المؤتمر الذي يفترض أن يبحث كل مشكلات الصحافة بما في ذلك « قانون الصحافة » .

زملاء كثيرون كتبوا حول هذه القضايا والمشكلات .

ومع ذلك فإننا ، نحن الصحفيين لم نطرح قضايانا بجدية حتى الآن ولم نعمل على إلغاء أو تعديل قانون الصحافة .. كأننا ننتظر من جهات أخرى أن تتحرك بدلاً منا وتقول لنا ما يجب علينا أن نفعله .

وإن كان زملاء كثيرون قد كتبوا من قبل حول جوانب عديدة سلبية في قانون الصحافة الحالي ، وأشار البعض منهم إلى جوانب إيجابية ، فإن الاحتفاظ بكل ما هو إيجابي لا يمنع من التخلص من السلبي .

وإن كان زملاء كثيرون كتبوا حول قضايا حق إصدار الصحف وتشكيل مجالس الإدارات وغيرها .. فإن هناك جانبًا هامًا وخطيرًا يستحق أن نطرحه الآن وبصورة عاجلة ، وهو الشق الخاص بالإحالة إلى المعاش .

لا يوجد فاصل زمني قاطع . يتوقف الإنسان عنده عن البذل والعطاء .. ولا يوجد تاريخ محدد وموعد نهائي حاسم لا يصح أن يكون المواطن بعدهما رئيسًا لمجلس إدارة مؤسسة « صحفية أو رئيسًا للتحرير » .

فالقدرة على ممارسة المسؤولية وعلى قيادة العمل الصحفي لا تنتهي عند « سن الستين » بل ربما تزداد هذه القدرة ويكون صاحبها أكثر تمرسًا ونضجًا وعقلانية وبراعة بعد تلك السن .

وإذا كان الصحفي لا يزال قادرًا على أن يضع خبراته وتجاربه في خدمة العمل ، فإن الأمر يتحول إلى عقوبة تعسفية أو مأساة أن يطلب منه الاعتزال وهو في ذروة نشاطه .. وبالتحديد في الوقت الذي يستخلص فيه هذا الصحفي عصارة كل هذه التجارب والخبرات وينتقي منها أحسن الثمار .

لا أفهم كيف يحرم بلد نفسه من خيرة أصحاب الكفاءات النادرة في مهنة لا يتقنها ويبدع فيها .. إلا القلائل .. لا أفهم لماذا تحرم مهنة نفسها من أحد أبنائها المرموقين الموهوبين لمجرد أن شهادة الميلاد في ملف الخدمة هي التي قررت ذلك .

خلال رحلات سابقة إلى باريس وموسكو وبلغراد وطوكيو وبكين .. وغيرها . لم أجد من يقول لي أن لمسؤول العمل الصحفي عمرًا زمنيًا لابد أن يجمع بعدها

أوراقه ويكتفي ـ إذا شاء بكتابة الأعمدة والمقالات أو أنواع النشاط الأخرى التي يمكنه أن يؤديها حتى في منزله .

وأحيانًا يكون عنصر الاستمرارية ضروريًا لنجاح المؤسسة الصحفية القومية في بلادنا كما أن هناك رؤساء صحف قدموا أروع ما عندهم من خلق وابتكار وحققوا أكبر نجاح بعد سن الستين .

والحالة الصحية ومدى طاقة العمل والإنتاج وعدم التراخي في ممارسة المسؤولية .. هي العناصر التي يفترض أنها تقرر استمرار رئيس الصحيفة في مكانه أو تخفيف الأعباء عن كاهله أو إعفائه من أداء الدور القيادي أو تقاعده .

ولماذا يستمر الوزراء في أداء مسؤولياتهم بعد سن الستين ـ وهذا شيء طيب ـ بينما لا يستطيع ذلك رئيس الصحيفة أو المؤسسة الصحفية . رغم أنه قد يكون العثور على رئيس صحيفة يتمتع بالكفاءة والفاعلية ومؤهل لتوجيه وقيادة العمل في مؤسسة كبرى .

ونتيجة لظروف شاذة أو استثنائية مرت بها بلادنا في بعض الأوقات لا توجد وفرة من الكوادر الصحفية الجاهزة لتولي مسئوليات فورية في القمة الصحفية . وكما هو معروف فقد تم تجميد أصحاب مواهب وكفاءات وأعمدة و«عرقلة» تقدم البعض وإهدار كل فرصة تتيح لهم إثبات جدارتهم بالمسؤولية وأحقيتهم في الصعود في فترة من الفترات . كان الاعتماد على «أهل الثقة» وليس «أهل الخبرة» .

ومن الضروري أن تتمتع المؤسسات الصحفية القومية بنوع من الاستقرار بعد سنوات من التقلبات والهزات الناجمة عن عواصف سياسية .. وأن تتمتع المؤسسات الصحفية القومية أيضًا بأكبر قدر من حرية التعبير وصنع القرار .

وهذا هو السبب في أن الخبرة .. وعنصر الكفاءة والتميز في الأداء . كل ذلك

ينبغي أن يلعب الدور الرئيسي في تقدم هذا الصحفي أو ذاك إلى الصفوف الأولى أو تراجعه إلى الخلف . ومن المفيد الالتفات إلى الشوائب والأخطاء والتعرجات والقرارات غير الموضوعية التي تحدث الآن .. ولابد أن تدور السمة الأساسية حول عنصر الكفاءة في العمل وليس الولاء لأفراد مهما كانت سطوتهم أو نفوذهم .. وليس الرأي السياسي أو الاتجاهات الفكرية .

■ ■ ■

* عزيزي سلامة أحمد سلامة :



الصحافة الحزبية ليست زائدة دودية!

الكتاب الذي أصدرته «دار العين» بعنوان «الصحافة فوق صفيح ساخن» بقلم الكاتب الصحفي الكبير سلامة أحمد سلامة يتصف بأهمية خاصة ، لأن الكاتب صاحب خبرة طويلة في العمل الصحفي ، ولأن هناك إجماعًا على أنه يتميز بالنزاهة والموضوعية ، ويرتبط اسمه بالدفاع المجيد عن حرية الصحافة والصحفيين . ويضم الكتاب مقالات سبق أن نشرها المؤلف وتم تجميعها في هذا الكتاب .

تحتوي هذه المقالات على أفكار ومواقف .. أتفق معه حولها ، مثل :

* أن الصحافة لو أُخذت مأخذ الجد ، فإنها تصبح وسيلة للتثقيف والتنوير والتغيير ، والصحفي يجب أن يستمد مكانته وقيمته من دقة التحليل ونفاذ الرؤية وصدق المعلومات وعمق الخبرة واستقلال الرأي .

* المسألة ليست بكثرة ما يصدر من صحف ومجلات ، ولا بعدد ما ينشأ من قنوات وفضائيات ، ولكن بما تملكه هذه الوسائل الإعلامية من حريات ومن إمكانيات وقدرات على النشر والبث التليفزيوني دون قيود أو عوائق أو تهديدات بالسجن .

* هناك بديهيات حسمت منذ وقت طويل ، في الدول الديمقراطية ، وهي حق الصحافة في نقد السياسات وكشف الحقائق ، سواء كان موجهًا إلى رئيس الدولة أو كبار المسؤولين ، والحديث عن حياتهم وثرواتهم وتصرفاتهم العامة .

* المطالبة بتشريع يضمن للمواطن الحق في الحصول على المعلومات بالطرق المشروعة ، وبالأخص بالنسبة للصحفيين .

* التمسك بمبدأ كان يردده الصحفي الراحل مصطفى أمين وهو : الصحفي الحقيقي هو الذي لا يخاف إذا كتب ، ولا يكتب إذا خاف . والصحفي المحترم هو الذي لا يطلب شيئًا لنفسه ، لأنه يوم أن تكون له طلبات من وراء ما يكتبه ، فإنه يظل أسير طلباته ، فيفقد حريته .

* تراخيص إصدار الصحف من الداخل ومن الخارج تصبح من اختصاصات المجلس الأعلى للصحافة دون غيره .. وإخضاع جميع الصحف لقوانين العمل والنقابة وإشراف الجهاز المركزي للمحاسبات للحيلولة دون تفشي ظاهرة الدكاكين الصحفية غير الملتزمة ، وتنفيذ ذلك بحزم لمنع تسرب أموال مشبوهة كمصادر لتمويل الصحف سواء من دول أجنبية أو رجال أعمال .

* إنشاء دوائر قضائية متخصصة للنظر في قضايا النشر والصحافة ، أسوة بدوائر الأموال العامة ، وكذلك نيابة خاصة للصحافة للتحقيق في الدعاوي المرفوعة ضد الصحف والصحفيين ، تكفل سرعة الفصل في هذه القضايا .

* تأميم الصحافة في عهد الثورة أدى إلى انطفاء شعلة التفكير المستقل والرأي الحر نتيجة لسيطرة الدولة والحزب الواحد ، كذلك لعبة الرقابة وقوانين الطوارئ ودورها في حجب المعلومات ونسخ الأخبار ومصادرة الصحف . وليس من شأن الدولة أن تكون مالكة للصحف أو مسؤولة عن ملكيتها أو إدارتها بأي صورة ، بل

تتخذ ملكية الصحف أشكالا تجارية في صورة شركات مساهمة أو فردية أو تعاونية ، مع وضع الضوابط القانونية التي تمنع الغش والتحايل والاحتكار والتدخل الأجنبي . (ونقطة الخلاف مع سلامة أحمد سلامة حول هذه المسألة هي أنه يستبعد الإبقاء على الصحف القومية مع تغيير شكل الملكية عن طريق تمليك هذه الصحف للعاملين فيها مع اشتراط حد أقصى لحيازة الأسهم بالنسبة لهم ولمن هم خارج المؤسسة على أن تكون الأولوية للعاملين في الصحيفة) .

ولا خلاف مع سلامة على رفع يد ملكية الدولة للصحف وعلى استقلالية الصحافة ماليًا واقتصاديًا ، وبالتالي استقلال الإدارة والرأي . ولا خلاف أيضًا حول البحث عن حلول بديلة للوضع الحالي الذي يقضي بأن يتولى مجلس الشورى تعيين رؤساء الصحف القومية ومراقبة أدائها . والحاصل أن تغيير القيادات الصحفية عندنا يتم بمعزل عن رأي أو اختيار الصحفيين والعاملين في الصحيفة ، فهو قرار «قدسي» ، على حد تعبير سلامة أحمد سلامة ، لا مجال للطعن فيه .

كل الصحفيين يتفقون مع ما يقوله سلامة حول خضوع الصحف الآن لقوانين تشرع الحبس في عدد كبير من «جرائم» النشر، وهي «جرائم» غامضة في التعريف ، سهلة في التطبيق والإثبات، تناقض روح الحرية وتعوق انطلاق الفكر .

وسلامة على حق عندما يتحدث عن نظام الرقابة الداخلية الذي لا يزال يفعل فعله في كثير من الصحف حتى الآن ، بحيث يصبح رئيس التحرير ، أو من ينوب عنه ، هو الرقيب الداخلي .. يمارس مهمة الحذف أو التعديل أو الإبراز أو الإهمال .

وكان من الضروري لكتاب عن الصحافة والصحفيين أن يتناول المؤلف قضية الفصل بين المادة الإعلامية والمادة التحريرية ، وخاصة بعد أن تلاشت الخطوات التي كانت تفصل بين الصحفي ومندوب الإعلانات بصورة مخيفة مما يعني تنازل

الصحفي عن دوره ، وينتهي الأمر بالتعامل معه مثل مندوب الإعلانات الذي عليه أن «يتلقى» ما يريد العميل نشره .

ويرصد سلامة أحمد سلامة الميول القوية لدى وسائل الإعلام نحو عدم الالتزام بالضوابط التي نص عليها ميثاق الشرف الصحفي ، وغياب المعايير الدقيقة التي تحدد طريقة التعامل مع المتهمين في قضايا مدنية وجنائية ، وهو على حق في تأكيده على أن التمييز بين الخطأ والصواب وبين المسموح والممنوع في النشر قد اختلط على كثير من الصحفيين . ويذكرنا المؤلف بأن لدينا أدوات قانونية للمحاسبة على ما يعد خروجًا على آداب المهنة ، إما عن طريق القانون أو بتفعيل ميثاق الشرف الصحفي والاعتراف بمسؤولية نقابة الصحفيين في تأديب أعضائها وحماية المهنة من الخروج على آدابها .

نقطة الخلاف الرئيسية مع سلامة أحمد سلامة تتركز في موقفه من الصحافة الحزبية . إنه يقول :

«تأكد من خلال ممارسات عديدة أن صحافة الأحزاب في مصر ، على اختلاف الأسماء والتوجيهات ، لا تعدو أن تكون مثل الزائدة الدودية ، وجودها في الجسم لا يفيد ، واستئصالها قد يمنع كثيرًا من الالتهابات» .

وإذا كان سلامة يشيد بدور الصحافة في الكشف عن قضايا الفساد التي وقعت في القطاع المصرفي من نهب للقروض دون ضمانات ، وما تكشف في القطاع الزراعي من عفن في التجارة بالمبيدات السامة ، والاتجار في أراضي الدولة وفي تهريب الآثار ، واستيراد الأغذية والسلع الفاسدة والمنتهية الصلاحية ، والتربح من المال العام .. فإن الإنصاف يقضي بالإشادة بدور رئيسي للصحافة الحزبية في الكشف عن هذه المفاسد .. ثم .. أليست الصحافة الحزبية التي تلتزم ببرنامج

سياسي اقتصادي اجتماعي ثقافي معروف ومعلن .. أفضل من صحافة لا تلتزم إلا برأي مموليها؟

وليس صحيحًا أن صحفنا الحزبية تحولت إلى نشرات «يفرض فيها رئيس الحزب ومجموعته آرائهم» .. فالأمر يتوقف على شخصية رئيس التحرير ، وعلى تغليبه الاعتبارات المهنية التي بدونها لن تنجح الصحيفة . وفي ضوء خبرتي السابقة كرئيس تحرير صحيفة حزبية . فقد كنت ، في أحيان كثيرة ، أرجئ نشر مقال رئيس الحزب لضيق المساحة . إذا لم تكن هناك ضرورة عاجلة لنشره ، واستمر الحال على هذا المنوال لثماني سنوات .

وإذا كنت أتفق مع سلامة في موقفه الرافض لتدخل الحزب في تحرير الصحيفة وعدم تعريض رئيس التحرير لضغوط العمل الحزبي ، فإن الواجب يقتضي التذكير بأن العدد الأكبر من الحكماء في أي حزب يدركون أن هذا النوع من التدخل يقضي على الصحيفة .. وهذا ليس في مصلحة الحزب .

وعندما يتحدث سلامة عن فترة ما قبل الثورة ، فإنه يقول: أن الصحافة الحزبية والمستقلة ظلت خاضعة لنفوذ القصر الملكي أو لتأثير الأحزاب و«القوى السياسية الشعبية» .

والتاريخ يشهد بأن الصحافة «الخاضعة لتأثير حزب الوفد » مثلاً ، و«القوى السياسية الشعبية» خاضت أعظم المعارك من أجل الاستقلال الوطني ومقاومة الاستبداد واعتداءات القصر على الدستور . ويضيق المجال عن ذكر الأعلام وأصحاب الأقلام الحرة الذين تفخر بهم مصر من أمثال سينوت حنا ، والدكتور محمد مندور ، والدكتور عزيز فهمي ، وأحمد أبو الفتح .. وغيرهم كثيرون . والقول بأن الصحف الحزبية والمستقلة خضعت ، بدرجة أو أخرى ، لنفوذ القصر الملكي

يغفل أدوارًا بالغة الأهمية لعبت دورًا مشرفًا في تاريخ الصحافة واستطاعت إحباط مشروعات لتقييد حرية الصحافة حتى لو كان أصحابها ينتمون إلى نفس الحزب الذي تنطق تلك الصحف باسمه .

صحيح أنه كانت هناك - قبل ٢٣ يوليو ١٩٥٢ - صحف تلعب دور الأبواق للقصر .. ولكن كانت هناك صحف تحرض على الثورة ضد المستعمرين وضد الملك وتمهد الطريق للتغيير . ويسجل التاريخ بحروف من نور كتابات عدد لا يحصى من الذين يقدرون شرف الكلمة ويعرفون معنى الوطنية والإخلاص للشعب .

■ ■ ■

* هامش واسع من الاستقلالية .. هو المخرج.

أزمة الصحافة الحزبية في مصر

رغم أن التكوينات الأولى لحزب سياسي مصري بدأت في الظهور في الربع الأخير من القرن التاسع عشر ، إلا أن العقد الأول من القرن العشرين شهد ظهور الأحزاب لأول مرة في الحياة السياسية المصرية .

وكما يقرر الدكتور محمد صابر عرب ، فإن الصحف أخذت تعبر عن برامج وتوجهات حزبية اتسمت بقدر كبير من التباين - في تلك الفترة - سواء في الطرح النظري أو في الممارسة العملية مما أشاع مناخًا سياسيًا وثقافيًا عبرت عنه الأحزاب المصرية بقدر من التنافس والحدة .

ومع ثورة ١٩١٩ وصدور دستور ١٩٢٣ نشطت الأحزاب وصحفها لكي تعبر عن أفكار وتوجهات مختلفة تدور في الأساس حول الحركة الوطنية وكيفية مواجهة المستعمرين الإنجليز . ورغم محاولات سلطة الاحتلال إعادة العمل بقانون المطبوعات الصادر في عام ١٨٨١ ورغم القيود والإجراءات التي استهدفت الحد من حرية الصحافة .. إلا أن الجدل السياسي الصاخب والحوارات

الساخنة والصراع بين التيارات المختلفة خلق مناخًا خصبًا يجذب قطاعات واسعة من المصريين للانخراط في العمل السياسي والمشاركة في كل أنواع النشاط التي تتعلق بالشأن العام وهموم الوطن .

بفضل الصحف المؤيدة للوفد ، اتسع نطاق هذه المشاركة ليشمل أعماق الريف المصري . بل إن الصحف الحزبية الأخرى المناهضة للوفد لعبت ـ في أوساط النخبة ـ دورًا لا يقل أهمية في صنع مناخ ثقافي تزدهر فيه المواهب وتنمو القدرات الفكرية ، كما فعلت صحيفة «الدستور» .

معارك تاريخية

ولم تكن الخلافات بين الأحزاب ـ والتي تنعكس على صفحات الصحف الناطقة باسمها ـ مجرد خلافات هامشية أو مفتعلة ، وإنما كانت تنبع من التصادم بين القوى الوطنية التي تتشدد في طلب الاستقلال الكامل واحترام الدستور ومعارضة تدخلات الملك وانقلاباته ضد حكم الأغلبية الشعبية .. وبين تيار يعتبر نفسه ممثل الاعتدال والقبول بالحد الأدنى للمطالب الوطنية وانتهاج سياسة المهدنة مع الإنجليز والتحالف مع القصر الملكي .

وسوف يسجل التاريخ للصحافة الحزبية في مصر ، منذ بدايات القرن العشرين حتى عام ١٩٥٤ صفحات ناصعة ، خاضت خلالها المعارك لتعميق أهداف الحركة الوطنية والدفاع عن الديمقراطية والحريات العامة .. وكانت الصحف الحزبية منبرًا لأكبر كتاب مصر .

وجاءت فترة ١٩٥٢-١٩٥٤ لتشهد إلغاء الأحزاب السياسية وإنهاء التعددية في مصر وتوقف أو إغلاق الصحف الحزبية .. لتبدأ مرحلة جديدة تحتكر فيها الدولة كل وسائل الإعلام ويسيطر فيها حزب واحد ، تم تأسيسه على أيدي الحكام

أنفسهم ، على مقدرات البلاد . وساد الرأي الواحد والفكر الواحد .

إنها فترة إلغاء الحياة السياسية للجماهير ، التي دفعت دفعًا إلى السلبية وأرغمت على أن تكون في موقع المتفرج .

ولم يعد هناك وجود في الساحة الصحفية إلا لصحافة الحزب الحاكم والوحيد والتي خضعت لقانون تنظيم الصحافة الذي جعل كافة الصحف تابعة للدولة ومعبرة عن سياستها في جميع المجالات .

منابر وأحزاب

بدأت الصحف الحزبية في الظهور مرة أخرى بعد إقرار نظام المنابر السياسية داخل الاتحاد الاشتراكي العربي الذي فتح الطريق لتحول هذه المنابر إلى أحزاب (يمين ويسار ووسط) : حزب الأحرار الاشتراكيين ، برئاسة مصطفى كامل مراد (الذي أصدر أول جريدة معارضة بعد حوالي ٢٣ سنة من غياب صحافة المعارضة) وحزب التجمع الوطني التقدمي الوحدوي ، برئاسة خالد محيي الدين ، عضو مجلس قيادة ثورة ٢٣ يوليو ، والحزب الوطني الديمقراطي ، برئاسة رئيس الجمهورية أنور السادات .

وهكذا ظهرت إلى الوجود صحيفة «الأهالي» ، الناطقة باسم التجمع ، وصحيفة «الأحرار»، الناطقة باسم حزب الأحرار الاشتراكيين ، قبل أن تنضم إليهما صحيفة «الوفد» بعد إعادة تأسيس حزب «الوفد الجديد» برئاسة فؤاد سراج الدين . وفي سنوات لاحقة ظهرت صحف حزبية أخرى ، أهمها «العربي» الناطقة باسم الحزب العربي الديمقراطي الناصري .

فقد أصبح من حق الحزب السياسي الشرعي أن يصدر صحفًا ومجلات .

وبموجب التعديل الأخير في قانون الأحزاب ، لم يعد من حق الحزب أن يصدر أكثر من مطبوعتين .

والمؤكد أن عودة الصحف الحزبية إلى الظهور في مصر .. إضافة جديدة إلى الحياة السياسية والصحفية . فقد أضفى شكلاً من التعددية على النظام السياسي ، وكسر منظومة الرأي الواحد والفكر الواحد .. وإن كانت الصحافة الحزبية الوليدة قد واجهت متاعب كثيرة في عهد السادات .

وعلى سبيل المثال ، فقد صودرت «الأهالي» مرات لا تحصى وسط مناخ من التضييق على الأحزاب والتشهير بها ومحاولة خنقها . وبلغت حالة الاحتقان السياسي والصحفي ذروتها مع حملة الاعتقالات في سبتمبر ١٩٨١ .

هامش ديمقراطي

ولكن ما هي مشكلات الصحافة الحزبية في مصر ؟ وهل هناك فهم صحيح لطبيعة ومضمون ودور هذه الصحافة ؟

لم يكن الهامش الديمقراطي القائم كافيًا لازدهار الصحف الحزبية وسط ممارسات ومعطيات غير ديمقراطية . كما أن التعددية المقيدة لعبت دورًا في تحجيم وظائف الأحزاب السياسية ، بحيث يمكن وصف الأوضاع التي تشكلت بعد ١١ نوفمبر ١٩٧٦ بأنها «نظام الحزب الواحد في قالب تعددي» .

وكان السادات قد أعلن في مجلس الشعب يوم ١١ نوفمبر ٧٦ قائلاً : « لقد اتخذت قرارًا تاريخيًا يرتبط بكم وبيوم افتتاح مجلسكم الموقر هو أن تتحول التنظيمات الثلاثة ابتداء من اليوم إلى أحزاب . إن هذا القرار ينطوي على تحول أعمق مما يبدو منه ، وعلى مسئوليات أكبر مما ترى العين من النظرة الأولى».

وقال : «إن سيطرة الاتحاد الاشتراكي سترتفع بالضرورة نهائيًا عن الأحزاب ، وسوف يصبح كل حزب حرًا تمامًا في إدارة نشاطه في حدود القوانين والدستور » .

غير أن وصاية النظام الحاكم وقيوده وضوابطه لم تسقط . واستمر القائمون على توجيه الأمور في التصرف بعقلية وأساليب الحزب الواحد ، التي بدو أنها ضربت بجذور قوية على مدى قرابة ربع قرن .

متاعب الصحافة الحزبية

ومن هنا لم تتمتع الصحف الحزبية بالحق في الحصول على المعلومات ، وحرمت من توفير إمكانات مادية بسبب الحظر المفروض على الحزب المعارض ، الذي تنطق باسمه ، والذي يحول بينه وبين إقامة مشروعات تجارية تحقق دخلاً يكفي للإنفاق على أنشطته ومقاره .. وعلى صحيفته .

وفي الوقت الذي عانت فيه الصحافة الحزبية من ضعف إمكانياتها .. كانت ولا تزال تخضع لضريبة الدمغة وتعاني من الارتفاع المستمر في أسعار الورق التي قفزت خلال ثماني سنوات من حوالي ١٥٠٠ جنيه (سعر الطن) إلى أكثر من خمسة آلاف جنيه علاوة على الزيادة المستمرة في كل أسعار مستلزمات الطباعة .

يحدث ذلك في الوقت الذي لا تحصل فيه الصحافة الحزبية على نصيبها من الإعلانات .

الكوادر الصحفية

ولما كان أصحاب المال والأعمال يفضلون الانتماء إلى الحزب الحاكم لحماية وتنمية مصالحهم ، فإنهم لا يقبلون على أحزاب المعارضة . ومن ثم تقتصر عضوية أحزاب المعارضة على المواطنين الذين لا يملكون من الإمكانات ما يتيح لهم تقديم

الدعم المالي لأحزابهم . وينعكس ذلك على أوضاع الصحيفة الحزبية .. فاشتراكات الأعضاء هزيلة ولا تكفي لتمويل نفقات الصحيفة .. وكمية الإعلانات محدودة لأسباب مفهومة .

ولا جدل في أن توافر القدرات المالية عنصر رئيسي في تطوير الصحيفة الحزبية وتعزيز فرص رواجها ونجاحها .

ولما كان الصحفيون المؤهلون والمحترفون لا يولدون فجأة ، فإن المصدر الذي يمكن الاعتماد عليه في تشكيل هيئة تحرير لصحيفة حزبية يتميز أفرادها بكفاءة عالية .. هو الصحف القائمة بالفعل ، غير أن الصحف القومية والخاصة هي التي تستولي على الكوادر التي سبق للصحف الحزبية أن تولت تدريبها .

من الذي سيترك موقعه في صحيفة قومية ليلتحق بالعمل في صحيفة حزبية ما لم يحصل على أضعاف مرتبه في الصحيفة القومية ، الأمر الذي يمكن أن يعوضه عن فقدان امتيازات يتمتع بها في صحيفته القومية .

فقط .. رئيس تحرير الصحيفة الحزبية (الذي تسند إليه مهمة قيادة العمل في صحيفة حزبية) هو الذي يمكن أن يقبل بالتضحية بأي شيء مقابل وضع أفكاره موضع التطبيق في منبره الحزبي نظرًا لأنه ينتمي ، فكرًا وتنظيمًا ، لهذا الحزب ، ولأنه يريد مجالاً للإبداع المهني الذي يوظفه لخدمة أفكاره السياسية التي طالما ناضل من أجلها .

ولهذا السبب تفتقر الصحف الحزبية إلى عدد كاف من الكادر الصحفي المدرب .

مشكلة التوزيع

مشكلة أخرى تواجه الصحافة الحزبية هي الطباعة وجهاز التوزيع . فالمعروف

أن دور الصحف الكبرى القومية هي التي تملك المطابع الكبرى وأجهزة التوزيع التي تغطي كل أنحاء مصر .

ولا تجد الصحيفة الحزبية أمامها مفرًا من اللجوء إلى جهاز توزيع ضخم لصحيفة قومية كبرى .

وهنا تجد الصحيفة الحزبية نفسها تحت رحمة جهاز التوزيع المذكور ، فهو الذي يحدد لها موعد الطبع حتى لو كانت الصحيفة الحزبية قد أنهت في مقرها كل التجهيزات السابقة على عملية الطبع . وعقب الانتهاء من الطبع يجيء دور جهاز التوزيع ويستطيع هذا الجهاز - بكل بساطة - أن يرفع أو يخفض توزيع الصحيفة الحزبية .

وعلى سبيل المثال ، هناك موقع في مكان ما اعتاد أن يوزع أربعمائة نسخة من الصحيفة الحزبية ، فإذا وضع فيه جهاز التوزيع أربعين نسخة ، يكون قد ضرب التوزيع . وهناك موقع في مكان آخر اعتاد أن يوزع أربعين نسخة ، فإذا وضع فيه جهاز التوزيع أربعمائة نسخة ، يكون قد ضرب التوزيع .

وتجأر مناطق كثيرة ، في أنحاء مصر ، بالشكوى من أن الصحيفة الحزبية لم تصل إليها (ولا حتى نسخة واحدة) ويكون المسؤول هو جهاز التوزيع .

وأحيانًا تكون مهمة هذا الجهاز صعبة ، لأنه يحمل على عاتقه مسؤولية توزيع عدد هائل من الصحف المحلية الأخرى ، علاوة على صحف عربية وأجنبية إلى جانب المجلات والدوريات .. إلخ .. وفي مثل هذه الأوضاع ، فإنه لا يهتم كثيرًا بتوزيع الصحيفة الحزبية .

وفي بعض الحالات ، تظهر مؤشرات على أن جهاز التوزيع يضع «سقفًا» لتوزيع الصحيفة الحزبية .. فالعائد لا يهمه بنفس القدر الذي يضع فيه لنفسه أولويات

أخرى .

وقد اعترف رئيس مجلس إدارة صحيفة قومية كبيرة منافسة لمؤسسة قوية أخرى ، في إحدى جلساته الخاصة ، بأنه لا يستبعد وجود هذا السقف ، وعرض على رئيس تحرير صحيفة حزبية يومًا ـ كاتب هذه السطور ـ أن تتولى مؤسسته مهمة توزيع الصحيفة الحزبية متعهدًا برفع توزيعها بمقدار يتجاوز عشرة آلاف نسخة (!) كما لو كان قرار تحديد كمية التوزيع .. في يده !

وكانت مسألة تأسيس شركة توزيع للصحافة الحزبية موضع نقاش بين كاتب هذه السطور والأستاذ عباس الطرابيلي ، رئيس تحرير صحيفة «الوفد» السابق والأستاذ عبد الله السناوي ، رئيس تحرير صحيفة «العربي» ، كوسيلة لحل مشكلة التوزيع ، وإنهاء معاناة الصحف الحزبية على أيدي أجهزة توزيع المؤسسات القومية الكبرى .

أمراض المجتمع

ولكن ، هل تقتصر مشكلات الصحافة الحزبية في مصر على ذلك .

إنني أتفق مع الراي الذي نشرته الزميلة الكاتبة الصحفية الأستاذة أمينة النقاش ، مديرة تحرير «الأهالي» في مجلة «روزاليوسف» (عدد ١٥ ديسمبر ٢٠٠٦) . وقالت فيه :

«إن الموازنة السياسية في مصر لن تتحقق إلا بدعم الأحزاب ماليًا لصحفها التي تحظى بتأثير أكبر من أحزابها وتحرير سياستها من القيود الحزبية والتوازنات السياسية التي كثيرًا ما تتعارض مع التقاليد المهنية ، ومنحها قدرًا أكبر من الاستقلالية في إطار الالتزام بالخطوط العامة لسياسة الحزب ، حتى تتمكن

الصحيفة من المنافسة والمساهمة في نشر تيار سياسي عقلاني وعملي يضبط إيقاع الحوار المجتمعي ويمكن الأحزاب من ترسيخ أقدامها على الخريطة الاجتماعية ، وهو ما يقتضي ـ فضلاً عن ذلك ـ إعادة تشكيلها على أسس مؤسسية لا شخصية ، ورفع القيود المفروضة على الإعلان بها ووجود مؤسسات مستقلة لتوزيعها » .

لم تفلت الصحف الحزبية من الأمراض الشائعة في المجتمع ، فقد جرى تعيين محررين فيها خلال السنوات الماضية على أساس الولاء الحزبي فقط أو علاقات القرابة أو العلاقات الشخصية دون اعتبار للقدرة المهنية .

الوصاية الحزبية

ولكن مشكلة المشاكل في الصحافة الحزبية أخطر من ذلك :

فقد افترض أعضاء الحزب السياسي أنه لما كان المكتب السياسي أو الأمانة العامة للحزب هي التي تعين رئيس تحرير صحيفة الحزب ، فإن كل عضو في الحزب يجب أن يفرض وصايته على الصحيفة ويكون رقيبًا على المادة التحريرية التي تنشرها ، وأنه يملك الحق في تقييم كل شيء من وجهة نظره .

ويفترض كل عضو في الحزب أنه مؤهل لهذه المهمة ، وأنه يستطيع أن يصدر أحكامًا على المستوى المهني والأداء الحرفي لصحيفة حزبه حتى لو لم يكن يعرف شيئًا عن أبجديات قواعد المهنة .

ويفترض عضو الحزب أنه الحارس الأمين على خط الحزب السياسي الذي يمكن ـ بسهولة ! ـ لهيئة تحرير الصحيفة «أن تنحرف عنه» في أي وقت ، وبالتالي فإنه يمكن أن يوجه ما يعن له من انتقادات يثبت بعد ذلك أنها في غير محلها وفي غير موضعها .

وأحيانًا ، يفترض عضو في الحزب أنه كاتب قدير ومحلل بارع .. فيكتب مقالاً . وإذا وجدت هيئة تحرير الصحيفة أو رئيس تحريرها أن المقال دون المستوى ولم تنشره .. فإن الصحيفة تنقلب إلى عدو لدود لكاتب ذلك «المقال» ، وينعكس هذا العداء في اجتماع الهيئات الحزبية ، حيث تجري تصفية الحسابات .

ويحدث ، في أحيان أخرى ، أن شخصية قيادية في الحزب تقيم ندوة ، وتنشر الصحيفة الحزبية أخبار الندوة بالتفصيل ثم تكتشف الصحيفة أن الشخصية القيادية تشن حملة ضارية ضدها . والسبب أن صورته لم تنشر في مكان بارز أو بالطريقة التي يراها «لائقة» بالنسبة له!

متاعب كثيرة تواجه الصحافة الحزبية يرجع معظمها إلى فهم خاطئ للعلاقة بين الحزب وصحيفته .

قد لا يعرف الكثيرون أنه لا توجد في بريطانيا مثلاً صحيفة يقال إنها ناطقة باسم حزب المحافظين أو حزب العمال مثلاً ، ولكن هناك صحفًا متعاطفة أو مؤيدة بوجه عام لهذا الحزب أو ذاك وتتمتع باستقلالية كاملة عن الحزب .

وفي فرنسا ، مثلاً ، تقرر أن تكون صحيفة «لوما نيتيه» مستقلة عن الحزب الشيوعي الفرنسي بعد تجارب مريرة وأزمات متكررة .

عينة من الانتقادات

وأذكر الآن أن أحد كبار اليساريين المحترمين في مصر انتقد ، في حديث صحفي سبق رحيله بوقت قصير ، صحيفة «الأهالي» . وحرصت على أن أعرف سبب انتقاده ، وفوجئت بأن هذا السبب هو أن «الأهالي» نشرت أحاديث وحوارات مع وزراء (وهذا ما قاله بالضبط!) لم يهتم هذا اليساري الكبير بأن يقرأ الأسئلة الموجهة

إلى هذا الوزير أو ذاك .. وهل هي أسئلة تعكس روح المجاملة أم أن الأسئلة كانت تتخذ شكل المواجهة الحادة مع المسئول الحكومي ، وتنقل إليه هموم وشكاوي القاعدة الشعبية ؟

ثم إن هذا اليساري أغفل تمامًا الجانب المهني لنشاط الصحيفة وتجاهل أن الوزراء مصدر رئيسي للأخبار التي يمكن أن تمس مصالح الناس وحياتهم المعيشية ، وتغاضي عن أن الصحيفة وكتابها وقراءها ومحرريها يملكون الحق في التعقيب على حديث هذا الوزير أو ذاك ورفض أو تفنيد كل ما قاله .

فهل المطلوب هو مقاطعة الوزراء أو الاكتفاء بتوجيه الانتقادات أو الشتائم لهم؟ وهل هذا هو مفهوم الصحافة الحزبية ؟

صحيفة أم نشرة حزبية ؟

هذه النظرة لصحيفة الحزب (وانتقادها لأنها تجري أحاديث مع وزراء) توجد داخل الحزب السياسي أيضًا .

وبالمزيد من الفحص والتدقيق للآراء التي تصدر من داخل الحزب المعارض وتهاجم صحيفة الحزب بضراوة ، يستنتج المرء أن المطلوب هو أن تكون الصحيفة مجرد نشرة حزبية وليست جريدة جماهيرية .

ومرة أخرى ، يتغاضى أصحاب هذه الآراء عن حقيقة هامة ، وهي أن صحيفتهم الحزبية تواجه منافسة شرسة مع صحف أخرى عديدة ، يومية وأسبوعية .

لم يعد المجال مقصورًا على «الأهالي» ، و«الأحرار» ثم «الوفد» ، و«العربي» بل ظهرت أحزاب وصحف جديدة ناطقة باسمها ، كما ظهرت صحف خاصة تملك إمكانيات مالية ضخمة . ومن ثم فإن الاهتمام بالجانب المهني والتفوق الحرفي

أصبح أكثر أهمية من أي وقت مضى . وينبغي أن تحرص الصحيفة الحزبية على أن تشحذ كل طاقاتها لكي تنجح في حلبة المنافسة .

ولن يتحقق هذا النجاح إذا ظل تفكير بعض أعضاء الحزب ينحصر في نقد «تقصير الجريدة» في «تلميع» أسماء القيادات الإقليمية للحزب وإبراز «الكوادر» حتى لو لم تفعل هذه القيادات والكوادر شيئًا يستحق الإشادة أو النشر .

انطواء وانغلاق

ولا يوجد منطق واحد في التعامل بين بعض أعضاء الحزب والصحيفة الناطقة باسمه .

فقد يحدث أن بعض المراسلين في المحافظات من أعضاء الحزب يرسلون أخبارًا تنطوي على مجاملة للمحافظ (رغم أن مراسلي الأخبار متشددون في مواقفهم السياسية ويريدون من صحيفتهم ألاَّ تكف عن تصعيد لهجتها المعادية لكل ما هو حكومي) وعندما ترفض الصحيفة نشر مثل هذه الأخبار .. تصبح عدوًا لدودًا لهؤلاء المراسلين .

والدليل على الفهم القاصر لدور الصحيفة الحزبية هو إصرار قيادة الحزب على أن يكون أمين الحزب في المحافظة هو الذي يختار مراسل الصحيفة الحزبية في تلك المحافظة ! ويترتب على ذلك أن المراسل لابد أن يراجع أمين الحزب في المحافظة بشأن كل خبر قبل أن يرسله للصحيفة للنشر . وفي هذه الحالة يتوقف «نوع» الأخبار على طبيعة العلاقة بين أمين الحزب وبين المحافظ !

وأحيانًا يتطوع مواطنون مثقفون عاديون من مؤيدي الحزب السياسي لكي يراسلوا صحيفة الحزب بلا مقابل ، وسرعان ما يتم الاحتشاد الحزبي في المحافظة

لقطع الطريق على هذا «الدخيل» الذي يريد أن ينتزع من أمانة المحافظة بعض «اختصاصاتها» و«حقوقها» .

إنها عقلية تكشف عن الحرص على التقوقع والانغلاق والإهمال المروع لضرورة الانفتاح على الناس العاديين ، وتوسيع صفوف الحزب وزيادة نفوذه السياسي بين الجماهير ، وإقامة علاقات مع شخصيات جديدة ، والعمل على زيادة العضوية ، وبناء ركائز جماهيرية وإقامة وتوسيع القواعد الشعبية . كما لو كان الأعضاء الجدد يشكلون خطرًا على الأعضاء القدامى .. إذ يقوض مراكزهم ويحرمهم من متعة الحديث مع أنفسهم بعيدًا عن «المتطفلين» من خارج الحزب .

والملاحظ أن أعضاء الحزب السياسي لا يضعون ضمن جدول أعمالهم ونشاطهم الترويج لصحيفة الحزب ، بل أن بعضهم يمكن أن يتفاخر بأنه لا يقرأها !

ولا يدرك بعض أعضاء الحزب السياسي أن قوة الصحيفة الحزبية يرتبط بقوة الحزب ، وأنه كلما ازدادت قوة الحزب اتسع نفوذ صحيفته وزاد تأثيرها في الحياة السياسية وفي عملية صنع القرار .

الصحيفة .. « شماعة ! » :

وأسهل الأمور لدى بعض أعضاء الحزب السياسي أن يتخذوا من صحيفة الحزب «شماعة» أو يجعلوا منها كبش فداء للقصور والعجز في نشاطهم .

يحل موسم الانتخابات العامة ، وتفرد صحيفة الحزب صفحات عديدة ومساحات هائلة للدعاية لمرشحي الحزب في الانتخابات . هذا ما تفعله الصحيفة الحزبية ، وهي تعلم أن هذه الدعاية التي تقوم بها في صفحاتها لن تؤدي إلى فوز المرشح ، لأن فوزه يرتبط بعوامل وعناصر كثيرة أخرى (مدى شعبيته وقدرته على

فهم مطالب الناخبين والتعبير عنها ، تاريخه ومواقفه وعمق صلاته بأهل دائرته وحسن سمعته .. إلخ) .

ولكن الصحيفة الحزبية تصر على المضي قدمًا وبنشاط في هذه الدعاية لأنها تعرف سلفًا أنه في حالة سقوط المرشح سوف يبادر بسرعة إلى إعلان أن صحيفة الحزب كانت مقصرة في الدعاية له ، ولن يذكر أي سبب آخر لتفسير فشله . ومن هنا ، فالصحيفة تبادر إلى إجهاض حجته ـ مسبقًا ـ ولو على حساب الاعتبارات المهنية .

وتصدق توقعات الصحيفة الحزبية . يفشل مرشحون ، وتكون جريدة الحزب هي «الشماعة» لتبرير الفشل ! .

لقد ضحت الصحيفة باعتبارات مهنية وتوزيعية ، لأنها تعرف أن إفراد مساحات عن مرشح في طنطا ، مثلاً ، لا يهم سكان قنا وأسوان . ومع ذلك فإن النتيجة واحدة . ولا تجد الصحيفة من يعترف بأخطاء المرشح وبالأسباب الحقيقية للفشل .. إلا في حالات نادرة .

مسايرة الغوغائية

ومع موجات الإثارة والغوغائية التي تتصاعد الآن في المجتمع المصري يصبح مقياس الحكم ـ لدى بعض أعضاء الحزب السياسي ـ على نجاح أو فشل صحيفة الحزب هو مسايرتها لهذه الموجات .

مثل هؤلاء الأعضاء ينتظرون من صحيفة حزبهم أن تكون الأعلى صوتًا في السباب أو الشتائم والتجريح والإهانة لأكبر الشخصيات في البلد ، وتوجيه الاتهامات الخطيرة إلى الجميع دون توافر الأدلة .

إنهم ينحون جانبًا مقاييسهم ومعاييرهم وتقاليدهم الحزبية ويندفعون وراء الهواة من المبتدئين في العمل السياسي .

ويخلط هؤلاء الأعضاء بين موقف حزب مسئول يدقق في كل كلمة يقولها وبين أفراد لا يوجد حزب يحاسبهم ، وربما تكون لديهم حسابات أخرى تختلف عن حسابات حزب سياسي له تاريخه وتراثه وبرنامجه وهيئاته القيادية . وأمثال هؤلاء أصبحوا يكرهون المعارضة الرصينة المدروسة والمسئولة ويعتبرونها مسايرة للحكام !

وهنا تتردد مقوله بطريقة ببغاوية :

أن صحيفة الحزب «خرجت على خط الحزب» أو «لا تمثل خط الحزب» .

وإذا خطر لك أن تسأل أصحاب هذه المقولة :

كيف حدث هذا؟ وأين هو الخروج ؟ وما هو خط الحزب في الموضوع الفلاني ؟ فإنك لن تسمع إجابة شافية ، ويتحول خط الحزب إلى لوغاريتمات غامضة تستعصي على الفهم والشرح .

وفي هذه الأحوال ، يتجاهل - مرة أخرى - أصحاب هذه الانتقادات أن رئيس تحرير الصحيفة الحزبية وكبار أعضاء هيئة تحريرها من الأعضاء في أعلى هيئات الحزب القيادية ، وأنهم يعرفون جيدًا خط الحزب ، بل إنهم يبادرون - عند وقوع أحداث هامة وخطيرة - يوم صدور الجريدة ، ويتخذون موقفًا دون انتظار قرارات الهيئات القيادية (التي لم يسعفها الوقت لتجتمع لتحليل هذه الأحداث وتحديد موقف منها) وينشرون هذا الموقف .. على مسئوليتهم .

أين الإدارة الصحفية ؟

والملاحظ أيضًا أن علاقات الزمالة داخل الحزب تتدهور بسبب المواقف

العدائية من بعض الأعضاء تجاه الصحيفة الحزبية .

ثمة نظرة خاطئة تصور لبعض أعضاء الحزب أن رئيس تحرير الصحيفة وهيئة تحريرها «يشتغلون عندهم» وواجبهم أن يصدعوا لأوامرهم وطلباتهم !

ويؤدي ذلك - إلى جانب المشكلات والمصاعب الأخرى التي سبق ذكرها - إلى تدهور مكانة الصحافة الحزبية في أجواء المنافسة الحادة الجارية .

ولم تتعلم الجهة الإدارية في الصحف الحزبية أنها في خدمة الصحيفة ، وإنما تتصرف على أساس أنها في خدمة الحزب . وقد يحدث تداخل بين ميزانية الصحيفة والميزانية الحزبية لصالح الأخيرة . وقد تتلقى الصحيفة الحزبية تبرعات ثم يجري تحويلها إلى أغراض حزبية .. توضع في مقام الأولويات . ولا يوجد في الصحيفة الحزبية ما يمكن أن نطلق عليه «الإدارة الصحفية» .

وكاتب هذه السطور يرى أن الصحافة الحزبية يجب أن تكون الأرقى بالمقارنة بالصحف الخاصة ، لأن الذي يحكم الصحيفة الحزبية «جماعة» - وليس مجرد أفراد - لها برنامجها السياسي ، الاقتصادي ، الاجتماعي ، الثقافي الذي تلتزم به . أما الأفراد فإنه لا يوجد ما يلتزمون به . وقد تخضع توجهات الصحيفة الخاصة لأفكار أو نزوات صاحب رأس المال . ومع ذلك فإن الصحف الخاصة تثري المناخ السياسي .

الاهتمام بتطوير الصحافة الحزبية أمر ضروري ونافع للمجتمع .

الشرط الأول للنجاح

ولا يمكن تحقيق هذا التطوير دون مساندة إجماعية من أعضاء الحزب وقراء الصحيفة الحزبية معًا ، وفي ضوء اقتناع كامل بأهمية دور الصحيفة وقدرتها على التعبئة والتأثير في الرأي العام وفي صناعة القرار . والمطلوب في هذه الحالة أن يصبح

كل أعضاء الحزب ممثلين لصحيفتهم ينقلون إليها كل الأخبار .. ونبض الرأي العام وهمومه ، وأن يصبحوا موزعين للصحيفة.

كان المفكر والفيلسوف الفرنسي جان بول سارتر يقف بنفسه في شارع سان ميشيل في الحي اللاتيني في باريس ويوزع صحيفة «ليبراسيون» .

والشرط الأول لخروج الصحافة الحزبية من أزمتها وممارستها لدورها بنجاح هو تحقيق هامش واسع من الاستقلالية لصحيفة الحزب ، حتى تستطيع الصحيفة أن تراعي الاعتبارات المهنية ويتوافر لها المناخ لابتداع أفكار جديدة في المنافسة ، وخاصة أن مئات القنوات التليفزيونية إلى جانب شبكة الإنترنت (علاوة على ما ذكرناه حول تكاثر الصحف والمجلات بإعداد كبيرة) قد دخلت ، منذ فترة غير قصيرة ، إلى ميدان المنافسة للصحف الحزبية .

الصحيفة الحزبية في حاجة لأن تكون لها شخصيتها واستقلالها ، كما أن هذه الاستقلالية ستخدم الحزب وخطه السياسي أكثر بكثير لأنها ستضع في اعتبارها المهارات المهنية والجودة وستحرر محرريها من مراعاة المجاملات الحزبية على حساب الأداء المهني . والاستقلالية ضرورية حتى لا تنعكس أي خلافات أو صراعات داخل الحزب على صفحات الجريدة .

ولسنا في حاجة إلى القول بأنه لا ديمقراطية ولا تعددية في أي دولة ما لم توجد فيها ـ مع الأحزاب السياسية ـ صحافة حزبية نشطة وفاعلة ومؤثرة ومزدهرة .

■ ■ ■

* كيف يتم التستر على سياسة رسمية تقضي بقتل الوطنين الفلسطينين؟



نهاية خرافة .. «حرية الصحافة» في إسرائيل

انتهت خرافة كانت تسمى «حرية الصحافة في إسرائيل» وجاءت هذه النهاية وسط فضيحة مدوية أثارت استنكار الصحفيين في أنحاء العالم .

فقد تأكد أن الصحفي الإسرائيلي الذي يكشف التعليمات السرية التي تصدر لجنود جيش الاحتلال بالقتل العمد للمناضلين الوطنين الفلسطينيين بدلاً من تنفيذ المهمة الرسمية المعلنة ، وهي القبض عليهم في بيوتهم ... ، هذا الصحفي الإسرائيلي يفعل ذلك وينشر الوثائق التي تثبت أن أعلى سلطة عسكرية إسرائيلية تمارس جرائم القتل ، يتعرض للاتهام بالخيانة والتجسس «وتهديد أمن الدولة الإسرائيلية» .

قد فوجئ الإسرائيليون بأن الصحفية الإسرائيلية «عنات كام» (٢٣ سنة) مفروض عليها الإقامة الجبرية منذ شهر ديسمبر ٢٠٠٨ تمهيدًا لتقديمها للمحاكمة هذه الأيام بتهمة تسريب وثائق عسكرية سياسية تحتوي على تعليمات بإطلاق النار على الفلسطينيين بغرض القتل .. وأن هذا الخبر معروف في خارج إسرائيل وتتداوله

الصحف الأجنبية ، ومحظور نشره أو إذاعته أو بثه داخل إسرائيل بسبب أوامر بحظر النشر في جميع الصحف ووسائل الإعلام الإسرائيلية.

ولم ترفع السلطات الإسرائيلية أوامر الحظر إلا مؤخرًا ، ولكن في نطاق محدود وبشكل جزئي.

وكانت «كنات كام» قد بدأت حياتها العملية بالعمل في صحيفة أسبوعية محلية في القدس بينما لا تزال طالبة في المدرسة العليا . ووالدها عسكري سابق في الجيش وأصيب بجراح عندما كان جندي مظلات احتياطي في عام ١٩٦٨ .



وكانت عنات كام تقضي فترة التجنيد العسكري الإجباري في الفترة التي ينسب إليها خلالها ارتكاب العمل الذي يقودها إلى المحكمة الآن . فقد عملت في الفترة من ٢٠٠٥-٢٠٠٧ في مكتب الجنرال «يائير نافيه» ، القائد الأعلى في الضفة الغربية .

وتتهمها السلطات العسكرية الإسرائيلية بأنها قامت بتخزين ٢٠٠٠ وثيقة عسكرية «سرية» ، و«سرية للغاية» على «ديسكات» في جهاز الكومبيوتر الخاص بها ، وأنها قامت بتسليمها إلى الصحفي الإسرائيلي «أوري بلاو» الذي يعمل بصحيفة «هاآرتس» ، وأن هذا الأخير استخدم بعض هذه الوثائق في سلسلة من التحقيقات والموضوعات التي بدأ نشرها في نوفمبر ٢٠٠٨ .

وقد اشتهر الصحفي «أوري بلاو» بموضوعاته الانتقادية للمؤسسة العسكرية الإسرائيلية وفضحه لانتهاكات العسكريين لأوامر المحكمة الإسرائيلية العليا المتعلقة بقواعد الاشتباك بين الجيش والفلسطينيين . وفي أحد تلك الموضوعات

استخدم «أوري بلاو» وثائق لكي يبرهن على أن جنودًا إسرائيليين يعترفون بأنهم تلقوا الأوامر بقتل ثلاثة مناضلين فلسطينيين ، وليس القبض عليهم . هناك - إذن - أوامر رسمية شكلية معلنة بالاعتقال .. وأوامر فعلية بالقتل .

وتواجه «عنات كام» عقوبة السجن لمدة ١٤ سنة إذا تقرر إدانتها .

ويقول رجال النيابة العسكرية الإسرائيلية : أن «المتهمة» تصرفت «بدوافع أيديولوجية وبهدف الإضرار بأمن الدولة!» . وربما كانت هذه الإشارة إلى «الدوافع الأيديولوجية» هي السبب في تصريح أدلى به محامي «المتهمة» - إيتان ليهمان - ليؤكد أن عنات كام ليست مرتبطة بجماعة سياسية متطرفة وأنها فتاة إسرائيلية عادية .

وربما خشي المحامي أن يقول أن الاحتمال الأكبر هو أن ضمير الفتاة قد استيقظ ، وهي تقرأ في الوثائق أوامر صريحة بالقتل بدم بارد أو ما نسميه الإعدام بلا محاكمة مما دفعها إلى تسريب هذه الوثائق للصحافة .

وكما هي العادة في إسرائيل .. فإنه بدلاً من محاكمة أولئك القادة العسكريين الذين تعمدوا انتهاك القواعد التي فرضتها المحكمة العليا في بلادهم .. فإن من كشفوا هذا الانتهاك وفضحوه هم الذين يُقدمون للمحاكمة!

ليس هذا فحسب .. بل إن «ميكائيل بن - أري» عضو الكنيست عن حزب «الاتحاد القومي» - الشريك في الائتلاف الحاكم - يطالب بإغلاق صحيفة «هاآرتس» باسم «الأمن القومي!» ويطالب عضو آخر في الكنيست من وصفهم بـ«الوطنيين الإسرائيليين» بإلغاء اشتراكاتهم في الصحيفة! أما النائب «دافيد روتيم» عضو «حزب إسرائيل بيتنا» - الذي يتزعمه العنصري الفاشي أفيجدور ليبرمان وزير الخارجية - فإنه يطالب بإسقاط الجنسية عن «عنات كام» وكل من «تورط معها في هذه القضية!!» .

أعضاء آخرون في الكنيست أدانوا صحيفة «هاآرتس» باعتبارها «معادية للسامية» (!!) .

إنها أجواء تشبه تلك التي كانت سائدة في ألمانيا النازية الهتلرية . وما يتردد في إسرائيل الآن أن هذه التسريبات للصحافة عن الوثائق هي «مؤامرة من اليسار الأيديولوجي لتسليم إسرائيل إلى العرب!!» .

وقد أثار قرار الدولة الإسرائيلية بحظر نشر خبر تحديد إقامة عنات كام طوال حوالي أربعة أشهر .. عاصفة من الجدل حول حرية الصحافة وحول حقيقة «الديمقراطية» في إسرائيل .

تقول «داليا مورنر» ، رئيسة مجلس الصحافة ، والقاضية السابقة في المحكمة العليا الإسرائيلية، أن أوامر حظر النشر تشكل اعتداء على حرية الصحافة .

ونشرت صحيفة «معاريف» الإسرائيلية العناوين التالية في سخرية لاذعة : «بسبب أوامر تكميم الأفواه لا نستطيع أن نقول لكم ما نعرفه . وبسبب الكسل واللامبالاة وإيماننا الأعمى بالمؤسسة العسكرية ، فإننا لا نعرف شيئًا على الإطلاق! ».

وحول الذريعة التي تستخدمها السلطات الإسرائيلية لاتخاذ إجراءات ضد الصحافة والصحفيين وحرية النشر ، وهي «أمن دولة إسرائيل» ، فإن الحقيقة أن ما تريد الدولة الإسرائيلية فرضه هو حماية الاحتلال وحماية حرية ارتكاب جرائم القتل للفلسطينيين .

وهناك تساؤلات حول ما إذا كانت صحيفة «هاآرتس» نفسها هي أحد أهداف الحملة الهيستيرية الجارية في إسرائيل نظرًا لنشرها مقالات انتقادية للسياسة الحكومية الإسرائيلية .. وكان آخرها مقال تعلن فيه الصحيفة: أن الرقابة على النشر في إسرائيل تشبه الرقابة المفروضة في إيران . وهناك علامة استفهام كبرى حول

القضية برمتها ، لأن ما نشرته هاآرتس حول هذا الموضوع سبق أن وافقت عليه الرقابة!

أما عن الصحفي «أوري بلاو» الذي تصادف وجوده في الخارج مع بدء هذه الحملة ضد الصحافة في إسرائيل ، فقد أقسم وزير العدل الإسرائيلي بأن يستخدم «كل الوسائل الممكنة» لإعادته إلى إسرائيل (ربما يقصد عن طريق اختطافه) لمواجهة التهم الموجهة إليه واستجوابات «الشين بيت» ـ جهاز المخابرات الإسرائيلي ، التي أعلنت أن أوري بلاو يجب أن يخضع للتحقيق .

وقد وجه هذا الصحفي رسالة ـ من لندن ـ إلى صحيفته نشرتها أول أمس وجاء فيها :

«تلقيت مكالمة تليفونية تبلغني أنه تم اقتحام شقتي في تل أبيب ، وأنه ليس من الواضح ما الذي أخذوه من الشقة .. وقيل لي: أنه يبدو أنهم يبحثون عن شيء ما . وعلمت قبل ذلك أنهم ألقوا القبض على عنات كام . وعندما سافرت في جولة صحفية ، لم أكن أعرف أنني سأضطر للبقاء في لندن وأنني لن أستطيع العودة إلى تل أبيب كصحفي وكإنسان حر لمجرد أنني نشرت مادة صحفية لا ترضي عنها المؤسسة . غير أن الأنباء المزعجة التي وصلتني من إسرائيل لم تترك لي خيارًا آخر . وها هي التجارب التي قرأت عنها في روايات الإثارة وقد أصبحت واقعًا أعيشه .. وعندما تعرف أن تليفونك وبريدك الإلكتروني وجهاز الكمبيوتر الخاص بك.. مراقب لوقت طويل ، وما زال تحت المراقبة ، وأنك مطلوب للمثول أمام سلطات التحقيق ، فسوف يتضح لك أنك أصبحت مستهدفًا من قوى أكبر وأقوى منك .. ولذلك عندما علمت أنني إذا عدت إلى إسرائيل فإنهم يمكن أن يخرسونني إلى الأبد ، وأنني يمكن أن أتعرض للاتهام بارتكاب جريمة التجسس .. قررت أن

أقاتل . إنني صحفي وهدفي هو تزويد القارئ بأكبر قدر من المعلومات وبأفضل طريقة وبأكبر قسط من الموضوعية . إنها ليست أجندة شخصية أو قضية يمين أو يسار .. وفي سنوات عملي لم يكن من الممكن نشر أي موضوع عن شخصيات عامة أو مؤسسات من أي نوع دون مساعدة مصادر ووثائق تتصل بهذا الموضوع أو ذاك ، بما في ذلك موضوع انتهاك الجيش الإسرائيلي لتعليمات محكمة العدل العليا حول الاغتيالات المخططة (ضد الفلسطينيين) ، مرفق بوثائق أصلية تفضح دناءة عمليات الإعدام بلا محاكمة » .

وفي خاتمة هذه الرسالة ـ الوثيقة التي تشرح كل شيء ولا تحتاج إلى تعليق ، يكتب أوري بلاو قائلاً :

«ربما لم يكن من المستحب دائمًا قراءة التقارير والتحقيقات التي نشرتها نظرًا لمضمونها . ولكن هذا لا يهم .. لأن عمل الصحفي ليس جلب السرور إلى قارئه أو إلى قلب صاحب العمل الذي يستخدمه أو الزعماء ، ولكن أن يقدم للناس أفضل الأدوات التي تساعدهم على الحكم على الأمور ، وفهم ما يجري حولهم . وكل صحفي يعرف أن ما ينشره .. لا يمكن نشره بدون دليل . ولكن المشكلة الآن أن أي صحفي في إسرائيل أصبح يدرك أن مثل هذه الموضوعات التي ينشرها يمكن أن تؤدي إلى اعتباره عدوًا للدولة ويجد نفسه في السجن! » .

■ ■ ■

* الحذاء البغدادي .. كان له تأثيره داخل الولايات المتحدة الأمريكية .



دعوة لتغيير سلوك الصحفيين الأمريكيين

لم يكن العراقيون أو العرب فقط هم الذين أدركوا مغزى إلقاء «فردتي» حذاء الصحفي العراقي منتظر الزيدي على الرئيس الأمريكي السابق بوش خلال مؤتمر صحفي في بغداد فقد عكف باحثون ومحللون وكتاب أمريكيون على تحليل الواقعة باهتمام .

ولاحظ «جاكوب هورنبرجر» ، مؤسس ورئيس مؤسسة «مستقبل الحرية»[1] أنه في هذه المرة لم ينطق أي شخص في الولايات المتحدة والعالم بتعليق مفاده أن الصحفي العراقي ألقى بحذائه على بوش لأنه يكره «الحرية والقيم الأمريكية» . وكان هذا هو رد الفعل الفوري التقليدي الذي يصدر من أمثال بوش ونائبه ديك تشيني وغيرهما من المسؤولين الأمريكيين ، ويكررون هذا الزعم إلى ما لا نهاية وإلى حد يثير التقزز والغثيان بعد اعتداءات ١١ سبتمبر عام ٢٠٠١ ، فقد حاولوا الإيهام بأن هناك من يكرهون أمريكا بسبب ما تتمتع به من «حرية وقيم» (رغم أن بوش آزال آثار كل الحريات والقيم) وليس بسبب الجرائم التي يرتكبها

■ ■ ■

(1) مؤسسة أمريكية .

المسؤولونْ ضد الشعوب العربية لسنوات عديدة .

تعبير بليغ

ويقول الباحث الأمريكي «هور نبيرجر» أن منتظر الزيدي لخص ، في حركة معبرة وبليغة ، غضبه المكتوم وسخطه الكامن في أعماقه .. عندما أطلق «فردة» حذائه الثانية وهو يقول : «إليك .. هذه من الأرامل واليتامى والذين ماتوا في العراق» .

إنها ، في رأي الباحث الأمريكي ، عبارة توجز الموقف كله ببراعة . وصرخة من القبور تصدر من ضحايا بوش .

يقول المعلق الأمريكي «جاستين ريموندو»: أن قصف بوش بالحذاء البغدادي هو خطوة صغيرة للغاية ردًا على جرائم الرئيس الأمريكي السابق ضد الشعب العراقي ، كما أن الصحفي منتظر الزيدي تحول إلى بطل شعبي في نظر الملايين من الناس وليس العراقيين والعرب فقط .

ويضيف المعلق الأمريكي أنه عن طريق استخدام الحذاء .. تولى الزيدي تلخيص وتكثيف مشاعر العالم كله تجاه الرئيس الثالث والأربعين للولايات المتحدة ، بما في ذلك مشاعر الأمريكيين أيضًا .

أين الزهور والرياحين؟

ويعيد المعلق الأمريكي إلى الأذهان السخافات التي رددها مسؤولون أمريكيون قبيل الغزو الأمريكي للعراق حول توقعهم أن يستقبل العراقيون .. الغزاة بالزهور والرياحين لأن بوش قام ، مشكورًا «بتحريرهم!» .

حذاء الزيدي هو أروع رد على هذه السخافات .. بل إن هذا الحذاء ـ في رأي

المعلق الأمريكي ـ أنهى تلك الخرافة السخيفة إلى الأبد .

ويرد نفس المعلق على ما تحدث به البعض من المسؤولين في بغداد وواشنطن عن وقوع «عدوان على الرئيس » ، فيقول : إن العدوان الحقيقي هو الذي شنه رئيس أقوى دولة على الأرض عندما قام بغزو واحتلال دولة لم تهاجم الولايات المتحدة قط ولم تشكل أي تهديد لأراضيها أو مصالحها المشروعة .

ويقول الكاتب الأمريكي «ديف ليندورف» ، مؤلف كتاب «مبررات إقالة رئيس» ، في مقال بعنوان : «بطل عصرنا» ، أن ما فعله منتظر الزيدي كان ينبغي أن يفعله ـ منذ أعوام مضت ـ الصحفيون الأمريكيون الذين يحضرون المؤتمرات الصحفية للرئيس السابق بوش .

اعترافات مجرم

ويبدو أن الكاتب الأمريكي وضع نفسه في مكان الزيدي، فهو يقول لنا: أن الصحفي العراقي جلس في المؤتمر الصحفي في بغداد يستمع إلى بوش وهو يتكلم بحماقة عن حرب شنها ضد العراق ودامت أكثر من خمس سنوات بغزوه غير الشرعي لتلك الدولة ، ومازالت هذه الحرب مستمرة ، وبوش يتحدث عن هذه الحرب بوصفها «ضرورية للأمن الأمريكي ولاستقرار العراق وللسلام العالمي!!».

من الذي يستطيع أن يتحمل سماع هذا الكلام .. بعد مصرع أكثر من مليون عراقي وإصابة وإعاقة مئات آلاف من العراقيين وتهجير أربعة ملايين عراقي وتدمير بلد بكامله وسرقة تراثه الحضاري؟

من الذي يستطيع تحمل سماع هذا الكلام .. بعد أن اعترف بوش نفسه بأن تقارير مخابراته قد ضللته بشأن «أسلحة الدمار الشامل العراقية» ، وبعد أن اعترف ـ هو نفسه ـ بأنه لا توجد علاقة بين نظام الحكم العراقي السابق و.. اعتداءات

١١ سبتمبر ٢٠٠١ في نيويورك وواشنطن .

وبدلاً من أن يتم تقديم بوش لمحكمة مجرمي الحرب .. يتوجه إلى بغداد لكي يوقع على معاهدة أمنية أمريكية ـ عراقية تكرس الاحتلال الأمريكي الدائم للعراق !

السلاح الوحيد الذي كان يملكه منتظر الزيدي .. هو حذائه الذي كاد يرقى إلى مستوى أسلحة الدمار الشامل ! وللشعوب التي تعاني من القهر والظلم والاحتلال .. الحق في أن تواجه أعدائها ومحتليها بما تيسر لها من إمكانات ووسائل .

الحذاء الغاضب

مواطن يجلس وجهًا لوجه أمام من دمر بلده بكل مؤسساتها وقتل هذا العدد الهائل من أبنائه .. ويسمعه يتحدث بكل صلافة وقحة عن «الضرورات» التي كانت تحتم العدوان والغزو والاحتلال ! إنه رئيس أمريكي مكروه في العراق وأمريكا وفي بقية أنحاء العلم ، وهو الرئيس الأقل شعبية في تاريخ الولايات المتحدة الحديث .

وللشعوب الأوروبية تقاليد في مواجهة أمثال بوش . فهي تستخدم البيض الفاسد والدهان (الطلاء) والطماطم المتعفنة أو غيرها من النفايات . ولكن منتظر الزيدي لم يجد معه سوى حذائه لمواجهة أقوى رؤساء العالم وأشدهم بطشًا .

الحذاء الغاضب يعبر عن وسيلة اعتراض سلمي في مواجهة رئيس جمع بين الحمق والغطرسة والجهل ، كما يعبر عن صيحة تحذير للرئيس الأمريكي الذي خلف بوش بأنه يوشك على التعامل مع عالم عربي محتقن يكره السياسة الأمريكية ومستعد للتعبير عن سخطه .

شهادة أمريكية

يقول الكاتب الأمريكي «ديف ليندورف» :

«أعترف بأنني ، وأنا أستمع إلى بوش وهو يكذب ، كعادته وبطريقته ، في مؤتمراته الصحفية خلال السنوات الثماني الماضية.. بأنني شعرت بأني أريد أن أضرب جهاز التليفزيون بحذائي.. » .

ويضيف الكاتب أن الزيدي استخدم ما هو مفترض أن يكون حفلاً معدًا للرئيس الأمريكي السابق ليكون مناسبة يتحدث فيها باسم البشر الذين دمر هذا الرئيس حياتهم . هؤلاء الذين يتجاهلهم الصحفيون الأمريكيون دائمًا وهم يتقافزون في مؤتمرات بوش الصحفية لكي يلفتوا انتباهه حتى يستطيعوا توجيه الأسئلة إليه .. وهي أسئلة سبق تقديمها إليه سلفًا ، وتم فحصها والتدقيق في سطورها ، علاوة على أنه تم اختيار هؤلاء الصحفيين المتملقين بدقة قبل السماح لهم بحضور المؤتمرات الصحفية الرئاسية .

درس للصحافة الأمريكية

وهنا نصل إلى أهم رد فعل لواقعة الحذاء البغدادي وتأثيرها داخل الولايات المتحدة الأمريكية نفسها . الكاتب الأمريكي «ديف ليندورف» يطالب الصحفيين الأمريكيين بتغيير أساليبهم .. يقول :

«إنني لا أقترح أن يغادر الصحفيون المؤتمرات الصحفية الرئاسية بجواربهم فقط . ذلك أنه توجد لدينا وسائل متعددة للتعبير عن مشاعرنا تجاه الأشخاص الذين نشعر بأنهم يمتهنون عقولنا ، بخلاف ضربهم بالأحذية . وعلى سبيل المثال ، فإنه سيكون تصرفًا رائعًا أن نرى بعض الصحفيين يطلقون صفير الاستهجان في وجه الرئيس عندما يكذب بوقاحة شديدة عليهم ، كما أنهم يستطيعون النهوض من مقاعدهم والخروج من قاعة المؤتمر الصحفي تاركين الرئيس .. يقف وحيدًا أمام المائدة الرئاسية » .

ويقول ليندورف :

«لقد حان الوقت لكي يكف الصحفيون عن معاملة الرؤساء .. كما لو كانوا أصحاب الجلالة الملوك . وإذا كان الرئيس السابق بوش قد أثبت شيئًا واحدًا خلال ثماني سنوات، فهو أنه رجل عادي جدًا ، بل هو أقل من العادي ، ومكتب الرئيس لا يستحق احترمًا أكثر من مكتب عمدة مدينة ديترويت » .

نصائح مهمة

وكان الكاتب الأمريكي .. يطالب الصحفيين الأمريكيين بأن يستخدموا الأسابيع القليلة الباقية من عهد بوش لتطوير علاقة جديدة مع الرئاسة الأمريكية .. علاقة ينحون فيها جانبًا كل اللياقة والاحتشام الزائف والتقاليد الجوفاء ويشرعون في التصرف مثل صيادي الأخبار ، ويوجهون الأسئلة القديمة التي لا تكف عن الصخب ، ويضحكون بقسوة عند سماع إجابات تافهة وفارغة ، ويلحون على طلب الإيضاحات والتفسيرات وعلى متابعة الأسئلة لكي تتضح الأمور إذا وجدوا أنفسهم أمام إجابات خاطفة ومقتضبة .. وينسحبون عند الضرورة .. وربما يقذفون - عَرَضًا أو أحيانًا - بحذاء في بعض المناسبات!!

ويرى الكاتب الأمريكي أن مهنة الصحافة كانت كارثة كبرى وعار مفضوح في عهد إدارة بوش وأن الولايات المتحدة لا تتحمل استمرار هذه الحالة في ظل إدارة أوباما .

وبعد أن تحولت إدارة بوش إلى نكتة على كل لسان ، فإن أمام مهنة الصحافة أن تحرر نفسها عن طريق وضع تقاليد جديدة للمؤتمرات الصحفية الرئاسية لكي تبقى وتستمر في عهد رؤساء الولايات المتحدة في السنوات القادمة .

■ ■ ■

* وسائل إعلام تكذب وتدفع الخطاب العام إلى أدنى مستوى ممكن .



إمبراطورية إعلامية

استولت شركة روبرت ميردوخ الإخبارية على شركة «داو جونز» . قيمة صفقة الشراء خمسة مليارات دولار . ومعنى ذلك أن تتوسع إمبراطورية ميردوخ الإعلامية لتشمل صحيفة «وول ستريت جورنال» وأصولاً وموجودات أخرى مما يؤدي إلى تركز وسائل الإعلام العالمية في أيدي قلة من المليارديرات والتكتلات الضخمة .

وميردوخ هو الثاني والثلاثين في قائمة مجلة «فوربس» الأمريكية التي تضم أغنى الأغنياء بين أربعمائة أمريكي .

وتقدر قيمة شركة ميردوخ بمبلغ ٢٨ مليار دولار ، وهي تسيطر على أكثر من مائة صحيفة على نطاق العالم ، منها «التايمز» اللندنية و«نيويورك بوست» ، و«شيكاغو صن تايمز» ، و«أوستريليان» ، كما أنها تملك شبكة فوكس التليفزيونية في الولايات المتحدة ، و«سكاي نيوز» في بريطانيا ، وعشرات الشركات الإعلامية والسينمائية والفضائية والترفيهية ودور نشر مجلات وكتب وإنترنت ، حيث اشترت مؤخرًا موقع «ماي سبيس» الإلكتروني على الشبكة .

توجهات ميردوخ اليمينية معروفة . ورغم أن صحيفة «وول ستريت جورنال» تعبر عن اليمين في الحزب الجمهوري الأمريكي .. إلا أنها اشتهرت بحرصها على مستوى مهني جيد وتغطية مشكلات اجتماعية في الولايات المتحدة والعالم .

ويخشى أفراد من أسرة بانكروفت ، التي كانت تسيطر على «داو جونز» منذ عام ١٩٠٢ وتملك ٦٤٪ من أصوات حملة السهم من أن يؤدي أسلوب الإثارة لدى ميردوخ إلى تدمير مصداقية الصحيفة .

ويريد ميردوخ أن تكون «وول ستريت جورنال» المنافس لصحيفة «نيويورك تايمز» في تحديد الأجندة الإخبارية اليومية لأمريكا ، وأن تصبح المصدر الأول لأخبار المال والأعمال .

قدرة المليارديرات ، من أمثال ميردوخ ، على التحكم في الأخبار تجعل من الحديث عن «حرية الصحافة في أمريكا» .. دعابة سوداء .

وعلى الصعيد العالمي ، هناك ٦ شركات تتحكم في بث الأخبار لصالح حماية ثروات وسلطات النخب ، وهي : «نيوز كورب AOL» ، و«تايم» ، و«وارنر» ، و«فياكوم» ، و«ديزني» وجنرال إليكتريك ، وبرتيلزمان .

كل جوانب توزيع الخبر تخضع لسيطرة التكتلات الإعلامية الضخمة التي تتمتع بأوثق الروابط مع المؤسسة السياسية و«تعالج» الأخبار على النحو الذي يضمن زيادة الثروات والنفوذ والسلطات للقلة .

والنتيجة .. وسائل إعلام تكذب على الناس وتسعى لدفع الخطاب العام إلى أدنى مستوى ممكن .

■ ■ ■







الفصل الثالث

ماذا حدث للصحافة في مصر؟



* عندما يطالب صحفي بضربنا بيد من حديد!

صحفي في ثوب جنرال فاشي

كيف نفسر شعور كاتب مقال في صحيفة قومية يعبر عن سخطه العارم إزاء غضب المصريين الجماعي وضيق بقية الصحف ووسائل الإعلام من الموقف الرسمي بشأن التصدي لمذبحة الأسرى من الجنود المصريين في سيناء بعد انتهاء حرب ١٩٧٦؟

كاتب المقال يقول في وصف رد الفعل المصري الجماعي أنها «الضجة المفتعلة المثارة حول واقعة بعض الأسرى المصريين في حرب ١٩٦٧!» . ويضيف ـ وهو يعرب عن الأسف الشديد ـ أن هذه الضجة ليست سوى «محاولات رخيصة لإعاقة دور مصر في عملية السلام وجرها إلى معارك جانبية تتهم فيها بالخصومة والعداء ، وليست وسيطًا يسعى لتحقيق السلام والاستقرار في المنطقة !!» .

.. بل إن كاتب المقال اعتبر أن الذين يثيرون قضية الأسرى يعبرون عن «نعرات الوطنية الزائفة» ويستخدمون «لغة الشجب والإدانة والتهديد والوعيد!» .

■ ■ ■

لقد ترك كاتب المقال موضوع المذبحة لكي يوجه هجومه إلى الذين تحدثوا عنها (!) ولكي يطعن في وطنيتهم!

ورغم أنه يعترف في مقاله بأنه سبق إثارة هذه القضية من قبل ، إلا أنه لم يشرح لنا السبب في أن هذه القضية «التي أثيرت من قبل» لم تجد حلاً حتى الآن .. يرد الحقوق لأصحابها .

وما زال كاتب المقال يعدنا بـ«القنوات القانونية للحصول على حق هؤلاء الشهداء» .

حسنًا .. لقد انتظرنا القنوات القانونية لسنوات طويلة منذ أثيرت هذه القضية في السابق .. ولم يحدث أي شيء . ولم نعرف شيئًا عن نتائج مساعيها .

أكثر من ذلك .. أن كاتب المقال - ورغم أن القضية أثيرت من قبل - يطرح تحفظًا هامًا وهو .. «.. إذا ثبتت بالفعل صحة الاتهامات!!» . ولا أعرف متى تثبت صحة الاتهامات .. بعد أن تطوع إسرائيليون بتقديم أدلة الاتهام في شهادات صريحة وفيلم وربما في لحظة صحوة ضمير يطرحون فيها أسئلة حول ما إذا كان قتل أسرى مصريين غير مسلحين ، بعد انتهاء الحرب ، له ما يبرره .

والملاحظ أن كاتب المقال يتحفظ في كل مرة يرد فيها ذكر المذبحة لتذكيرنا بأن الوقائع قد لا تكون صحيحة ، لعل الإحساس يتسرب إلى القارئ بأن المذبحة .. ربما لم تحدث أصلاً (!) ورغم أن عادة البعض من الصحفيين في بلادنا هي تطبيق قاعدة أن المتهم مذنب إلى أن تثبت براءته (كما حدث حتى في حالة الإعلامية المعروفة هالة سرحان) . غير أنه في حالة إسرائيل ومجرمي الحرب ظهر أن المتهم قد يكون بريئًا رغم ثبوت إدانته! والوقائع لا تزال من وجهة نظر البعض «تمثل اتهامات حتى الآن (!) .

***

أغرب الأشياء أننا نعرف من كاتب المقال أن المستفيد من إثارة «تلك القضية»

هي ... إسرائيل!! لماذا؟ لأنه : «لماذا تثار هذه القضية الآن بالتحديد؟!» . هذا هو السؤال المطروح من جانب كاتب المقال، فهو يرى أن هناك شيئًا ما أو دوافع خفية معينة وراء قيام إسرائيل بإذاعة الشريط التليفزيوني وكل الأخبار التي تناولتها الصحف الإسرائيلية حول تلك الجريمة! .

الدوافع التي يذكرها كاتب المقال تبدو أقرب إلى الدعابات السوداء أو الهزل في موضع الجد . فإسرائيل تثير هذه القضية الآن ـ في رأيه ـ لأن هناك ما يؤرقها، وهو «الجهود الحثيثة التي تقوم بها مصر «لحماية الأمن في منطقة الخليج»، ومساعي مصر المستمرة «لإزالة الهاجس الذي يقلق دول المنطقة بسبب تنامي الدور الإيراني!!» ليس هذا فقط .. وإنما حرصت إسرائيل على تفجير قضية مذبحة الأسرى «لعرقلة جهود مصر لإعادة مسارات التفاوض مع الجانب السوري .. ووساطة مصر لحل المشكلة الفلسطينية .. وتحقيق الوفاق بين السلطة الفلسطينية وحكومة حماس، وتقريب وجهات نظر الفرقاء في لبنان، ومساعي مصر المستمرة للحفاظ على وحدة وسيادة العراق !!!».

***

وأعترف أنني لم أكن على يقين مما إذا كان كاتب المقال يسخر من الحكومة أم يعني ما يقول، فالمساعي الحثيثة وكل الجهود والوساطات، التي يتحدث عنها، لم تسفر عن شيء ولن تحقق أي شيء، لأن واشنطن هي صاحبة القرار في أمور المنطقة الآن .

ونحن لم نستطع منع أمريكا من غزو واحتلال العراق ومن اتخاذ قرار بأن تشن إسرائيل حربًا على لبنان . ولم نستطع تحريك القضية الفلسطينية خطوة واحدة إلى الأمام منذ سنوات طويلة .

ومع ذلك فإن الغضب المصري والعربي بسبب مذبحة الأسرى يعبر، في رأيه، عن «محاولات لإعادة عقارب الساعة إلى الوراء» و«النيل من إنجازات مصر!!».

ولم نعرف كيف يؤدي ظهور وقائع محددة وقاطعة حول مذبحة الأسرى إلى «النيل من إنجازات مصر؟» هل يقصد أنه إذا غضبت مصر الرسمية ـ كما غضب الشعب والأمة العربية كلها ـ فإن ذلك سيثير الضيق لدى إسرائيل وأمريكا، مما يؤدي إلى عدم ممارسة مصر لأدوارها المذكورة في المقال المشار إليه وإلى نسف «إنجازاتها ؟!» .

***

كاتب المقال يذهب إلى أبعد من ذلك ويصل إلى دائرة اللامعقول .

فالغضب الشعبي المصري سوف .. يحرمنا من «تجربة ثرية في مجال الإصلاح السياسي والاقتصادي والاجتماعي» ، ومن «آفاق جديدة من التطور والتحديث ورفع مستوى المعيشة والتعامل بقوة وندية مع كافة التحديات التي تتزايد مع أي زيادة لدور مصر الإقليمي والدولي !!» .

وهكذا !

كاتب المقال يفتح لنا أبواب الجنة إذا لم نتهور ونعلن الغضب على المذبحة! ولكننا ظللنا صامتين ـ بلا غضب ـ لسنوات طويلة ، ولم تظهر في الأفق بشائر هذه الجنة! .

ولم يوجه كاتب المقال مطلبًا واحدًا إلى الحكومة ، لسبب بسيط : أنه يحدثنا باعتباره ، هو نفسه ، الحكومة! ولم يطلب شيئًا من المجتمع الدولي بطبيعة الحال ، لأنه لا ينتظر منه أن يفعل شيئًا ، وكفى الله المؤمنين شر القتال . كل ما يعنيه أن تخفت الأصوات الغاضبة حتى لا تزعج عمليات «الإصلاح السياسي والاقتصادي والاجتماعي» (الجارية على قدم وساق فيما يبدو) وتعوق رفع مستوى المعيشة (ليس هناك رفعًا لمستوى المعيشة أروع من ذلك!) .

ونستنتج من ذلك كله : أن صحوة الضمير لدى أفراد من الإسرائيليين وذكر بعض الحقائق .. ليس سوى مؤامرة على الدور المصري الإقليمي والدولي !!

وكان ينبغي على هؤلاء أن يلتزموا الصمت حتى لا يعكروا صفو عملية السلام الجارية، وأمن منطقة الخليج، وحل المشكلة الفلسطينية والوفاق في كل من فلسطين ولبنان!!

***

إذن .. فقضية الأسرى - في نظر كاتب المقال - ليست سوى «معارك جانبية» (!) ولم يلحظ كاتب المقال في غضب المصريين سوى أنه نتاج «محاولات إثارة الرأي العام بمعلومات خاطئة ومغرضة ومدسوسة من بعض القوى الخارجية التي لا تريد لمصر وشعبها خيرًا !!».

الكشف عن وقائع تهمنا، لأنها تمس مواطنين مصريين ليس سوى «معلومات خاطئة ومغرضة ومدسوسة» (!!) و«محاولات مستميتة لجر مصر إلى مسارات أخرى غير تلك التي تفرضها مصالحنا الوطنية!».

ولأول مرة، نعلم أن إزاحة الستار عن تفاصيل مذبحة لجنود مصريين عزل .. تتعارض مع مصالحنا الوطنية» (!!) وتدفعنا إلى «مسارات أخرى» غير مرغوب فيها!

ولكن، يا سيدي إذا كانت إسرائيل، كما تقول، تعرف مسبقًا أن المجتمع الدولي وكل المنظمات الدولية لن توجه لها أصابع اتهام بسهولة ويسر، وإذا كانت الهيئات الدولية والمنظمات المنوط بها حماية حقوق الإنسان «في حالة الضعف والوهن» .. فلماذا لا تترك لنا الشيء الوحيد الذي نملكه .. وهو الغضب؟ ولماذا لا تقترح علينا سبيلاً لكي نتخطى هذا «الضعف والوهن» بدلاً من الاستسلام لهذه الحالة؟

ولماذا يكون رد الفعل المصري التلقائي الغاضب مجرد «انطلاق حناجر واشتعال صهيل ميكروفونات؟».

المعنى الخطير الذي يظهر بوضوح من خلال سطور كاتب المقال هو أن إثارة

المشاكل مع إسرائيل حول قضية الأسرى سيجعل مصر في موقف من لا يستطيع ممارسة دوره حيث أن ممارسة هذا الدور (الذي لا يحقق أي نتائج حتى الآن) مرهونة بوجود علاقات طيبة مع الدولة الإسرائيلية .

ولا يجد كاتب المقال وسيلة لمواجهة هذا الغضب سوى «الضرب بيد من حديد على كل من تسول له نفسه أو فكره المريض أن مصر .. الشموخ والإرادة والكبرياء .. ، يمكن أن ينال منها أحد !!» .

هنا يرتدي كاتب المقال ثوب الجنرال الفاشي متجاهلاً أن الشموخ والإرادة والكبرياء .. لا مكان لها .. إذا تغاضينا عن تحريك موضوع الأسرى وشن حملة عالمية لفضح مرتكبي المذبحة ، والمطالبة بحقوق الشهداء ومحاكمة مجرمي الحرب .

ولكن المشكلة أن جرائم الحرب والجرائم ضد الإنسانية لم تحرك لدى الصحفي كاتب المقال سوى شهوة «الضرب بيد من حديد» على الغاضبين الذين يعتبرون أن هناك تراخيًا في الدفاع عن حقوق الشهداء ، وتجاسروا على إعلان غضبهم.

هل تذكرون حكاية الدبة التي قتلت صاحبها؟!

إن كاتب المقال .. من حيث تصور أنه يدافع عن الحكومة .. أساء أخطر إساءة إلى الحكومة ، وخاصة أنه ينصب نفسه محاميًا عنها بل يتبرع بتهديد من ينتقدونها بالضرب بيد من حديد ، وهو ما لم تفعله الحكومة نفسها .

تلك هي «عينة» من الصحفيين المتحدثين باسم الحكومة في العقد الأول من القرن الحادي والعشرين!

ولو كنت مكان الحكومة لأصدرت بيانًا عاجلاً .. أنفي فيه مسئوليتي عن هذا المقال، وخاصة أن هناك - من القراء - من يعتبر كاتب هذا المقال متحدثًا باسم الحكومة!

ماذا حدث للصحافة في مصر ؟

(فوجئ المصريون بما يشبه الحملة الإعلانية التي تستهدف تخديرهم وخداعهم وتضليلهم وتزوير الحقائق وترويج الأكاذيب لصالح متهم في جريمة قتل (على غير العادة الجارية وهي التسرع في توجيه الاتهامات في حالات أخرى) .

سقوط إعلامي

أين القدوة للأجيال الجديدة؟

حاول البعض إيهامنا بأن القبض على رجل أعمال متهم في جناية ، يؤدي إلى تهديد فرص الاستثمار في مصر ويعرض البورصة وأسهمها للانهيار ! وبدلاً من المطالبة بالكشف عن المصادر الحقيقية لثروات الفاسدين ... وجدنا أننا مطالبون بتجديد احترامنا لأشخاصهم ولمبادئهم الفردية ، وبأن نرعى القطاع الخاص ، ونقر ونعترف بأن إنتاج السلع والخدمات ليس مسؤولية الحكومات ، وإنما يجب أن يكون مسؤولية هذا القطاع الخاص الذي هو - في رأيهم - قاطرة التنمية .

وتطوع البعض بتفسير جرائم القتل على أنها مجرد جرائم « عاطفية » تعبر عن « جنون وقتي » ! وتسرع البعض الآخر بإعلان أن الرجل المتهم بتنفيذ جريمة قتل .. ما هو إلا شخص موتور لمجرد أنه اتهم رجل أعماله بتحريضه على ارتكاب الجريمة .

■ ■ ■

وقال كاتب هذا الكلام ، متقمصًا شخصية محامي الدفاع : إن القتيلة لها علاقات متعددة .. وهناك عشرات القضايا المتبادلة بينها وبين العديد من الأشخاص .

ونقلت بعض الصحف لقطات حزينة من داخل السجن حيث يحرص رجل الأعمال المتهم على الصيام وأداء صلاة الفجر والعشاء والتراويح ، وإنه أصيب (يا عيني !) بحالة نفسية سيئة واكتئاب شديد ! وطلب منا البعض أن نشعر بالامتنان نحو الحكومة لمجرد أنها تقدم متهما للمحاكمة !

أما ذروة السقط الإعلامي ، فقد ظهرت في برنامج قناة تليفزيونية خاصة تركت للمتهم إياه مساحة زمنية لكي يلقي علينا المواعظ الدينية والأخلاقية (!) حول كيفية ممارسة طاعة الله بحيث يبدو الرجل نموذجًا في النقاء والورع والتقوى ! قال المتهم أثناء البرنامج ، « مخاطبًا المذيع : حنصلي ركعتين وبعدين نكمل » . وينتقل مقدم البرنامج مع المتهم المتعبد الصالح إلى مسجد لأداء الصلاة ليشهر إيمانه !

هل تذكرون كيف سبق تخصيص حلقة كاملة من برنامج في تليفزيون الدولة للدفاع عن ممدوح إسماعيل ، صاحب عبّارة الموت .. وكيف خصص مساحة من برنامجين ، خلال يوم واحد ، للدفاع عن رجل أعمال متهم بالتحريض على ارتكاب جريمة قتل ؟

ترى ماذا يريد هؤلاء منا أن نفعل ؟ هل نوجه الشكر إلى الذين امتلكوا الثروات الحرام والسلطة والنفوذ وأنفقوا الملايين على العشيقات ، وربما توصلوا إلى إمكانية استخدام الجريمة - كأسلوب مفضل - في عالم « البيزنس » والصفقات - واحتكار النساء ؟

كان المتهم - إياه - يملأ الدنيا والشاشات والصحف وقاعات ومنابر الحزب الحاكم بصوره ومشاريعه .

والواضح أنه ما زال يمارس نشاطه !

***

احتفال بالجريمة !

ومع اقتناعي بعدم التدخل في أحكام القضاء أو المساس بقاعدة أن المتهم بريء حتى تثبت إدانته .. إلا أنني شعرت بالدهشة من الطريقة التي استقبلت بها صحيفة حكومية أسبوعية حكم محكمة النقض في قضية تتعلق بجريمة قتل .. فقد أفردت صفحتين كاملتين للإعلان عن ترحيبها الحار بالحكم تحت عناوين ضخمة مع صورة مكبرة للمتهم . وأفاضت الصحيفة في نشر التصريحات عن « اللحظات التي لا تنسى » في سجن مزرعة طرة ، وامتزاج الفرحة بالدموع ، وصلاة المتهم ركعتي شكر ، وكيف أن هذا الحكم خطوة لإنقاذ الرجل من «التهمة الملفقة » ، فهو إنسان « مسالم يعرف الله ولا يتورع أبدًا عن الدفاع عن الحق » .. و« لم يكن يفكر في أي شيء سوى الاقتصاد والاستثمار » ورعاية « الغلابة » ! كما أنه « شخص محترم .. وطيب ويحب الخير » ، .. و « رجل له ثقله في الاقتصاد المصري » !

أما عن الإسكندرية فقد عمتها الفرحة ، وارتفعت فيها دعوات آلاف الفقراء ! وهناك من لم يشعر بالسعادة الحقيقية إلا عندما احتضنه المتهم داخل السجن بحب ورفعه من على الأرض كنوع من المزاح !

ومن رسالة المتهم إلى رئيس التحرير .. نعرف أن الرجل « يقتدي برسول الله » ، وكم توجه إلى الله سبحانه وتعالى « يدعوه ويناجيه » ، وكيف وفقه الله لكي يختم القرآن الكريم أكثر من مرة . ويؤكد المتهم في رسالته أن من وقفوا إلى جانبه ، مثل رئيس التحرير ، « أصبح لهم دين في عنقه سيحاول أن يرده لهم عندما يسترد حريته » ، وسيكون شكره عمليًا ، بالمزيد من « مشروعات الخير » المشتركة مع جريدته !

في السابق ، كانت الصحافة تقدم لقرائها - وخاصة من الشباب - نماذج أخرى يقتدي بها .. مثل أبطال الكفاح الوطني (عمر مكرم - عرابي - مصطفى كامل - عبد الله

النديم ـ سعد زغلول ـ محمد فريد) أو قادة التنوير من أمثال محمد عبده وطه حسين .

أما الآن ، فإن هناك من يقدم رجلاً متهمًا بالتحريض على ارتكاب جريمة قتل لسيدة ظل ينفق عليها الملايين من أجل المتعة قبل أن تهجره ، وقرر القضاء إعادة محاكمته من جديد .

ورئيس التحرير المذكور لا ينتظر نتيجة المحاكمة وإنما يفخر بأنه يعتز بشخص المتهم ويؤكد إيمانه ببراءته، ولم يقل لنا .. على أي أساس يستند إيمانه هذا ، وهو ليس من رجال التحقيق ، ولا يستطيع أن يدّعي أنه يرقى إلى مستوى براءة وكفاءة جهاز شرطة شهد له العالم.

ورئيس التحرير يتعامل مع المتهم باعتباره ما زال من أقطاب الحزب الحاكم .

ولم يتحمس رئيس التحرير ، بهذا القدر ويفرد مساحة بمناسبة ثورة ١٩١٩ أو ذكرى سعد زغلول أو مصطفى النحاس أو عبد المنعم رياض وغيرهم ممن كرسوا حياتهم من أجل مصر ونضالها الوطني حتى يساهم في إحياء الذاكرة الوطنية .

والعزاء لكل من صدرت ضدهم أحكام من المصريين على مر التاريخ ، في قضايا سياسية أمام محاكم عسكرية لا يوجد فيها نقض أو إبرام . والعزاء لكل من صدرت ضدهم أحكام في قضايا جنائية أو مخلة بالشرف ، ولم يكن لديهم من المال ما يكفي لتوكيل محام للدفاع عنهم .

.. أحيانا تؤدي المبالغة أو الإسراف في المغالاة إلى شعور لدى القارئ بالنفور والتقزز .

■ ■ ■

* كل أصوات العقلاء ضاعت وسط طبول مروجي الهستيريا الجماعية.

في الإعلام.. عناصر جاهلة وغوغائية .. ومدمرة

كشفت أزمة مباراة مصر والجزائر مساوئ وجود عناصر غوغائية غير مسؤولة تلعب دور التوجيه الإعلامي في كل من مصر والجزائر . وهذه العناصر تقدم برامج تحتوي على الكثير من السموم والأضاليل ، وتفتقر إلى أدنى مستويات الوعي السياسي ، وتروج لحمّى التعصب وتحرض على الكراهية ، وتحدوها رغبة رخيصة في تملق ومداهنة ومسايرة أكثر الاتجاهات تخلفًا وسوقية وابتذالاً. إنه الجهل المدمر الذي يعوق تقدم الأمم ويجهض مكاسبها .

ولوحظ ، طوال فترة الشحن والتهييج والإثارة للجماهير في كل من البلدين ، أن القضية لم تعد قضية مباراة رياضية ، وإنما اتسعت لتشمل التاريخ الحضاري والسياسي وكل ما يتعلق بالعادات والتقاليد والأخلاق في البلدين .

وكان التدني مروعًا.. والسقوط هائلاً في الجانب الجزائري فقد استخدم جزائريون مواقع على الإنترنت واليوتيوب والفيس بوك وبعض الصحف الصفراء ، مثل جريدتي «الشروق» وجريدة «الهدف» الجزائريتين لتوجيه شتائم وإهانات لشعب مصر وتاريخه . وعرضوا

مقاطع من أفلام أجنبية مشهورة تم دبلجتها بحيث تروي قصة تسيء إلى المنتخب الوطني المصري . ولم يعد الأمر يقتصر على التاريخ الرياضي ، وإنما المستوى السياسي أيضًا . وهناك من الجزائريين من وضعوا رؤوس ممثلات مصريات على أجسام لاعبي المنتخب المصري(!) وهناك من وضعوا الأغاني على موسيقى «الراب» ليتحدثوا عن بلادهم باعتبارها بلاد الشهداء وكعبة الثوار وأرض الأبرار وموطن شعب التضحية ، وذكروا أسماء منها طارق ابن زياد . أما عن مصر ، فهي - من وجهة نظر الدهماء من الجزائريين بلد «ليلى علوي» والفراعنة الملاعين وحسام حسن «الخنزير» والذي كان ينبغي «حشر رأسه في النار» .

ومصر - من وجهة نظر السوقة من الجزائريين هي «التي قضت عليها إسرائيل في ستة أيام وجعلتها حطامًا ، وانهزمت في ١٩٧٣ ، ولكن المصريين «موش فاهمين!!» ومصر باعت فلسطين لليهود! أما جميلة بوحريد فهي - بالنسبة لنا في مصر مجرد فيلم يعرض في دور السينما!! .. والمعز لدين الله الفاطمي هو الذي شيد مدينة القاهرة والمعز هو أبو الدعوة الشيعية (!).

وفي نفس الوقت يقول هؤلاء: أن القاهرة شيدها أجدادهم! وأن جمال عبد الناصر ذهب إليهم باكيًا بعد ١٩٦٧ (!) ومصر هي بلد الراقصة «دينا» أو بلد الراقصات عمومًا .. إلى جانب السخرية من عبارة «مصر أم الدنيا!!» .

كل هذا - وتلك مجرد عينة أو أمثلة محدودة - بسبب مباراة رياضية!!

إنها حرب على شبكة الإنترنت بين جزائريين ومصريين يجري خلالها تعطيل المواقع «المعادية» ومهاجمة مواقع البعض الآخر .. إلى جانب الحرب الإعلامية والجدل العنيف الذي تجاوز مجال الرياضة وسط ضجيج صاخب وتبادل اتهامات وشتائم ونشر شائعات لإشعال النار ، علاوة على مظاهر حدّة في السلوك في

الشوارع ووراء الميكروفونات .

ورغم تجاوزات من بعض المصريين في الرد على الشتائم الصادرة من جزائريين ، إلا أنه لابد من الإشارة إلى ردود ناضجة ومسئولة إلى حد كبير تطوع بتقديمها مصريون ، منهم الممثل الشاب أحمد مكي ، الذي رد بما يشبه الأغنية ، على موسيقى الراب أيضًا ، قال فيها :

«أرواحنا كانت فداكم . كنا معاكم وقت الثورة والنضال ، وهو موقف نابع من إيمان . كانت هناك قضية جمعت بيننا ، ولكنكم أضعتموها من زمان . ومحمد فوزي هو الذي لحن لكم نشيد بلادكم . وعد مني حاورتك يا عبيط بطّل تنطيط . دماغك محتاجه تظبيط ، وريني آخرك إيه . بتحرق علمي وتشتم أمي ، ولونك هو لوني . تأكد الأول إنك فايق مش مسطول .

«بنسأل نفسنا دايمًا ليه ما بنتقدمش؟ عشان تاريخنا بيتعاد ١٠٠ مرة وما بنتعلمش . قالها راجل حكيم زمان .. الاتحاد قوة ، وفي الفرقة ضعف . عارف ليه الغرب بقى عالم أول؟ عشان مشيوا على اللي جدودك قالوا عليه : الاتحاد قوة . الحفيد بيضيع جهد الجد . لو اتحدتم ما كانتش أمريكا دخلت العراق . أوعى تخلي العصبية والأنانية تشوه وطنك . الوطن العربي . وطني ووطنك . أنا لا أحترم كل من يساهم في زيادة المشكلة بين الشعبين عشان يزود شعبيته . أنا لا أحترمه» .

هذه الكلمات الناضجة والمسؤولة .. وجهها الفنان الشاب إلى كل فنان أو إعلامي سواء في مصر أو الجزائر . وكانت مجموعة من الصحفيين والرياضيين من مصر والجزائر قد نظمت حملة مضادة للحيلولة دون الوقيعة بين الشعبين والابتعاد عن الشحن .

... ولكن كل أصوات العقلاء ضاعت وسط طبول مروجي الهيستيريا الجماعية .

وظهر أن هناك جهازًا لإطلاق الشائعات الكاذبة لتغذية هذه الهيستيريا والادعاء بسقوط قتلى هنا أو هناك بغرض تصعيد الموقف .

والنتيجة هي تعرض مقر شركة أوراسكوم تيليكوم في الجزائر للنهب وتحطيم وسرقة أكثر من ٧٠ ألف هاتف محمول .. وخسائر مادية كبيرة . كما وقعت اعتداءات على بعض الشركات المصرية الأخرى ، مثل شركة مصر للطيران وشركة المقاولين العرب .. وفرض طوق أمني حول السفارة المصرية بالجزائر العاصمة بعد تعرضها لمحاولة اقتحام . وسمعنا أن الوضع في الجزائر لم يعد يسمح بتواجد المصريين هناك .

واعترف مصدر أمني جزائري بأن شائعة وصول سبع جثث لجزائريين من القاهرة «أطلقتها عناصر خفية تريد ضرب العلاقات الجزائرية المصرية» . وانتهت مباراة الخرطوم بمشاحنات وشتائم وإهانات موجهة من جزائريين إلى مشجعين مصريين كانوا في طريق العودة إلى القاهرة .

***

ماذا عن العناصر غير المسؤولة في مصر؟

حرصوا على التحريض على إلقاء الطوب على سيارة المنتخب الجزائري في الطريق من المطار إلى الفندق ، وتفرغوا لشحن المصريين لخوض معركة «المصير» أو «الحياة أو الموت» مع الجزائريين أو ما أسموه «اقتحام الجزائر» ورفعوا شعار : «إما النصر الكامل على الجزائر أو الموت الزؤام!» . وأرادوا بعد انتهاء مباراة الخرطوم أن يستكملوا مسيرتهم الحربية بالإعلان عن سياسة جديدة من إحدى القنوات الفضائية لا مكان فيها للعرب والعروبة والقومية العربية (!) إلى جانب نداءات

مسمومة من نوع :

١ - أن الإسرائيليين ما كانوا ليفعلوا معنا كما فعل الجزائريون!! (أعظم دعاية لإسرائيل لم تكن تحلم هي نفسها .. بها) .

٢ - لو كنت في الخرطوم لقتلت بنفسي من تصل إليه يدي من هؤلاء الجزائريين!! (دعوة صريحة لسفك الدماء) .

٣ - إن السودان وقف مع الجزائريين ضد المصريين (وهكذا فتح الجنرالات الإعلاميون جبهة حربية جديدة مع السودان!!) . وتصوروا : هذه السموم تذاع وتنطلق من قناة فضائية خاصة وبلسان مصريين!

كما لو كان هناك تنسيق منظم بين ما يرتكبه بعض الجزائريين (الذين لا يمثلون الشعب الجزائري) من خطايا وما يرتكبه إعلاميون في بلادنا (لا يمثلون الشعب المصري) من حماقات وما يقولونه من بلاهات!

وكما لو كان العالم العربي ينبغي أن يكون أسيرًا مكبلاً بأغلال التعصب الديني أو المذهبي أو العرقي .. أو الكروي أيضًا .

لقد أطلقوا عندنا الأغاني الوطنية التي لا تذاع إلا في أوقات الحروب! وخرجت نداءات داعية إلى الاحتشاد ، وأطلقت شعارات حماسية من نوع «طول عمر ولادك يا بلدنا رجالة» . كما لو كانت خسارة مباراة تعني أنهم ليسوا «رجالة!!» . ووسط ذلك كله.. كانت تحركات قيادات في الحزب الحاكم - في كل من مصر والجزائر - واضحة .. وهادفة :

كل شيء من شأنه إبعاد الجماهير عن قضاياها الكبرى والحيوية والمعيشية وعن الإصلاح السياسي .. مطلوب .. والأفضل أن توجه الجماهير مشاعر الغضب والرفض لشعب آخر بدلاً من أن توجهها للحكام في أي من البلدين!

وعلى سبيل التذكير فقط .. فقد بدأ تصعيد التشجيع لحمى كرة القدم بعد إلغاء الأحزاب السياسية في مصر ، وكذلك في الجزائر ، لكي تحل التعددية الكروية (النوادي) محل المنابر والتيارات والأحزاب السياسية .. والتعددية الدينية!!

والسمة الرئيسية للنشاط الرياضي هي التسامح واتساع الصدر لتقبل نتائج هذه المباراة أو تلك . ثم إن نتائج المباريات ليست نهاية المطاف . كما أن الانتصار في مباراة والهزيمة في أخرى لا تعني أن النصر أبدى والهزيمة سرمدية . فقد يخرج الفريق «المنتصر» من أول مباراة في نهائيات كأس العالم !

ولكننا نشهد حالة من التعصب الذميم والقبيح لدى جمهور في الجزائر ، وحالة من التعصب الذميم والقبيح في مصر ، وهناك من يحاول النفخ فيها الآن تحت شعار أن ذلك من مقتضيات «حب مصر!» .

وأصارح القارئ بأنني ، أحيانًا .. لا أستطيع أن أتجاوب مع أحاديث ودموع «حب مصر» التي تتكرر كثيرًا هذه الأيام . والسبب واضح هو شعوري بأنها غير صادقة ، ولا تعبر عن مشاعر حقيقية .

ذلك أن حب مصر كان يقتضي أن يتظاهر من يحبون مصر دفاعًا عن الوحدة الوطنية التي يجري باستمرار توجيه الطعنات إليها هذه الأيام ، وأن يتظاهروا ضد إهدار كرامة أي مصري يضع قدمه داخل أحد أقسام الشرطة ، وضد ممارسات التعذيب التي تفضي إلى الموت في أحيان كثيرة .

وحب مصر كان يقتضي التظاهر تضامنًا مع أسرة المواطن محمد عفيفي ، البحار المصري الذي قتله جنود سفينة أمريكية عابرة لقناة السويس ، دون أن تتوقف سفينتهم لحين انتهاء تحقيقات الجهات الأمنية . ولم يتظاهر سوى زملاء القتيل بمراكبهم الصغيرة حول السفينة الأمريكية قبيل مغادرتها المياه المصرية . وتجاهلت

الحكومة المطالبة بالقبض على من أطلقوا النار ، ورفضت مطالب عدد من أعضاء مجلس الشعب بتشكيل لجنة تقصي حقائق .

وكان حب مصر يفرض علينا جميعًا أن نتظاهر كل يوم ، بعد أن تكشفت الحقائق والوقائع حول جريمة قتل الأسرى المصريين على يد جنود إسرائيل خلال حربين متتاليين ، وأن نتظاهر احتجاجًا على قيام جنود إسرائيليين بقتل جنود مصريين في منطقة الحدود في رفح .

فالوطنية وحب مصر لا يقتصران على حدث واحد بعينه يتعلق بمباريات رياضية ، وإنما يشكلان جزءًا لا يتجزأ من التكوين المصري الذي يضرب بجذور عميقة في الروح المصرية ، ويتصديان لكل ما يمس الوطن والمواطن من اعتداءات أو إهانات أو تجاوزات .

والوطنية وحب مصر ليسا مجرد مشاعر عابرة تثور أحيانًا وتتوارى وتنطفئ في أحيان أخرى .

والوطنية وحب مصر لا يعنيان إلقاء تبعة جرائم يرتكبها أفراد متهوسون أو منحرفون أو مأجورون على مجتمع بأكمله .

والوطنية لا تعني نفي العقلانية وإلغاء ثقافة المعرفة وحقوق الإنسان والديمقراطية ، وإنما تعني التمسك بكل ما يحتويه تراث الأمة من قيم أخلاقية وإنسانية وحضارية .

ولا يصح أن يكون تحديد معايير الوطنية حكرًا على عناصر لا يتجاوز معدل وعيها ونموها الفكري والسياسي .. هؤلاء الذين قيل: أنهم ارتكبوا الاعتداءات ضدنا في شوارع الخرطوم .

***

منذ سبعة عشر عامًا كتب الزميل الصحفي الراحل «حامد سليمان» في كتابه «هذا الزمان : غربة المصري ومهانته» يقول :

« تحولت مأساة المصري المعاصر في الخارج إلى ظاهرة دراماتيكية تعاظمت من خلال تصارع عدة عوامل تاريخية وسيكولوجية وسياسية واقتصادية ، واجتماعية . وبعض هذه العوامل يطفو على السطح ومفهوم للجميع ، لأنه متعلق بسكوت الحكومات وإهمال السفارات ، وبعضه يغوص في اللاشعور المصري .. لا تكاد تقف على خباياه سوى قلة نادرة ، لأنها تتعلق ببصمات الأزمنة الرديئة في وجدان الإنسان المصري خلال قرون الاستعباد الغابرة وسنوات القهر المعاصرة ، مما دفع المصري للخروج - لأول مرة - من بلده «مكسورًا» سواء على المستوى الاقتصادي أو السياسي أو النفسي حيث يتحول في الغربة إلى ضحية سهلة لجحافل الاستغلال والاستهانة ، وخاصة في الدول الشقيقة» .

ويقول الكاتب : هكذا تحول المصري إلى مواطن يصعب عليه أن يعيش «غريبًا في بلده» .. إلى «مهاجر» يتحمل ما لا يطيق من المهانة من الأشقاء العرب . والمفارقة التي تثير الألم .. أن تكون أقصى صور معاناة المصري في الخارج عندما تكون هجرته إلى بلد عربي !

أين كان هؤلاء الذين يتحدثون اليوم عن كرامة مصر والمصريين طوال سنوات المهانة التي يتحدث عنها الكاتب وينشر تفاصيل مروعة حولها ؟

منذ قرن ونحن نتحدث عن نهضة هذه الأمة وحريتها وكرامتها وتقدمها ووحدتها .. فما الذي تحقق من كل هذا؟

بدلاً من البحث عن مخرج حقيقي وتقديم الحلول .. نجد أننا عدنا إلى زمن الجاهلية حيث كانت قبيلة «عبس» بكامل أبهتها تصفق لداحس (وهو فرس

زعيمها قيس بن زهير) بينما عمائم شيوخ ذبيان يصفقون للغبراء (فرس حذيفة بن بدر) . وعلى مدى أربعين عامًا لم تتوقف الحرب التي سميت حرب داحس والغبراء!.

***

كل عاقل مصري وجزائري وبقية الأشقاء العرب مدعوون إلى التدخل وقيادة الرأي العام ، بدلاً من ترك الساحة لغير المهنيين الذين يضللون الناس ولا يكفون عن الصراخ .

ومن هنا أهمية بيان أساتذة الجامعات الجزائريين الذين يؤكدون على التلاحم مع الشعب المصري ويرفضون نشر ثقافتي الكراهية والحقد ، ويطالبون بعدم الانسياق وراء بعض الفضائيات وبمحاسبة المسؤولين عن التخريب والاعتداء .

ومن هنا أيضًا أهمية البيان المشترك للمثقفين المصريين والجزائريين الذي يعلن أن فئات متعصبة لا تمثل أبدًا جمهور وشعبي البلدين هي التي ارتكبت التجاوزات والاعتداءات .

ويتضمن البيان اعتذار الجزائريين «لأم الدنيا وشقيقة العرب الأولى .. مصر» واعتذار المصريين لبلد المليون ونصف المليون شهيد (وجه البعض لدينا إهانة لهذا التعبير) .

وأشار البيان إلى أن الصحف الجزائرية الخاصة ضحت بكل مبادئ المهنة وشرف الكلمة من أجل الكسب المادي والتربح على حساب الحقيقة وعلى حساب العلاقات بين البلدين ، .. كما يندد بالإعلام الخاص اللامسؤول في البلدين وخاصة الفضائيات المصرية الخاصة .

ويدعو البيان إلى الحفاظ على حقوق كل من لحقت بهم أضرار مادية أو شخصية

عن طريق القضاء حتى تأخذ العدالة مجراها .

إنها مبادرة شعبية لا تنتظر دعمًا رسميًا ، ودعوة إلى استمرار الشراكة الاقتصادية والإنتاجية بين البلدين والمحافظة على المصالح الوطنية والقومية العليا للدولتين ، وإلى .. التعالي على الجراح والإساءات التي فعلها بعض السفهاء والاستماع إلى صوت العقل والضمير والترفع عن الصغائر .

وقد وقع على هذا البيان أكثر من عشرين جزائريًا من أساتذة الجامعات والمديرين وغيرهم، ووقع عليه عدد ضخم من المثقفين والسفراء السابقين المصريين .. ومن دول عربية أخرى .

والبيان يصلح كبداية .. لتضميد الجراح ، وخاصة إذا شهدنا المزيد من المبادرات الشعبية .

■ ■ ■

الحاجة إلى التدريب

ما يجري داخل المؤسسات الصحفية يحتاج إلى وقفة . بعض رؤساء الصحف يقررون إحالة الكتاب الصحفيين إلى التقاعد بتهمة تقدمهم في السن ولم يعد مرغوبا فيهم ، كما لو كانت حرفة الكتابة ترتبط بسن معينة.. ورغم أن هؤلاء الكتاب لا يشغلون مناصب إدارية .

وبعض الرؤساء في المؤسسات الصحفية يحرم صحفيين أنفقوا عمرهم على المهنة من العلاج الطبي في الوقت الذي بدأ فيه احتياجهم الفعلي إلى الرعاية الطبية التي لم يكونوا في حاجة إليها طوال سنوات الشباب .

وفي بلاد العالم يجرى تكريم هؤلاء الذين تقدموا في السن وهم يكرسون حياتهم لخدمة مؤسساتهم ومهنتهم ووطنهم .. إلا عندنا حيث يتعرضون للامتهان وتمنعهم كرامتهم من الشكوى .

وكلنا نذكر القول الشائع : عندما تشيخ خيول الحكومة يضربونها بالرصاص للتخلص منها !!

ولا يقتصر الأمر على ذلك .. فهؤلاء الرؤساء يستعينون بشبان غير مدربين يقعون في أخطاء فادحة .

ولا يقع اللوم على هؤلاء الشبان ، لأنهم لم يجدوا فرصة للتدريب أو التوجيه ، إنما يجرى تشغيلهم كـ « فواعلية » .

وكاتب هذه السطور من ضحايا هؤلاء الشبان .

أجرى أحدهم حديثًا معي استغرق وقتًا طويلاً . وشعرت بالصدمة عندما قرأت الحديث بعد نشره .

لقد أضيفت عبارات لم ترد على لساني . وحُذفت منه الكثير من العبارات التي وردت على لساني !

كنت أحدثه عن مصر التي لم تعرف التفرقة بين مواطن وآخر على أساس الدين ، وكيف كان الناخب المصري يدلى بصوته للمرشح على أساس سياسي ، وليس على أساس طائفي .. وضربت مثلاً بالزعيم الوطني مكرم عبيد في دائرة قنا الانتخابية .

وفوجئت بالصحفي يضيف إلى ما ذكرته جملة من عندياته يقول فيها : إن نظام الانتخابات في ذلك الوقت كان .. بالقائمة !!

هكذا قدمني الزميل الشاب باعتباري أجهل تمامًا نظام الانتخاب قبل ٢٣ يوليو ١٩٥٢ ، وهو النظام الفردي . ولم تعرف مصر الانتخاب بالقائمة في أي يوم من الأيام قبل نهايات القرن الماضي .

الشاب متحمس ، ويحاول أن يثبت أقدامه في المهنة دون أن يجد من يوجهه في مسيرته ويساعده على إتقان الأداء وكنت على استعداد لكي أغفر له أخطاءه الأخرى .. إلا هذا الخطأ الكارثي .

* ها هو الإنسان العصري يجلس أمام الكومبيوتر ويقرأ جريدته المفضلة.. ويمكنه أن يجمع جريدة خاصة به من الموضوعات التي تهمه

الصحافة الورقية.. والإلكترونية

قد لا يلتفت الكثيرون إلى حدث هام وقع في عام ٢٠٠٨ ، ولم يجد ما يستحق من متابعة وتعليق .

ففي ٢٨ نوفمبر من ذلك العام ، أعلنت الصحيفة الأمريكية الكبرى «كريستيان ساينس مونيتور» أنها ستتوقف عن الصدور كجريدة ورقية وتكتفي بالصدور كصحيفة إلكترونية فقط ابتداء من شهر إبريل ٢٠٠٩ .

وهكذا .. بعد مائة عام .. تتخذ الصحيفة التي تأسست في عام ١٩٠٨ قرارها بالتخلي عن الورق .

ويتوقع رئيس تحرير الصحيفة «جون يما» أن كل الصحف سيكون عليها أن تفعل ما فعلته صحيفته خلال السنوات الخمس القادمة؟ ويقول : أن الانتقال إلى النشر الإلكتروني يسمح للصحيفة بالاستمرار وبإبقاء مكاتبها الثمانية في العالم مفتوحة .

كانت «كريستيان ساينس مونيتور» توزع ٢٢٠ ألف نسخة عام ١٩٧٠ ، لكن توزيعها هبط في عام ٢٠٠٨ إلى ٥٣ ألف نسخة فقط ، وتدهورت عائدات إعلاناتها في الطبعة الورقية بينما ارتفعت في موقعها الإلكتروني .

هل هي بداية النهاية للصحف الورقية؟

صحف الحبر والورق التي صمدت بعد ظهور الراديو ، كما صمدت بعد ظهور التليفزيون ، وأعلنت التحدي في مواجهة كل التوقعات باندثارها .. وتجاوزت كل الصعاب والمنافسات . هل حان وقت اختفائها؟

تتساءل الكاتبة والباحثة اللبنانية «سحر بعاصيري» عن مستقبل الصحف التي تربعت طويلاً على عرش الإعلام واستمرت ـ كسلطة رابعة ـ تهز أنظمة الحكم وتقيم السياسات وتكشف الفضائح والتجاوزات وتحاسب المقصرين ، وعما إذا كان عشاق رائحة الحبر والورق سيجدون أنفسهم محرومين منها؟ ثم.. ماذا عن القراء؟ هؤلاء الأوفياء الذين صنعوا على مر السنين طقوسًا خاصة لقراءة الجريدة .. ومنهم الذي لا يبدأ نهاره إلا وهي في يديه ، وهؤلاء الذين لا يعرفون كيف يشربون قهوة الصباح إلا في صحبتها ، وهذا يشتريها قبل أن يتوجه إلى عمله ، وذلك يحملها معه إلى المقهى ليدور النقاش مع رفاقه حول ما تحمله من أخبار ومقالات .

والإنترنت هي السبب في طرح الأسئلة وفي قرار صحيفة «كريستيان ساينس مونيتور» .

فقد فتحت أفاقًا غير مسبوقة ، وبدأت تطغى على كل شيء وأصبح الخبر متاحًا ومتوافرًا في أي لحظة لمن يملك جهاز كومبيوتر واتصال بشبكة الإنترنت .. ثم جاءت كل هذه الأجهزة الصغيرة المحمولة ، من تليفونات وأجهزة قراءة إلكترونية لتضع الخبر ، بسهولة ويسر وبطريقة عملية ـ في كف اليد .

وها هو الإنسان المصري يجلس الآن أمام الكمبيوتر ، ويقرأ جريدته المفضلة وينتقل إلى صحف أخرى للمقارنة ، بل يمكنه أن يجمع جريدة خاصة به من الموضوعات التي تهمه في صحف مختلفة ويقرأها أو يطبعها أو .. حتى يحملها أو

يشحنها على تليفونه المحمول وينقلها إلى جيبه ويذهب بها أينما كان!

فماذا تفعل الصحف، التي تعمل ٢٤ ساعة لتصدر طبعتها الورقية وتنتظر القارئ ليشتريها في مواجهة منافسة «متحركة» تلحق بالقارئ حيثما ذهب وفي أي مكان؟ بل ماذا تفعل الصحف إذا انتقل سوق الإعلانات - شريان حياتها - إلى المواقع الإلكترونية؟ ولا ننسى مشكلة ارتفاع سعر الورق ومستلزمات الطباعة، مما يرهق صناعة الصحافة.

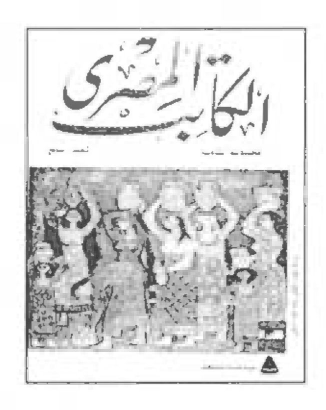
والإنترنت توفر تكاليف الحبر والورق والتوزيع ولهذا وقعت صحيفة «نيويورك تايمز» الأمريكية عقدًا مع شركة «مايكروسوفت» لتوزيع الجريدة إلكترونيًا، مما يكفل توصيل النسخة مباشرة إلى شاشة المشترك، مثلما يوصلها الموزع البشري مباشرة إلى البيت.

وتستطيع الصحف الورقية أن تطيل عمرها، لبعض الوقت، إذا جعلت من دمج التكنولوجيا الحديثة، في غرف الأخبار، جزءًا لا يتجزأ من نظام العمل، بمعنى أن يكون موقع الصحيفة على الإنترنت في حالة تأهب لإضافة آخر الأخبار وتحديثها طول الوقت .. وربطها بمعلومات وتحليلات تلقي ضوءًا على خلفيات هذه الأخبار، وبمقالات تتصل بالموضوع، وترافقها صور وأشرطة فيديو، كما تفتح الصحيفة الرأي، وتتيح الفرصة لمناقشة مستخدمي الإنترنت مع الكتاب حول القضايا الهامة، الأمر الذي من شأنه أن يؤدي إلى تحويل المواقع الإلكترونية للصحف إلى مؤسسات إعلامية تتكامل فيها هذه الصحف مع طباعتها الإلكترونية، وتمهد للانتقال السلس من النشر الورقي إلى النشر الإلكتروني عندما يحين الوقت.

هل هذا يعني موت الصحف ؟

على الإطلاق وإنني أتفق مع الباحثة «سحر بعاصيري» في أن علينا أن نميز بين الورق وبين الصحيفة. ذلك أن ما يتلاشى هو الورق، ولكن الصحيفة مستمرة كل ما في الأمر أنها تتغير .. وتحتفظ بموقعها ودورها في شكل جديد.

لا يمكن الحديث عن ثقافتنا العربية المعاصرة دون الرجوع الى مجلة «الكاتب المصري».



صحافة العمالقة

صدر العدد الأول من مجلة «الكاتب المصري» في أكتوبر عام ١٩٤٥ ، وصدر العدد الأخير في مايو ١٩٤٨ أعداد المجلة الاثنين والثلاثين ، وما تحتويه من أعمال نقدية وأدبية تمثل طفرة في تاريخنا الثقافي خرجت بها من دائرة الماضي والعزلة ، وساهمت بها في تهيئة التربة لكل التجديدات والتطلعات .

كانت مجلة شهرية للآداب والفنون والعلوم والفكر والتاريخ والسياسة الدولية والتعليم والاجتماع والجغرافيا والتراث والعمارة والقانون والقضايا العامة ، ويرأس تحريرها الدكتور طه حسين .

وحسنًا فعل الكاتب نبيل فرج بإصداره كتاب «مجلة الكاتب المصري» الذي يستعرض فيه مواد الأعداد التي صدرت منها ويقدم فيه تقييمًا عميقًا لدورها ورسالتها ، باعتبارها جزء من ثروتنا القومية وعلامة فارقة في الثقافة المصرية ، نظرًا للمستوى الرفيع الذي بلغته ، ولقوة الدفع الثقافي الذي حققته .. وحسنًا فعلت الهيئة المصرية العامة للكتاب بنشرها لهذا العمل الهام .

جاء في افتتاحية العدد الأول للكاتب المصري (ويبدو أن كاتبها هو طه حسين) :

«المفكر الحق أو الأديب الحق لا يستطيع أن يكون حالمًا من أولئك الحالمين الذين يصدمون الواقع، ويتهربون - في فترة النضال الأكبر التي نعيش فيها - من واجب الدفاع عن الثقافة المهددة والحرية المثخنة بالجراح» .

يقول نبيل فرج - بحق - أن الكاتب المصري كانت تختار من التراث العربي ومن ثقافة العصر أفضل ما فيه، في ضوء قضايا وحاجات الوطن .

وينقل عن الكاتب اللبناني الكبير كريم مروة قوله : أنه لا يمكن الحديث عن ثقافتنا العربية المعاصرة دون الرجوع إلى مجلة «الكاتب المصري» .

كتب في المجلة عدد من كبار المفكرين والفلاسفة والأدباء العالميين من أمثال «جان بول سارتر» ، والكاتب الفرنسي - الجزائري الأصل - «البير كامي» .

قدمت المجلة قصة «زديج» أو «القضاء» لعملاق فرنسا .. فولتير من ترجمة وتقديم طه حسين، وكتابًا عن جريمة ضرب المدينة اليابانية «هيروشيما» بقنبلة ذرية أمريكية، وملفًا عن شاعر العربية الأكبر «المتنبي» ، والشاعر الأسباني «سرفانتيز» .

واختارت المجلة شعار الكاتب المصري القديم المصنوع من الحجر الجيري الملون بالأحمر الداكن لكي تضعه على غلافها، تعبيرًا عن عراقة الأمة المصرية، أصل الحضارة الإنسانية وأم الحضارات الأوروبية القديمة وحضارة العصر الوسيط وعصر النهضة . ويذكرنا نبيل فرج بأن الهيئة المصرية العامة للكتاب أعادت طبع المجموعة الكاملة لمجلة «الكاتب المصري» في ثمانية مجلدات.. حفظًا لذاكرة الأمة ولرصيدها الفكري الثمين .

ترأس طه حسين تحرير المجلة في وقت إقصائه من جميع مناصبه ومصادرة كتابه «المعذبون في الأرض» .. فكانت المجلة سلاحه في المقاومة وجعل منها منبرًا

للمعرفة العلمية والمعلومات المضيئة وللاحتكام إلى العقل والدعوة إلى الحرية والعدالة وحقوق الإنسان .

كانت مجلة طموحة ، وصاحبة رسالة وخطة وبرنامج .

«جاء في افتتاحية العدد الأول أن المجلة ستأخذ نفسها بقانونين لن تحيد عنهما مهما تكن الظروف ، أحدهما : الشدة على نفسه وعلى كتابها وقرائها فيما تنشر وما تنقل من الفصول ، فلن تقدم إلى قرائها إلا هذا الأدب الذي ينفق صاحبه في إنتاجه الجهد العنيف والوقت الطويل ، وينفق قارئه في إشاعته من الوقت والجهد مثل ما ينفق منتجه .. فلن يعرِّض الأدب العربي لخطر التفاهة والابتذال شيء مثل هذا الإنتاج السريع وهذا الاستهلاك السريع ، فالأدب فن يحتاج كغيره من الفنون الرفيعة إلى أناة الكاتب وتأنقه واحتفاله ، وإلى تمهل القارئ وتأمله وتدبره . ولابد من أن تأخذ الأجيال العربية المعاصرة نفسها بالأناة في الإنتاج الفني وفي الاستهلاك الفني أيضًا . والقانون الثاني هو الحرية الواسعة الكاملة السمحة فيما تنشر وفيما تختار من آثار القدماء والمحدثين ، ومن آثار الشرقيين والغربيين ، لا تنظر في ذلك إلا إلى الفن الخالص وإلى قيم الثقافة العليا وما يحقق التعارف والتواصل بين الذين يمثلون هذه الثقافة من رجال الأدب والعلم والفن .. » .

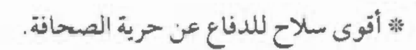
ما زال هذا البرنامج يصلح لأيامنا هذه .

وما زال هذا المنبر الرائد يخاطب الجيل الحالي .

وما زال شبابنا في حاجة ملحة إلى التعلم من عمالقة الأجيال السابقة .

ومن هنا قيمة كتاب مجلة «الكاتب المصري» . وهي قيمة باقية ، مثلها مثل أعداد المجلة نفسها .

■ ■ ■


* أقوى سلاح للدفاع عن حرية الصحافة.



وحدة الجماعة الصحفية .. ضرورة عاجلة

في شهر مايو عام ٢٠٠٦ رحبت نقابة الصحفيين المصريين بالنداء الذي أطلقه أديبنا العالمي نجيب محفوظ قبل رحيله، بمناسبة اليوم العالمي للصحافة، والذي طالب فيه بالإفراج عن جميع الصحفيين والمعتقلين في العالم العربي في قضايا الرأي، وكذلك بإسقاط جميع الأحكام الصادرة ضد الصحفيين في قضايا النشر. وأصدرت النقابة بيانًا تؤكد فيه على أن في تفعيل مواثيق الشرف الصحفي والالتزام بالتقاليد المهنية ما يدرأ عن الصحافة شبهة ممارسة حرية غير مسئولة وما يحول دون الانزلاق للتهجم والشتائم.

وفي ١٩ يوليو عام ٢٠٠٦ أصدر مجلس نقابة الصحفيين بيانًا يؤكد فيه أن وحدة الجماعة الصحفية هي أقوى سلاح للدفاع عن حرية الصحافة، ويدعو الزملاء إلى التمسك بلغة الخطاب اللائق بين الصحف والصحفيين ترسيخًا لمبدأ الحوار الديمقراطي الراقي، ولإعلاء مبادئ ميثاق الشرف الصحفي تأكيدًا على أن حرية الصحافة ليست نقيضًا لمسؤوليتها تجاه المجتمع.

■ ■ ■

وأوضح البيان أن المجلس قرر عقد أول اجتماع للجنة تفعيل ميثاق الشرف

الصحفي لدراسة إنشاء جهاز لمتابعة اتساق ما ينشر بالصحف مع لائحة آداب المهنة وإحالة المخالفات إلى اللجنة لاتخاذ ما تراه وفقًا لقانون النقابة . وأكد المجلس تصميمه على تطبيق ميثاق الشرف الصحفي «بكل حزم» في مواجهة أي انتهاكات بنفس القدر الذي يحرص فيه على صون كرامة الصحفي والدفاع عن حرية الصحافة .

وفي تقديري أن هذه البيانات والمواقف للنقابة هي كل ما تطالب الجماعة الصحفية بتطبيقه. كما أن هذه البيانات والمواقف هي ما يمكن أن يجمع عليه الصحفيون ويكون الأساس لوحدة الجماعة الصحفية ، حيث أن هذه الوحدة هي «أقوى سلاح للدفاع عن حرية الصحافة » وإلغاء العقوبات السالبة لحرية النشر .

أما الانقسامات في الوسط الصحفي ، فإنها تهدد بإهدار كل المكاسب التي حققها الصحفيون خلال السنوات الماضية ، وأعتقد أن تشكيل لجنة دائمة من شيوخ الصحفيين وحكمائهم يمثل فيها عدد من رجال القانون وأحد أعضاء المجلس الأعلى للصحافة ، وتجتمع مرة واحدة أسبوعيًا على الأقل ، وتكون مفوضة من مجلس النقابة بصلاحيات محددة .. يمكن أن يكون خطوة عملية في الاتجاه الصحيح لمناقشة أية تجاوزات وردعها طبقً لقانون النقابة من أجل حماية المهنة وتحقيق المسؤولية الاجتماعية للصحافة ، ولكي يحاسب الصحفيون أنفسهم بدلاً من أن تتدخل جهات أخرى لمحاسبتهم .

■ ■ ■



صحافة ..

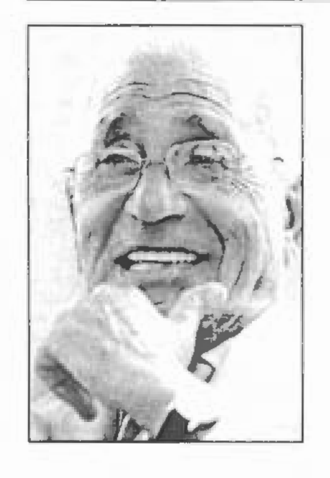
وصحفيون



الفصل الرابع

ردود على صحفي كبير





* مناقشة هادئة لسطور في رسائل هيكل إلى مبارك .

ردود على صحفي كبير
أين وحدة المعايير؟(١)

المؤكد أن الأستاذ محمد حسنين هيكل يتقن شرح أفكاره ومواقفه . والمؤكد أيضًا أنه يعرف قيمة المعلومات التي ينقب عنها ويبني عليها استنتاجه وتحليلاته .

هكذا فعل عندما تناول أول رسالة وجهها الرئيس الراحل أنور السادات إلى وزير الخارجية الأمريكي الشهير هنري كيسنجر يوم ٧ أكتوبر بعد أقل من ٢٤ ساعة على بدء العمليات العسكرية يوم ٦ أكتوبر عام ١٩٧٣ .

إنها الرسالة التي يتعهد فيها السادات بأن «القوات المصرية لن توسع جبهة القتال في سيناء ، ولن تعمل على زيادة عمقها» .

وعلى أساس هذا التعهد ، وضع كيسنجر خطته وخطة إسرائيل فيما بقي من أيام المعركة . ذلك أنه بعد أن اتضحت نية عدم تطوير الهجوم على الجبهة المصرية ، أتيح لإسرائيل الوقت لاستعادة الزمام بعد المفاجأة ، وأصبح في وسعها أن تركّز ـ وهي في حالة اطمئنان ـ على الجبهة السورية أولاً ثم تعود إلى الجبهة المصرية ثانيًا .. ، مستغلة تثبيت ميادين القتال ، دون مخاطر ، والتصرف عسكريًا بحرية على جبهاتها والوصول بالحرب في نهايتها إلى نتائج تختلف عن بداياتها .

■ ■ ■

وهي كارثة بكل المقاييس ، وقد تحدث عنها في أواخر التسعينيات من القرن الماضي المشير محمد عبد الغني الجمسي ، وندد بتلك الرسالة في حوار مع الإعلامية الكبيرة «هالة سرحان»، واستخدم أقسى الألفاظ .

والنظرة الموضوعية لأحداث التاريخ تفرض الاتفاق مع هيكل في تقييمه لعواقب وتداعيات تلك الرسالة .

« قائد » لا يصلح !

وإذا كان هيكل قد اقتنع ـ متأخرًا ـ بأنه في ظروف مصر . تكرست سلطة المؤسسة الواحدة ، بل سلطة الرجل الواحد .. فإن الموضوعية كانت تحتم عليه أن يتناول النتائج الكارثية لهذه السلطة الفردية التي ترسخت أكثر من أي وقت مضى في تاريخ مصر الحديثة بعد ٢٣ يوليو .

ففي ذات يوم كتب هيكل حول ما جرى في حرب يونيو عام ١٩٦٧ ليقول : «أعتقد أن جزءًا من مأساة ١٩٦٧ كان حبه ـ أي حب عبد الناصر ـ لعبد الحكيم عامر ، ذلك أن هذا الحب حال دون أن يقتنع ، بدرجة كافية ، بأن عبد الحكيم عامر لا يصلح للقيادة » .

وقال هيكل: أن عبد الحكيم عامر كان نصف فنان ونصف «بوهيمي» ولطيفًا جدًا ، ولكنه ـ عسكريًا ـ توقف عند رتبة الصاغ ، أي أنه يستطيع أن يقود كتيبة ، ولكنه لا يستطيع أن يقود جيشًا ... » .

ومع ذلك ، فقد كان عبد الناصر هو الذي اقترح تعيين عبد الحكيم عامر قائدًا عامًا للقوات المسلحة عام ١٩٥٣ بدلاً من اللواء محمد نجيب «رغم معرفته أنه لم يكن أصلح من يتولى هذه المسئولية ، باعتراف عبد الناصر نفسه بعد سنوات من

هذا التعيين ، كما يؤكد عبد اللطيف البغدادي في مذكراته . ولم يكن ترشيح عبد الناصر لعبد الحكيم لتولي هذا المنصب إلا لغرض سياسي حتى يضمن بذلك أن تصبح القوة السياسية إلى جانبه عن طريق مساندة الجيش له . وكان عبد الحكيم هو أصلح من يحقق له هذا الهدف بحكم الصداقة والثقة المتبادلة بينهما (مذكرات البغدادي) .

ودفعت مصر الثمن ، وكذلك كل العرب وحركات التحرر في العالم .

وكانت صدمة كبيرة لضباط الجيش أن يصدر قرار عبد الناصر بترقية عبد الحكيم عامر إلى رتبة المشير . ويعلق الكثيرون منهم ـ في وقت لاحق ـ بأن هذا القرار كان المقدمة لكارثة هزيمة يونيو ١٩٦٧ .

قضية الخلافة

وبمناسبة اهتمام الأستاذ هيكل بقضية الخلافة ، فإن عبد الناصر كان يتصور عندما عين عبد الحكيم عامر نائبًا أول له .. أنه يمكن أن يقود من بعده (أي يصبح خليفة له!) .

الأخطر من ذلك أن عبد الناصر ـ وفقًا لشهادة محمود رياض وزير الخارجية في ذلك الوقت ـ سأل عبد الحكيم عامر ، بعد كل ما حدث في حرب يونيو ، عن رأيه فيمن يتولى رئاسة الجمهورية ، فاقترح عليه عبد الحكيم اسم شمس بدران (وهو من أعوانه في الجيش وأحد المسئولين عن كارثة يونيو!) .

ويقول هيكل في كتابات سابقة : أن عبد الناصر اتصل به يوم الخميس ٨ يونيو ١٩٦٧ ليلاً وحدّثه في ما يريد أن يتضمنه الخطاب الذي سيعلن فيه أنه يتنحى عن رئاسة الجمهورية ، وكان رأيه أن يكون خليفته شمس بدران وزير الحربية!!

(والرجل ليس في حاجة إلى تعريف ويكفي أنه لأسباب عديدة يطول شرحها.. من أسباب الهزيمة!) .

ولم يكن هيكل (المحاور لعبد الناصر) مقتنعًا بشمس بدران (وأي عاقل في مصر لابد أن يكون غير مقتنع بهذا الاختيار) . واستقر رأي عبد الناصر على أن يكون خليفته هو زكريا محيي الدين .

بعد عبد الحكيم عامر وشمس بدران وزكريا محيي الدين يجئ دور أنور السادات.. نائبا للرئيس

لأن عليه .. « الدور! »

خلال سفر عبد الناصر إلى مؤتمر القمة العربي في الرباط بالمغرب في ديسمبر عام ١٩٦٩ .. يروي الأستاذ هيكل الواقعة التالية : «دعاني عبد الناصر إلى الجلوس بجانبه بعد إقلاع الطائرة ، كما كان يفعل دائمًا .. وفوجئت به يقول : هل تعرف ماذا فعلت اليوم؟ ولم أكن أعرف . وقال لي : كان أنور السادات سيمر عليّ لكي يصحبني إلى المطار ، وطلبت منه أن يجئ معه مصحفه . ولم يفهم ما عنيت بهذا الطلب . وعندما جاء .. جعلته يقسم اليمين ليكون نائبًا لرئيس الجمهورية في غيابي». وأبدى هيكل دهشته ، وسأله عن السبب الذي دعاه إلى ذلك ، فأشار عبد الناصر إلى معلومات عن مؤامرة لاغتياله أثناء وجوده في المغرب ، ثم قال : «إن الآخرين جميعًا - يقصد أعضاء مجلس قيادة الثورة - واتتهم الفرصة ليكونوا نوابًا لرئيس الجمهورية .. إلا أنور ، ولعله دوره الآن ، وعلى أية حال فهي فترة أسبوع على أرجح الأحوال » .

وبصرف النظر عن نفي مسئولين أمنيين مصريين لوجود مؤامرة على حياة

عبد الناصر في المغرب في ذلك الوقت ، إلا أن المثير للدهشة والاستغراب أن تكون هذه هي الطريقة وهذا هو الأسلوب الذي يحدد من سيكون رئيس جمهورية مصر الذي يخلف عبد الناصر في مرحلة من أدق المراحل في تاريخ مصر الحديث (بعد كارثة يونيو) . هكذا يتقرر مصير أمة!

وكنت دائمًا أشارك الدكتور فؤاد زكريا القول بأن أي مواطن مصري لابد أن يشعر بالإهانة حين يرى أن مستقبله ومستقبل بلده وأبنائه يتقرر بمثل هذا الاستخفاف . هل يصلح أن يكون حكم مصر بـ«الدور؟» .

لقد وضعه عبد الناصر على مقعد الخلافة ، ونسي أن يبعده عنه ، وهو معذور في هذا النسيان ، فقد كانت الأحداث جسامًا ، ولم يكن لديه من الوقت ما يسمح له بأن يتذكر هذا الموضوع : موضوع تعيين السادات . خليفة له في حكم مصر . لقد نسي الرئيس نائبه في مكانه إلى أن خلفه بعد موته !

تناقض في المواقف

في البداية أراد هيكل ـ في كتابه خريف الغضب ـ أن يقنعنا بأن اختيار عبد الناصر للسادات كان مجرد صدفة ، ولم يكن مقدرًا له أن يدوم أكثر من أسبوع ، وأن الاختيار يرجع فقط إلى أن السادات «عليه الدور» ، وأنه كان في ذهن عبد الناصر أن يغير قراره ، ولكنه انشغل بأعباء مسئولياته ، وأن بقاء السادات حتى موت عبد الناصر لم يكن إلا ضربة حظ جعلت الرئيس عبد الناصر «ينسى» هذا الموضوع (رغم أن هناك وقائع تتعلق بالسادات وتصرفاته كانت تكفي لتذكير عبد الناصر بقوة بموقع نائبه) .

ولكن .. إذا افترضنا صحة ذلك كله وصدقناه ، وإذا كان هذا هو ما رصده الأستاذ هيكل من وقائع .. فكيف سمع لنفسه بأن يقود الحملة الانتخابية للسادات

بحجة تفترض أن اختيار عبد الناصر له كان سليمًا وحقيقيًا وموفقًا .. وتعبيرًا عن رغبة عبد الناصر الأصلية والدائمة؟

لقد عرض علينا هيكل، عقب اغتيال السادات، في كتاب «خريف الغضب»، كمية هائلة من المعلومات التي تشين السادات إلى أبعد حد، فهو يتحدث عن انضمام السادات إلى الحرس الحديدي، الذي كان يخدم أغراض الملك وخططه الدموية لاغتيال أقوى خصومه السياسيين، والاتصال برجال القصر وتلقي رشوة مقدارها ألف جنيه «لكي يؤسس بيتًا ويشتري سيارة ويبدأ حياة جديدة»، وغيرها من التصرفات المخجلة.

كيف يشرف هيكل - الذي يملك كل هذه المعلومات - بنفسه على إدارة الحملة الانتخابية للسادات في الاستفتاء (الذي لم يعد يثق به الآن وبأساليب الاستفتاءات عمومًا) على رئاسة الجمهورية بعد رحيل عبد الناصر؟

في تلك الأيام - أيام التمهيد للاستفتاء - أصبح هيكل يعلن أن: «جمال عبد الناصر اختار السادات لهذا المنصب بنفسه حين أحس باحتمال خطر على حياته».

ثم ما معنى الدور الذي لعبه هيكل في مساعدة السادات على الإطاحة برجال عبد الناصر من قادة الحزب الحاكم (ما عرف بانقلاب ١٥ مايو ١٩٧١؟) ولماذا انحاز له؟

كل من قرأ الوقائع التي أوردها هيكل في «خريف الغضب» عن السادات وسلوكه وخطاياه ..، لابد أن يصيبه الذهول عندما يستعيد ما قاله هيكل نفسه عن السادات في عام ١٩٧١، مثلا:

كان أنور السادات في هذه الساعة الحاسمة من التاريخ هائلاً بأكبر مما يستطيع أن يتصور أو يصف أحد. كانت قراراته لمواجهة التطورات المفاجئة مزيجًا مدهشًا من

الهدوء والحسم .. تلك شهادة تاريخية لأنور السادات وشجاعته الأدبية والمادية في لحظات بالغة الصعوبة والخطر » .

ومثلا :

« لولا عناية الله مع أنور السادات .. لسقطت مصر في أعماق الظلام والخوف .. لقد تصرف بجرأة نادرة في لحظات خطر محدق! » .

وحدة المعايير

المرجو من الأستاذ هيكل أن يكون صاحب معايير لا تتغير بتغير الظروف والعهود والحكام ، وأن يطبق القواعد التي يراها صحيحة والمنطق الذي يراه سليمًا على كل المراحل ، فلا يستخدم قاعدة هنا وأخرى هناك .

وفي موضوع الخلافة ، كان عبد اللطيف البغدادي يقول: أن رأي عبد الناصر أن أسهل الحلول هو أن يعين من ينوب عنه «حسب الأقدمية الموجودة بين المجموعة (مجلس قيادة الثورة..!) .

وكان من المهم أن نعرف رأي هيكل في أفضل الوسائل للخلافة .. في عصر ليس بالتأكيد عصر «المؤسسة القوية الواحدة والسلطة الفعلية الواحدة وسلطة الرجل الواحد» . ذلك أن رسالة السادات إلى كيسنجر وطريقة خلافة عبد الناصر توضح أن هذا الأسلوب يجلب الكوارث .

أما عن حديث هيكل عن دور الطيران وعن الشرعية ، فإنه يحتاج إلى تعقيب آخر .

■ ■ ■

ردود على صحفي كبير:

* هل قدمت أمريكا نصائحها باستخدام الطيران لقمع الثوار؟

مصر .. ونصائح أمريكا(٢)

يقول الأستاذ محمد حسنين هيكل: أنه عندما شرع في وضع كتاب عن الثورة الإيرانية بعد سقوط انظام الشاهنشاهي ، .. طلب من قادة الثورة فتح الملفات والوثائق عن عصر الشاه دون قيود لكي يقرأ كل شيء قبل أن يكتب . وتمت الموافقة على طلبه . وتوجه هيكل إلى إيران ، وأخذ يقلب بين يديه ملفات القصور والوزارات في العصر الشاهنشاهي . وذات يوم ، ظهرت أمامه وثيقة من محفوظات قصر «نيافاران» الإمبراطوري .. قرأها وأعاد قراءتها مرات .

كانت الوثيقة عبارة عن مذكرات أمريكية مقدمة لشاه إيران محمد رضا بهلوي تنصحه بما يجب أن يفعله بعد القضاء على الثورة الإيرانية ، التي قادها الزعيم الوطني الدكتور محمد مصدق (الذي أثار غضب أمريكا الشديد بسبب تأميمه للبترول الإيراني) .

ويطالب الأستاذ هيكل .. الرئيس حسني مبارك بأن يقرأ هذه المذكرة الأمريكية «قراءة ربط ومقارنة» .

تتضمن المذكرة ضرورة بدء حملة مركزة لتقديم الشاه إلى شعبه باعتباره «أبًا» لهذا الشعب أو .. «كبير العائلة» ، واستعمال كل وسائل الدعاية لبناء مكانة وهيبة الشاه شخصيًا أمام كل طوائف الأمة ، وتوسيع نطاق طبقة الأغنياء التي هي أقرب بمصالحها إليه ، والاستعانة بوجوه جديدة يقدمها للحياة السياسية ويكون ولاؤها له مضمونًا أكثر من الوجوه التقليدية القديمة ، وإعطاء اهتمام كاف للمسائل الدينية ، واستعمال عبارات ودلالات دينية والظهور باعتباره حامي الدين ، والظهور كثيرًا لأداء الصلاة في المساجد ، خصوصًا في الأعياد والمناسبات ، وضرورة أن يتابع بنفسه أجهزة السيطرة كجهاز المخابرات وغيره من أجهزة الأمن الداخلي .

كلها نصائح نافعة لأي ديكتاتور أو طاغية في العالم يريد أن يضمن الإمساك بكل خيوط الحكم بين يديه ، ويسعى إلى تكوين قاعدة اجتماعية تسانده ، وتعزيز الوسائل الدعائية لنظام حكمه وتشكيل فئة اجتماعية ترتبط مصالحها المادية باستمرار حكم هذا الديكتاتور . كذلك ، فإنه مما يلفت النظر في هذه النصائح «المفيدة» الحرص على استغلال الدين في السياسة واستثمار تدين المواطنين عن طريق تقديم الحاكم لنفسه في الصورة التي تخدع العامة وبسطاء الناس ، لأنها توهمهم بأن هذا الحكم تقي وورع لا يرتكب الشرور وإنما ينفذ وصايا الدين ويناصر القيم السامية ويرعى الأخلاق ، بحيث تكون هذه «الصورة» ستارًا لارتكاب الجرائم والكبائر في حق الشعب .

إجراءات للحماية

غير أن الأستاذ هيكل يتوقف عند نصيحة محددة وهامة .. موجهة من أمريكا إلى الشاه ، وهي : أن عليه أن يولي اهتمامًا خاصًا بسلاح الطيران بالذات ، لأنه يملك ميزة محدودية الأفراد ، ولا محدودية قوة النيران ، وذلك إلى جانب إمكانياته الهائلة

في الحركة السريعة .

ويقول هيكل :

«بالسيطرة على الطيران ـ وهي أسهل من السيطرة على الجيش بأسلحته المتعددة والكبيرة والبطيئة في الوقت نفسه ـ فإن الشاه يستطيع ضرب أي تمرد ضده ، حتى إذا جاء من الجيش » .

ويقول هيكل: أن أمريكا قدمت نفس النصيحة للجنرال «ثيو» ـ التابع للولايات المتحدة ـ في فيتنام قبل انتصار الثورة الفيتنامية ، فقام بتعيين مارشال الجو «كاوكي» نائبًا له .

يصف هيكل الوثيقة بأنها «غريبة» . ويستنتج أن الشاه محمد رضا بهلوي نقل إلى الرئيس أنور السادات هذه النصائح خلال زيارته لمصر في يناير ١٩٧٥ .

وينقل هيكل عن الكاتب أنيس منصور ، في ذكرياته مع الرئيس السادات ، التي نشرها في جريدة «مايو» (عدد ٨ أكتوبر ١٩٨٢) ، قوله: أن السادات رد النصيحة إلى شاه إيران ، عندما حضر إلى مصر هاربًا ولاجئًا بعد انهيار نظام حكمه في طهران ، عقب ثورة الخوميني .

وكان أنيس منصور قد نقل عن السادات قوله بالنص :

«لقد أرسلت إلى الشاه بأن يبعث بكل سلاح الطيران إلى مصر قبل خروجه من إيران ، ولكنه لم يأخذ بوجهة نظري ، ولو فعل لتغير الموقف تمامًا ، فالذي يملك سلاح الطيران .. يملك قوة جبارة ولا يمكن أن يقهره أحد! » .

والمعنى الذي يقصده هيكل واضح ، وهو أن تعيين حسني مبارك في منصب نائب رئيس الجمهورية كان جزءًا من «مرحلة قمع» وشيكة أو «ضبط وربط» يريد

السادات أن يفتتحها وتواكب تعيين ممدوح سالم «الشرطي» في منصب رئيس الوزراء (بعد أن كان وزيرًا للداخلية) .. بمعنى أن السادات كان يتخذ الإجراءات لحماية نظام حكمه .

ولو أن استنتاجات هيكل اقتصرت على توقعاته بشأن «مرحلة القمع» أو «الضبط والربط» لكان الأمر يبدو مقنعًا ، تمامًا مثل اللقب الذي منحه السادات لنفسه ، وهو «كبير العائلة» أو «الرئيس المؤمن» تمشيًا مع النصائح الأمريكية ..

ولكن الذي يصعب الاقتناع به هو الربط بين تعيين حسني مبارك نائبًا للرئيس ، وبين منصبه كقائد للطيران ، وبين مرحلة القمع التي توقعها هيكل .

.. فهذا القمع يحتاج إلى قوات الأمن المركزي وقوات الجيش ، عند الضرورة ، وفي حالة أفلت الزمام رغم تدخل قوات الأمن ، .. أما الطيران فإنه من المستبعد تمامًا أن يكون سلاحًا للقمع إلا إذا افترضنا أن هناك انقسامًا حادًا داخل الجيش نفسه ، وهو حالة استثنائية وغير واردة بالنسبة لمصر وقت تعيين نائب للرئيس السادات . كما أنه من المستبعد أن يقصف الطيران حشودًا من المتظاهرين في الشوارع !

وربما تكون في ذهن هيكل تجربة سابقة من هذا النوع .

غير أن تلك التجربة .. حدثت في مصر ، وسبقت النصائح الأمريكية كلها ولم يذكرها هيكل في أي وقت ، وإليكم ما حدث بالفعل :

حادث فبراير ٥٤

بعد صدور قرارات ٢٦-٢٧ فبراير عام ١٩٥٤ بعودة اللواء محمد نجيب إلى رئاسة الجمهورية واستقالة مجلس قيادة الثورة وتشكيل حكومة مدنية برئاسة خالد

محي الدين وعودة الحياة النيابية خلال فترة أقصاها ستة أشهر ، وقعت تطورات معاكسة وخطيرة . فبعد ساعة واحدة من إبلاغ سلاح الفرسان وخالد محيي الدين بهذه القرارات تغير الموقف إلى النقيض .

في رئاسة الجيش ، احتشد الضباط ليوجهوا شتائمهم إلى خالد محي الدين ولكي يتهمونه بخيانة الثورة ، لأنه كان يطالب بالديمقراطية التي كانت هدفًا رئيسيًا لقوى التغيير منذ الصدام بين الحركة الوطنية المصرية وسلطة الاحتلال الإنجليزي والخديو وخلفائه من السلاطين والملوك .

وفي غرفة القائد العام ، احتشد أكثر من مائة وخمسين ضابطًا . كانوا في حالة غضب هيستيري وصراخ وبكاء .

ورغم أن البرنامج الأصلي للضباط الأحرار كان يتمسك بالديمقراطية والحياة النيابية ، إلا أن الزمن تغير وتغيرت معه المواقف وتغير الرجال . وترددت وسط هذا الحشد من الضباط صرخات تقول : «بلاش سلاح مدرعات» ـ الفرسان ـ (لأنه يقف مع الديمقراطية)! و.. «نلغي سلاح المدرعات!!» .

وأمسك عدد من الضباط بخناق خالد محي الدين .

صوت يصم الآذان

يقول خالد محي الدين في مذكراته ، التي تحمل عنوان «.. والآن أتكلم» ، الصادرة عن مركز الأهرام للترجمة والنشر ص٢٧٨ ما يلي بالنص :

«... وبينما الهرج يسود المكان .. إذا بصوت سلاح الطيران يصم آذان الجميع . كانت الساعة حوالي السادسة والنصف صبحًا . ولمحت على صبري ـ الذي شغل منصب رئيس الوزراء في الستينات من القرن الماضي ـ يطل من النافذة ويجفف

دموعه . وسمعت جمال سالم ـ عضو مجلس قيادة الثورة ـ يقول : «أيوه .. كده» ، بل ويصرخ : «قولوا لسلاح الطيران: يجهّز الصواريخ ويضرب سلاح الفرسان!!» .

ورغم أن عبد الحكيم عامر بدا كما لو لم يكن يعرف بخروج الطائرات ، إلا أنه صرخ في الجميع مطالبًا بالهدوء ، ثم قال : «أنا أعلن أمامكم إلغاء القرارات (يقصد قرارات ٢٦-٢٧ فبراير بإعادة الديمقراطية والحياة النيابية) ، وأعلن أنني المسؤول عن القوات المسلحة!!» .

ونحن نعرف أن الثورة الوطنية ، التي قادها الدكتور محمد مصدق في إيران .. كانت في عام ١٩٥٣ ، وأن الانقلاب المضاد الذي قام به شاه إيران ، بدعم من الولايات المتحدة الأمريكية (والذي أسفر عن الزج بمصدق في السجن) وقع في أغسطس عام ١٩٥٣ .

ولم يذكر لنا هيكل ما إذا كانت النصائح الأمريكية للشاه قد نقلت إليه عقب الإطاحة بالدكتور مصدق مباشرة أم بعد فترة زمنية معينة . والتاريخ الوحيد الذي ذكره هيكل هو يناير ١٩٧٥ الذي يستنتج الكاتب الكبير أنه جرى فيه نقل النصائح من الشاه إلى السادات خلال زيارته لمصر .

فإذا كانت النصائح الأمريكية قد وصلت إلى مصر في نفس السنة (بطريقة ما) يكون استخدام الطيران في أزمة ١٩٥٤ بمثابة استجابة لهذه النصيحة . غير أن هذا الاحتمال .. مستبعد ، لأن الشاه لم يكن صديقًا لمجلس قيادة الثورة في مصر . وبالتالي فإن الأرجح أن تكون النصائح الأمريكية قد وصلت إلى مصر في يناير ١٩٧٥ (وهو ما يرجحه هيكل نفسه) .

وفي هذه الحالة يكون أعضاء مجلس قيادة الثورة ، المعارضون للديمقراطية والحياة النيابية ، قد عملوا بالنصيحة الأمريكية دون أن يعرفوا أي شيء عنها .

اعتراف متأخر

ولو أن الأستاذ هيكل يتوجس من حملات القمع .. لكان اعترافه بأن التجربة الناصرية تأخرت في حل مشكلة الحرية السياسية في وطنها قد حدث مبكرًا .. وقبل موعد هذا الاعتراف بثلاثين عامًا .

كذلك جاء اعترافه بأن «سلطة قوية واحدة ، وسلطة فعلية واحدة ، هي مؤسسة وسلطة الرئاسة » تنفرد بالوجود على الساحة .. متأخرًا جدًا .. وأيضًا اعترافه بأنه في «ظروف مصر» .. تكرست «سلطة المؤسسة الواحدة ، بل سلطة الرجل الواحد» .

وهيكل يعرف من الذي أرسى قواعد وأسس هذا النظام في الحكم . وكان ينبغي عليه ـ إنصافًا للتاريخ ـ أن يقرر من المسؤول عن ذلك ، وخاصة أن المجتمع المصري لم يكن على مدى خمسة آلاف سنة .. مجرد هرم يجلس على قمته «الملك الإلة» ، كما قال :

لماذا نهدر جهود أجيال من المصريين ، ونقول: أنه «من الغريب أن كل محاولات تحدي هذا الهرم لم تنجح إلى الآن ، ولا بالثورة؟» .

.. بل نجحت ، يا سيدي ، في لحظات تاريخية متكررة في انتزاع دساتير وفرض مجالس نواب تعبر عن إرادة الشعب ، ولذلك تركزت جهود السلاطين والملوك وأتباعهم في إعلان الحرب عليها . وكانت المعركة سجالاً بين هؤلاء وبين الأمة . وعندما تحرك الجيش في يوليو ١٩٥٢ لخلع الملك فاروق ، كان الدافع الأصلي لتحركه هو إزاحة رجل يعتدي على الدستور ، ويتحدى إرادة الشعب ، ويحل البرلمانات التي يفوز فيها حزب الأغلبية ، ويتآمر على الحياة النيابية ويشكل عقبة أمام الديمقراطية ، ويتحالف مع الاحتلال . ولقي هذا التحرك كل التأييد . لم يكن هناك ما يسمى بـ«ظروف مصر» .. فهذا البلد لا يشّذ عن سائر الأمم .

كان الشعب ينتصر أحيانًا ، ويتلقى الضربات في أحيان أخرى .. إلى أن جاءت «المؤسسة الواحدة» و «السلطة الواحدة» ، و«الرجل الواحد» .

وكان هيكل أول المؤيدين والمتحمسين لها ـ وعن اقتناع ـ ؛ لأنه ليس من طراز الصحفيين «الذين تنحني هاماتهم أمام الحكام في قصورهم ، وترتفع هاماتهم أمام الحكام في قبورهم» ، كما يقول .

أما حكاية «الشرعية» ، فإنها تحتاج إلى موضوع آخر .

■ ■ ■

ردود على صحفي كبير:

* كيف تعود «كل السلطات للشعب». بعد أن إنتهى «عهد التفويض»؟

بين الشعارات .. والواقع (٣)

الآن يطالب الكاتب الكبير الأستاذ محمد حسنين هيكل بإرجاع الأمور إلى الشعب، وبأن تكون في يده كل السلطات، لأن «عهد التفويض» قد انتهى.

وهذه المطالبة تشكل - في حد ذاتها - انقلابًا في تفكير هيكل الذي لم يطرح - في أي يوم من الأيام - هذا المطلب ولم يخطر على باله أن يفعل.

ويقرر هيكل من جانبه - وهو قرار منفرد - أن الشعب منح تفويضًا لجمال عبد الناصر وأنور السادات.

وبصرف النظر عن مواقف محددة اتخذها كل من عبد الناصر والسادات لقيت تأييدًا شعبيًا، مثل خلع الملك، وتأميم الشركة العالمية لقناة السويس، أو حرب أكتوبر «بالنسبة للسادات» فإن هذا لا يعني «التفويض» الدائم والمطلق، ولا يمكن اعتبار المظاهرات أو الاستفتاءات «غير النزيهة» بمثابة تفويض.

مسألة ... مزاج!

ولذلك لا يحق لهيكل أن يقرر أن الشعب منح تفويضًا لأحد، إلا إذا كان ذلك من خلال صناديق اقتراع في انتخابات حرة ونزيهة.

وينفرد هيكل بأن يقرر بأن هناك شروطًا وضعها الشعب لمنح التفويض على أساسها؟ من أين له أن يقرر ذلك؟ ومرة أخرى يقرر هيكل أن عهد التفويض قد انتهى كما لو كان ـ هو ـ الذي يصدر قرارًا بانتهاء التفويض .. إذا كان التفويض قد وجد أصلاً (!) ثم قرار سحب التفويض !

وهناك معايير يضعها الأستاذ هيكل للتفويض، وكذلك للشرعية التي يوزعها بطريقة مسرفة على أوضاع وحالات كثيرة .

إنه ـ مرة أخرى ـ ينفرد بتحديد نوع وطبيعة القرارات «الكبرى» التي يمكن أن تستجيب لحركة التاريخ أو لمطالب تاريخية محددة واضحة في ضمير الأمة . وتجعل الحاكم يحصل على «تفويض مفتوح» أحيانًا . ومشروط في أحيان أخرى!

ويبدو أن هيكل هو المطلع على ما في ضمير الأمة، كما أنه الذي يعرف اتجاه حركة التاريخ والمطالب التاريخية المحددة في كل الأزمنة والعهود .

ثم أين موقع علم السياسة من القول بأن الشعب المصري الآن «ليس في مزاج يسمح له بإعطاء تفويض مفتوح لأحد»، وسبق أن جاء وقت ـ وقد يجيء في زمن آخر ـ كان فيه مزاج الشعب يسمح بإعطاء هذا التفويض! .

وأخشى أن يكون المزاج المقصود هو مزاج هيكل نفسه!

الإجراءات الاستثنائية

الجديد في رسائل هيكل أنه يقول ـ لأول مرة ـ ان الدولة في مصر أصدرت قوانين وأخذت إجراءات لا مثيل لها في أي نظام في العالم : فلديها من القوانين والإجراءات كل ما طلبته أسرة «محمد علي» لتثبيت دعائم حكمها، وكل ما طلب الاحتلال البريطاني لبسط سلطته، وكل ما طلبته «التجربة الحزبية» بعد ثورة ١٩١٩ ـ على حد

تعبيره! ـ سواء «لصراعاتها الداخلية» ، أو كل ما طلبه الإنجليز من هذه «التجربة» بضرورات حربين عالميتين .

هنا يتوقف هيكل ليكبح جماح نفسه ، ويضع «فرملة» على كلامه ، فقد جاء دور ثورة يوليو ١٩٥٢ .

عن هذه «النقلة» يقول : إن الثورة «أضافت إلى هذه الصلاحيات» ما وجدته «لازمًا» لما سعت إليه من تحولات سياسية واجتماعية واقتصادية .

إذن .. فكل الإجراءات الاستثنائية ـ ومنها إلغاء دستور ٢٣ ، وإلغاء الأحزاب والتعددية ، وفرض حكم مطلق أسماه هيكل نفسه ـ أخيرًا ـ في رسالة سابقة بأنه حكم «الرجل الواحد» ـ كان بسبب «تحولات سياسية واجتماعية واقتصادية!» .

ولم يجب هيكل هنا عن السؤال البريء : لماذا ؟

هل كان الشعب معاديًا لتلك التحولات؟ ألم يقرر هيكل آلاف المرات أنها لمصلحة الشعب؟ إذن ..لماذا تكون تلك الصلاحيات الاستثنائية وحملات الاعتقال وفرض الرأي الواحد والتنظيم الواحد وتكميم الأفواه .. «لازمة» ـ على حد تعبيره ـ ألم تكن التحولات متجاوبة مع حركة التاريخ؟

في بطن السلطة

ويبدو أن هيكل رأى أن التحولات ليست كافية ، كسبب لتلك «الصلاحيات» فأضاف إليها «ما اقتضته أحوال الحرب والسلام مع إسرائيل» ، ولكي تتضخم الصلاحيات إلى أقصى مدى ، يشعر هيكل بأن تلك الإجراءات اللازمة لمواجهة التطرف الديني ، والفتنة الطائفية و«ثورة الحرامية» في عهد السادات ثم مأساة اغتيال الدولة سنة ١٩٨١ «في عهد مبارك» .

وإذا كان هيكل على حق عندما يقول: أنه لم يحدث أن عهدًا من العهود ألغي ما سبقه من «صلاحيات» ، و«والأكثر دقة أن نسميها قوانين وإجراءات استثنائية مقيدة للحريات» - بل احتفظ كل منها بالقديم وأضاف إليه ... كما أن كل هذه «الصلاحيات» تراكمت وتكدست في بطن السلطة .. إذا كان كاتبنا على حق في ذلك .. إلا أنه - كالعادة - كان حريصًا على أن يقدم مبررات لهذه «الصلاحيات» في عهد عبد الناصر فقط ، رغم أن إلغاء الديمقراطية ومصادرة كل الحريات السياسية جريمة لا تغتفر في أي عهد من العهود ، والمفترض أنه أول من يعلم أن الحريات السياسية هي التي تحمي التحولات السياسية والاقتصادية والاجتماعية .

وإذا كان هيكل يعترض على رئاسة مبارك للحزب الوطني ، فهو على حق ونحن نؤيده تمامًا ، ولكن لماذا لم يعترض على رئاسة عبد الناصر للتنظيم الواحد الذي حمل أسماء مختلفة؟ ولماذا لم يعترض على رئاسة السادات للاتحاد الاشتراكي؟

مجموعة مقترحات

المهم أن هيكل انتظر حتى عام ١٩٨٢ - أي ثلاثين سنة - لكي يطالب بإعادة البناء السياسي والدستوري ، بل والإنساني لهذا الشعب .

وعندما ارتأى أن الوقت قد حان «لإرجاع الأمور إلى الشعب» .. وبأن تكون «في يده كل السلطات» .. ما هي الآلية أو خطة العمل التنفيذية لإرجاع كل الأمور إلى الشعب .

هنا .. لا نستطيع أن نكتم الدهشة .

يقترح هيكل تشكيل هيئة «خاصة» من عدد محدود من الشخصيات العامة التي يلتقي الإجماع على حكمتها ونزاهتها لتقر برامج عمل من يريدون تشكيل أحزاب

سياسية ، على أن تكون هذه المشروعات مصحوبة بتوقيعات موثقة من مائة ألف ناخب على الأقل .

وبطبيعة الحال ، فإن هذه الهيئة ستكون بالتعيين ، لأن هيكل لم يشر - على الإطلاق - إلى أنها هيئة منتخبة كذلك يقترح هيكل تشكيل لجنة «قومية» تضع مشروعًا لدستور جديد .. وبطبيعة الحال فإن هذه «اللجنة» بالتعيين .. أيضًا .

هل هذه هي طريقة وضع كل «السلطات في يد الشعب؟» وهل سيكون هناك فارق كبير بين هذه الهيئة «الخاصة» واللجنة «القومية» ، وبين الهيئات واللجان الحالية؟

ويريد هيكل من مبارك أن يتنحى عن السلطة ابتداء من شهر مارس ١٩٨٤، ثم يتقدم لترشيح نفسه من جديد على أساس الدستور الجديد لمدة رئاسة أخرى واحدة ، ويتقدم معه على نفس البطاقة رجل يختاره نائبًا للرئيس .

وهذا هو الشيء الوحيد الجديد الذي يطرحه هيكل : أن تكون الرئاسة مدة واحدة لخمس سنوات أو ست سنوات ، وفي السابق لم يبد هيكل أي تحفظات على بقاء أي رئيس في موقعه مدى الحياة .

على أنه لم يذكر كلمة واحدة عن انتخاب الرئيس من بين أكثر من مرشح مما يعني الإبقاء على النظام الرديء السابق ، وهو أن يرشح مجلس الشعب بأغلبية الثلثين شخصًا واحدًا للرئاسة ، ويطرح للاستفتاء رغم أن هيكل سبق أن انتقد نظام الاستفتاءات - لأول مرة أيضًا - ما لم تقرر اللجنة «القومية» شيئًا آخر في دستورها الجديد .

حكاية الشرعية

تتردد كلمة «الشرعية» كثيرًا في رسائل هيكل .

وأنظمة الحكم التي ساندها هيكل لا تكترث كثيرًا بالشرعية ، ولا تعترف

بالدستور .. إلا على الورق ، وفي مختلف الظروف يظهر «فلاسفة» قادرون على محاولة إقناع الناس بأنهم يعيشون في ظل شرعية من نوع جديد .

وتبدو معايير الشرعية عند هيكل غريبة نوعًا .

فقد تولى منح الشرعية للخلافة العثمانية ، ولا نعرف على أي أساس ، ويذهب إلى القول بأن الأمة العربية قبلت بهذا «النظام الشرعي»!!

طريق الانتخابات

وكان المفكر السياسي «ماكس فيبر» يؤكد أنه بدون الشرعية ، فإن أي حكم أو نظام يصعب عليه أن يملك القدرة الضرورية على إدارة الصراع بالدرجة اللازمة لأي حكم مستقر لفترة طويلة .

وكما كان الكاتب الكبير أحمد بهاء الدين يقول : فإن مجرد الوجود في السلطة ، مهما طال الزمن ، لا يجعل هذه السلطة شرعية ، فقد يكون وجودًا بحكم القوة لا بحكم الرضا ، وقد يكون اغتصابًا للسلطة ، وليس تفويضًا بها ، وأي حكم قد يتمكن من تحقيق استمرار وضع ما على طريق القوة أو العادة ، ولكن العلاقة بين الحاكم والمحكوم تظل هشة ، ومصدر ضعف للسلطة وللوطن معًا .

وفي اعتقاد كاتب هذه السطور أن القول بـ«اقتناع» الشعب «بأحقية السلطة وجدارتها» أو «القبول الشعبي» على أساس أن هذا الاقتناع والقبول يشكلان «الشرعية» ، لم يعد يتفق مع منطق العصر ؛ لأنه لا يمكن الحكم بوجود هذا «القبول» أو «الاقتناع» إلا من خلال انتخابات حرة ونزيهة .

ويقرر القانون الدولي أن الحكم يكون شرعيًا إذا انبثق من خلال مؤسسات شرعية .

الشعارات والواقع

ويقول هيكل: أن مصر خرجت - بعد ثورة يوليو - إلى المشرق، داعية وساعية إلى وحدة إرادة الأمة في إطار نظام عربي فاعل، وقد امتدت هذه الفترة من قبل حرب السويس سنة ١٩٥٦ إلى ما بعد حرب أكتوبر ١٩٧٣.

ها نحن نعاني مرة أخرى من التناقض الصارخ بين الشعارات والواقع القائم، ففي الوقت الذي أخذت فيه القوى القومية على عاتقها تحرير فلسطين، كان ما جرى هو احتلال إسرائيل لما تبقى من فلسطين بالإضافة إلى أراض عربية أخرى!

ولم تتعثر «الحقبة القومية» في سنة ١٩٧٤ فقط، كما يقول هيكل: «حين باشرت مصر انسحابها، من النظام العربي» - على حد تعبيره - فقد تعثرت مع محاولات ضرب الثورة العراقية، بسبب الإصرار على تصدير التجربة الناصرية في عام ١٩٥٨، وتعثرت بسبب الأخطاء التي ارتكبناها في الوحدة المصرية السورية، وجاءت هزيمة الخامس من يونيو ١٩٦٧ لكي تفضح ما كان خافيًا في التكوين الاجتماعي للأنظمة السياسية الحاكمة «الهشاشة والتخلف العلمي والمعرفي وعجز وفساد الأجهزة»، ولكي تعلن بداية «الحقبة الإسرائيلية» التي انقطعت مع حرب أكتوبر ١٩٧٣، لكي تستأنف عملها وتأثيرها بعد أن استمر الاحتلال الإسرائيلي لكل فلسطين والجولان السورية، فقد وجدت أمريكا أن إسرائيل أصبحت القوة العسكرية التي يمكن أن تعتمد عليها، أكثر من أي وقت مضى لتأديب خصومها في المنطقة.

■ ■ ■

ردود على صحفي كبير:

* كان هناك من يدافعون عن الاستقلال والوطن والحرية والديمقراطية.. وكان هناك أيضا من يتجاهلون إرادة الشعب ودوره.

هذا هو التاريخ (٤)

لم نسمع شيئًا يمت بصلة لمنطق رجل لعب دور المتحدث باسم ثورة ٢٣ يوليو .. فلم يكن في حديثه ما يمت بصلة إلى تاريخ الحركة الوطنية والشعبية قبل ٢٣ يوليو، وإنما كان أقرب إلى التعاطف مع الملك .

وترددت في أحاديثه كلها لغة رجال القصر والانقلابيين المناهضين للدستور وللديمقراطية .

ولم ينفعل هيكل بالحركات الشعبية المدافعة عن الدستور والمطالبة بالديمقراطية والحريات السياسية والنقابية ، ولم ينفعل بإلغاء معاهدة ٣٦ وانطلاقة الحركة الوطنية ضد الاحتلال .. وإنما اجتذبته حكايات القصور والدسائس السياسية وألاعيب الكبار وحركات قطع الشطرنج على ساحة مناورات الدهاة من الساسة وحرف النون الذي يوجد في اسمه ويغيب عن اسم الدكتور محمد حسين هيكل!

ترك جانبًا .. نضال الشعب المصري ضد الأحلاف والقواعد الأجنبية والصراع بين حزب الأغلبية والقصر ، لكي يروي لنا وقائع هامشية عن رجال كان دورهم يقتصر على اتخاذ مواقف معادية للشعب .

ووصل الأمر بهيكل إلى أن يعلن أكثر من مرة - وإن كان قد استدرك في الحديث الأخير في محاولة للتخفيف والتعديل - أن الوفد تولى الحكم - في كل مرة - بطلب من الإنجليز ! (في المرة الأخيرة قال : أن ذلك حدث في معظم الحالات!!) .

وهكذا .. لا مكان لإرادة الناخب المصري ولا دور للشعب في فرض حزب الوفد على تحالف القصر والإنجليز .. ويصبح وجود الوفد في الحكم رهنًا برغبة الإنجليز في اللجوء إلى الشرعية لحماية مصالحهم!

تشويه مؤسف

والآن .. جاء دور تشويه إضراب عمال شركة الغزل الرفيع في كفر الدوار .. فيقرر هيكل أن عناصر من أحزاب شيوعية اشتركت مع مجموعات من رجال الملك وأولهم بعض رجال إلياس أندراوس باشا (الذي كان العضو المنتدب للشركة) في هذا الإضراب!!

ها هم عمال مصر يتحولون - في نظر هيكل - إلى مجرد أداة يحركها الباشوات الرأسماليون ، ويتعاون الشيوعيون مع هؤلاء الباشوات من رجال القصر الملكي في إثارة العمال وتحريضهم على الإضراب !

والمفترض أن هيكل يعرف أن الشيوعيين والباشوات على طرفي نقيض ، وأن عمال مصر أكثر وعيًا من الوقوع في هذا الفخ أو المنزلق .. وأن الإضراب كانت له أسبابه العديدة التي تتعلق بظروف العمل في تلك الشركة والمظالم البشعة التي تعرضوا لها ، والتي يمكن أن تستغرق صفحات لشرحها .

بل إن هيكل تجاهل تمامًا أن العمال المصريين شكلوا مجموعات عمالية لحراسة المصانع من أي محاولات تخريبية لأنهم كانوا يدركون أن أعداءهم يريدون إفساد الإضراب وتشويهه لإيجاد مبرر أو ذريعة للتنكيل بهم .

ديكتاتورية صناعية!

ويتجاهل هيكل أنه في الوقت الذي كانت الحركة النقابية تستعد فيه لعقد مؤتمر لإعلان اتحادها العام ، صدر قرار من مجلس القيادة بمنع قيام اتحاد عام للعمال . وكان صاحب اقتراح منع قيام اتحاد عام للعمال هو سيد قطب «أحد قادة الإخوان» ـ وفقًا لشهادة خالد محيي الدين ـ وكان يعمل في ذلك الوقت مستشارًا لعبد المنعم أمين ، عضو مجلس القيادة الذي كان يشرف على وزارة الشئون الاجتماعية .

وكانت حجة سيد قطب أن مثل هذا الاتحاد سيكون «مناوئًا للثورة» وأن الشيوعيين سوف يسيطرون عليه ، ويتجاهل هيكل أن سيد قطب أسهم في إعداد مشروع قانون جديد لعقد العمل الفردي ، وأن عبد المنعم أمين تحمس لهذا المشروع حماسًا شديدًا رغم أنه كان مجحفًا إجحافًا شديدًا بحقوق العمال فهو يحرم الإضراب ويسمح بالفصل التعسفي . وفي مناقشة صريحة أجراها خالد محيي الدين مع عبد المنعم أمين ، قال الأخير ، بوضوح وبالحرف الواحد :

«إننا بحاجة إلى ديكتاتورية صناعية طالما أننا قررنا إقامة ديكتاتورية عسكرية ».. هذا هو عبد المنعم أمين الذي ترأس المجلس العسكري لمحاكمة زعماء العمال المضربين في كفر الدوار ، والذي أصدر حكمًا بالإعدام على العاملين خميس والبقري .

***

الإعجاب ... لمن؟

أما عن تنظيم «الحركة الديمقراطية للتحرر الوطني» «حدتو» ، الذي نال النصيب الأكبر من حملة هيكل باعتباره تنظيمًا تابعًا لليهودي هنري كورييل ، صاحب الصلات الوثيقة والواسعة ، بكل القنوات المفتوحة مع إسرائيل

والمخابرات الإسرائيلية ومؤسس تنظيم الشيوعيين الذين «لديهم مشكلة مع الوطنية» .

.. فإن القاضي أحمد فؤاد ، الذي كان مسئول تنظيم منظمة «حدتو» داخل القوات المسلحة ، هو الذي اختاره جمال عبد الناصر لكي يمنحه إعجابه ، حسب تعبير خالد محيي الدين .

ويقول خالد محيي الدين في كتابه «الآن أتكلم» :

«توثقت العلاقة بـ«حدتو» عن طريق علاقة وثيقة ومستديمة بيني أنا وعبد الناصر وبين أحمد فؤاد . وكثيرًا ما كان عبد الناصر يلتقي منفردًا بأحمد فؤاد ويجري معه مناقشات طويلة حول الموقف السياسي المحلي والدولي ، لكنه أبدًا لم يفكر في الانضمام إلى حدتو » .

إذن .. كيف كان عبد الناصر يعقد كل تلك الاجتماعات والمناقشات مع مسئول في منظمة تابعة لرجل المخابرات الإسرائيلية ؟!

بل إن هذه العلاقة هي التي جعلت منظمة «حدتو» تحتضن باهتمام مبالغ ، كل الاحتياجات الفنية للضباط الأحرار ، سواء الكتابة على الآلة الكاتبة أو الطباعة أو توزيع المنشورات .

«المفتي» .. و« المعلم !»

وكاتب هذه السطور ليس في موقف الدفاع عن «هنري كورييل» ، الذي اعتبره هيكل «مؤسس الشيوعية في مصر » ، و«مفتي اليسار» ، بل «ومعلم اليسار في مصر لسنوات طويلة» .. فقد كنت من المعارضين والمناهضين للرجل ومواقفه وخطه السياسي . ولكنني أبحث عن الاتساق في مواقف هيكل الغريبة .

ولم يزعم الشيوعيون المصريون يومًا أنهم أرادوا أن يكونوا مولدًا لنظام جديد في مصر في عام ١٩٥٢ . وكان نشاطهم - كما هو معروف - يتركز على مواصلة انتهاج خط الصدام مع المستعمرين الإنجليز ، الذي بلغ الذروة بإلغاء معاهدة ١٩٣٦ ، وبدء الكفاح المسلح ضد الاحتلال في منطقة القناة ، والحرص على كبح جماح النزوع الديكتاتوري لصالح خط ديمقراطي يعيد الحريات السياسية والنقابية للمصريين .

فالمسألة لم تكن مسألة «مولدات لنظام جديد» وإنما استكمال مهام الحركة الوطنية الديمقراطية في مصر بعد أن تحررت البلاد من النظام الملكي الذي كان يتحالف مع المستعمرين ضد الحركة الوطنية ويتآمر كل يوم على الحرية والديمقراطية ويستند إلى أحزاب الأقلية ويستخدم الإخوان ضد الوفد ، في أحيان أخرى .

***

لقاء في باريس

يروي الكاتب السياسي أحمد حمروش «من قادة ثورة يوليو ورئيس اللجنة المصرية للتضامن ومنظمة التضامن الأفرو آسيوي الآن» في كتابه «نسيج العمر» قصة لقائه مع هنري كورييل في باريس عام ١٩٥٩ .

كان كورييل قد غادر مصر قبل ثورة يوليو بعامين ، وتبرع بقصره في الزمالك «المؤسس على طراز لويس الخامس عشر ليكون مبنى للسفارة الجزائرية» .. وسمع أحمد حمروش عن دعم كورييل لثورة الجزائر وعلاقته الوثيقة مع الزعيم الجزائري أحمد بن بللا .

وعرف حمروش من كورييل كيف كانت فرنسا تريد أن تكسب في القاهرة حربًا كانت

تخسرها في الجزائر ، ولذلك دبرت العدوان الثلاثي على مصر بعد تأميم قناة السويس .

ويقول حمروش : «كان كورييل متفهمًا لطبيعة ثورة ٢٣ يوليو ، ومؤيدًا لخطها الوطني ، ومساندًا لخطوات زعيمها جمال عبد الناصر ، ولذلك حاول مع مجموعة من المصريين المقيمين بالخارج ، التحذير من أخطار أي مغامرة عدوانية ضد مصر » .

ويؤكد حمروش أن كورييل استطاع أن يحصل على خطة العدوان الثلاثي والغزو ويسلمها إلى خالد محيي الدين ، الذي كان يقيم في جنيف «بعد إبعاده عن مصر» ، والذي قام ، بدوره بإبلاغ هذه الخطة لجمال عبد الناصر .

رواية ساذجة

هنا تبدو رواية هيكل عن ولاء كورييل لفرنسا بالغة السذاجة ، وخاصة أن هناك من يؤكد أن اغتياله في ١١ مايو عام ١٩٧٨ تم بالتعاون بين المخابرات الفرنسية ومخابرات حكومة جنوب إفريقيا العنصرية .

ويقول حمروش : «تحدث كورييل معي طويلاً عن موقفه المبدئي الثابت بضرورة تحرير الأراضي العربية المحتلة - في لقاء آخر بعد عدوان يونيو ١٩٦٧ - والسعي إلى إقامة سلام بين الدول العربية وإسرائيل [وهو ما تسعى إليه جميع الحكومات العربية الآن ، دون أن ينتقدها هيكل ويتهمها بالعمالة لإسرائيل] . وأكد كورييل لحمروش أن إسرائيل ليست كتلة صماء ، وأن فيها عناصر من أنصار السلام (ربما كان ذلك صحيحًا في ذلك الوقت) ويجب استغلالهم للضغط على الحكومة الإسرائيلية إلى جانب ما تقوم به مصر من ضغط في حرب الاستنزاف «وجهة نظر» .

قرار عبد الناصر

هنا نصل إلى النقطة الحاسمة التي تجاهلها هيكل تمامًا .

يقول حمروش : «لم أكن حرًا في اتخاذ خطوات في هذا السبيل بمبادرة خاصة دون إبلاغ جمال عبد الناصر ، وعندما عدت إلى القاهرة ، وضعت صورة كاملة بكل ما سمعت أمام عبد الناصر «الذي صرح لي بالسفر إلى باريس لمواصلة الاتصال بهنري كورييل لمعرفة إبعاد هذه الاتصالات ، وما يمكن أن تثمره من نتائج » .

بل إن حمروش يضيف قائلاً : أن سامي شرف مدير مكتب جمال عبد الناصر ، أبلغه بأنه كانت هناك صلة مع كورييل عندما كان يساعد ثورة الجزائر وأن أحمد بن بللا طلب السماح له بالعودة إلى مصر ، وأن هذا الطلب كان موضع بحث .

مطلوب .. تفسير

وكلنا نعرف مدى عمق وطنية أحمد حمروش أحد رجال يوليو وموضع ثقة عبد الناصر . فإذا كان حمروش يقول لنا: أنه ذهب إلى فرنسا مرة أخرى لمقابلة هنري كورييل بعد أخذ موافقة جمال عبد الناصر .. فإن علينا أن نطلب تفسيرًا من هيكل بشأن ما قاله في قناة الجزيرة .

وإذا كان ما يصل إلى كورييل من معلومات .. تقوم المخابرات الإسرائيلية بتوصيلها مباشرة إلى لندن وباريس .. ـ كما قال هيكل ـ فكيف يقول حمروش ، الذي يتمتع بأعلى درجة من المصداقية في الدوائر الوطنية المصرية والعربية ، وبالحرف الواحد :

«كنت معه ـ مع كورييل ـ على موقف واحد فيما يختص بالقضية الفلسطينية » .

خلل وأخطاء

ثمة أخطاء ومواضع خلل فيما يقوله هيكل.. فالانقسام في المعسكر الشيوعي حدث في الستينيات وليس في مطلع الخمسينيات ، كما يقول .

وهو يعترف بأن الحركة الشيوعية المصرية كان لها قادتها المتميزون من أمثال

أبو سيف يوسف وإسماعيل صبري عبد الله وفؤاد مرسي ونبيل الهلالي .

ومع ذلك ، فقد تجاهل تمامًا ذكر أي شيء عن نشاطهم ومواقفهم في نفس تلك الفترة التي يتحدث عنها ، لكي يصور الأمر على أن «كورييل» هو كل شيء .. بينما هو يعلم ـ قبل غيره ـ أن كورييل ليس الحركة الشيوعية المصرية . كما يعلم أن هناك مواقف واضحة للشيوعيين من قضية فلسطين ، وأن كتبًا صدرت بأقلام شيوعية (منها كتاب «فلسطين بين مخالب الاستعمار» لصادق سعد) تطالب بمنع الهجرة اليهودية إلى فلسطين منعًا باتًا ومنع انتقال الأراضي العربية إلى اليهود .. وتساند الشعب الفلسطيني مساندة مطلقة .

غير أن مواقف الشيوعيين تميزت بسمة رئيسية «لم يذكر هيكل موقفه منها» وهي رفض فكرة أنها حرب دينية ضد اليهود كيهود ، والتركيز على دور الاستعمار البريطاني في تغذية وتشجيع وتحريض الحركة الصهيونية ضد العرب الفلسطينيين .

فما هو وجه اعتراض هيكل على مثل تلك المواقف؟ الطريف في الأمر أن ما يأخذه هيكل على كورييل من أفكار تجاه قضية فلسطين .. أصبح تحقيقها .. أقصى أحلام العرب الآن !!

وحتى هؤلاء الذين أيدوا قرار التقسيم «في ذلك الوقت» لا يستحقون توجيه اللعنات إليهم ، لأنهم قالوا: أنه أسوأ الحلول ولأنه ثبت أن المواقف الأخرى أدت إلى كوارث مروعة لم نستطع علاجها حتى الآن ، وأن الذين عارضوا التقسيم لم يكونوا جادين في معارضتهم ولم يتخذوا مواقف أو ينتهجوا سياسات من شأنها إحباط هذا التقسيم . بل العكس هو صحيح .

وكما هو معروف ، فإن قسمًا من اليسار المصري عارض مشروع التقسيم واعتبره في غير صالح قضية فلسطين .

ولم يكن الشيوعيون ـ ولا حتى كورييل ـ مسئولين عن هزيمة الخامس من يونيو التي جعلت من إسرائيل دولة «عظمى» في المنطقة بل أقوى دولة في الشرق الأوسط .

وبدلاً من أن يقدم هيكل كشف حساب ويبحث عن المسئولين عن أكبر كارثة في تاريخ مصر الحديث .. يهدر وقتنا في البحث عن «مولدات» وفي حكايات لا تقدم ولا تؤخر ، ولا تنطوي على أي دروس في التاريخ .

■ ■ ■

نبذة عن المؤلف

* تخرج في قسم الفلسفة بكلية الآداب ، جامعة القاهرة ، وأمضى عامين في دراسات عليا للماجستير .

* التحق بالعمل في قسم الأخبار بالإذاعة المصرية ، ولكن مباحث أمن الدولة اعترضت على استمراره في العمل هناك .

* عقب تعيينه مدرسًا للفلسفة ، وقبل أن يسجل موضوع البحث للماجستير ، تم اعتقاله لمدة خمس سنوات ، تنقل خلالها بين معتقلات القلعة والفيوم وأوردي ليمان إلى زعبل والواحات وصدر قرار جمهوري بفصله من مهنة التدريس . وأفرج عنه من السجن الحربي .

* التحق بالعمل بصحيفة «الأخبار» في نوفمبر عام ١٩٦٤ محررًا بالقسم الخارجي ثم أصبح رئيسًا للقسم ثم نائبًا لرئيس التحرير .

تولى في نفس الوقت منصب مدير تحرير مجلة «الكاتب» التي كانت تصدرها وزارة الثقافة .

* فصل من جميع أعماله في ٤ فبراير ١٩٧٣ بواسطة «لجنة النظام» بالاتحاد الاشتراكي العربي . وقال الرئيس أنور السادات ، في وقت لاحق ، أنه صاحب القرار .

* التحق بالعمل في صحيفة «الثورة» العراقية في أول أغسطس ١٩٧٣ ، وتولى تدريب مجموعة من الصحفيين الشبان .

* غادر العراق في نهاية شهر مارس عام ١٩٧٥ قبل انتهاء مدة عقد العمل بينه

وبين الصحيفة . لكي يتولى موقع مدير تحرير مجلة «البلاغ» اللبنانية . وظل في لبنان خلال فترة الذروة في الحرب الأهلية ، وتعاون في تحرير مجلة «الهدف» ، الناطقة باسم الجبهة الشعبية لتحرير فلسطين .

* عاد في سبتمبر ١٩٧٦ لكي يستأنف عمله في «الأخبار » .

* تولى رئاسة تحرير صحيفة «الأهالي» لثماني سنوات قبل أن يقدم استقالته .

* أصدر عدة كتب أهمها : «سارتر: مفكراً وانساناً» بالاشتراك مع آخرين - «امريكا والعالم» - «نوبار في مصر » - «الأكراد: الأساطير والثورات والحروب » - «فيتنام: الجريمة والمأساة» - «مقاتل من فيتنام» -«حراس الخليج» - «سكارليت» .

* سافر إلى عدة دول وقام بتغطية الحرب الفيتنامية وتغطية الحرب في نيجيريا ضد انفصال إقليم بيافرا ، وتغطية التحركات الشعبية في بولندا ، وثورة مايو عام ١٩٦٨ في باريس ، والثورة الساندينية في نيكارجوا والحرب في غينيا والثورة الثقافية في الصين ثم التطورات اللاحقة هناك والأحداث المتلاحقة في روسيا وكل ما يتعلق بتطورات الموقف في كوبا ، والتقى مع العديد من رؤساء الدول والقادة الكبار ، من أمثال : الجنرال جياب بطل النصر الفيتنامي على فرنسا وأمريكا والزعيم الكوبي فيدل كاسترو وأسرة أرنستو شي جيفارا ، والرئيس الغيني سيكوتوري ، ورئيس الكونغو برازافيل ماريان نجوابي ، والرئيس الفرنسي فرانسوا ميتران . ورئيس وزراء اليابان ، والرئيس الفلسطيني عرفات ، والزعيم الفلسطيني جورج حبش وقادة آخرين، وكتب مئات الموضوعات عن تلك الرحلات والمقابلات مع الزعماء .

■ ■ ■


مكتبة جزيرة الورد
القاهرة : ٤ ميدان حليم خلف بنك فيصل
ش ٢٦ يوليو من ميدان الأوبرا ت : ٠١٠٠٠٠٤٠٤٦ ـ ٢٧٨٧٧٥٧٤
Tokoboko_5@yahoo.com